روبرت لويس استيفنسن

المختطف

رواية

ترجمة : مراد الزمر

مراجعة : مصطفى حبيب

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

المُختَطْف

روبرت لويس استيفنسن

ترجمة: مراد الزمر

مراجعة: مصطفى حبيب

نبذة عن الرواية

قال الآخر:

يا "جلينور"، إن ذلك أمر لا يصلح للمزاح!

مرَّ بي هذان الاثنان ملاصقين لي يحملقان فيَّ، بينما جاء التابعان في المؤخرة يعرجان، وعلى مبعدة رمية حجر من سابقيهما، قال لي "كولين روي أوف جلينور" الذي كان يطلقون عليه اسم "الثعلب الأحمر" وهو من كُنتُ أوقفتُهُ لأسألَه: وعم تبحث في "أوشارن"؟

فقلتُ:

أبحث عن الرجل الذي يعيش هناك.

فقال "جلينور" وهو يتأملني:

أعني "جيمس الوديان الصغيرة"؟!

الفصل الأول
شرعتُ في رحلتي إلى بيت آل شو

سأبدأ قصة مغامراتي مع صبيحة بعينها من أوائل شهر يونية من سنة السماح 1751، حين انتزعتُ المفتاح من باب منزل أبي للمرة الأخيرة، وعندما نزلت إلى الطريق كانت الشمس قد بدأت تلقي أشعتها على قمة التلال، ولما بلغت دار الأبرشية، كانت الطيور السوداء تبعث صفيرها في حديقة الزنبق، وشرع الضباب الذي يخيم على الوادي وقت السَّحر يعلو ويتلاشى.

كان الرجل الصالح السيد «كامبل» قسيس «أسندن» في انتظاري عند باب الحديقة، فسألني عمَّ إذا كنت قد تناولت طعام إفطاري، ولما سمع بأني لست في حاجة إلى شيء، أخذ بيدي بين كلتا يديه، ووضعها برفق تحت ذراعه وقال:

- حسنًا أيها الصبي «ديفي»، سأرافقك حتى المخاضة لأطلقك في الطريق.

ظللنا نتقدم في المسير صامتين، وبعد برهة قال:

- هل أنت آسف على رحيلك عن «أسندن»؟

قلت: «لماذا يا سيدي! لو عرفت إلى أين المصير، أو ماذا سيحدث لي على الأرجح، لأخبرتك بمشاعري صادقًا. إن «أسندن» مكان جميل حقًّا، وكنت غارقًا في السعادة هناك، ولكني لم أرَ مكانًا سواه قط. ومنذ مات أبي وأمي كلاهما، أصبحت أشعر بأنني لست أقرب إليهما وأنا في «أسندن» مني وأنا في مملكة «هنغاريا»، وأصدقك القول بأنه لو طاف بفكري أن الفرصة ستتاح لي بأني سأحيا حياة أفضل في المكان الذي سأذهب إليه، فإنني لن أتردد في الرحيل بعزيمة صادقة».

فقال: «نعم، حسنًا يا «ديفي»، إذَنْ أرى لزامًا عليَّ أن أحدثك عن ثروتك أو قدر ما أستطيع، عندما ماتت أمك، وحين مرض والدك (الرجل التقي الفاضل) مرض الموت عهد إليَّ بخطاب خاص، وأنبأني بأنه يحتوي على ميراثك». واستطرد قائلًا. «وحالما أموت ويمسي المنزل خاويًا، فعليك أن تعطي ولدي هذا الخطاب في يده، وتجعله يأخذه ويرحل إلى بيت آل شو، وهو ليس بعيدًا عن «كراموند» هذا هو المكان الذي أتيت منه، والذي يصلح لابني أن يعود إليه، إنه صبي حازم ورحَّالة حذر، ولا يراودني شك في أنه سيصل سالمًا وسيكون محبوبًا أينما حل»، فصحت به قائلًا:

- بيت آل شو! وما الصلات التي تربط بين أبي وبين بيت آل شو هذا؟!

فأجاب السيد «كامبل»:

- تَرى، مَن ذا الذي يستطيع أن يفصح عن هذا على وجه التحقيق! ولكن تلك الأسرة التي تحمل اسمها يا بني هي «بلفور آل شو»، إنه بيت عريق أمين ذائع الصيت مرموق، وربما يكون قد فقد تلك المميزات في هذه الأيام الأخيرة، وكان والدك أيضًا رجل علم بما يلائم مقامه، لا يدانيه أحد في إدارة المدارس، أو في الأسلوب الذي يتحدث به ناظر مدرسة، ولكن -كما ستتذكر بنفسك- كان يطيب له أن أرافقه إلى الأبرشية ليقابل المثقفين، ويلتقي برجال أسرتي أمثال: «كامبل أوف كيلرينيت» و«كامبل أوف دنسوير» و«كامبل أوف مينش» وغيرهم، وكان يلذ لجميع رجال الأسر المعروفة صحبته، وأخيرًا لكي أطرح أمامك كل عناصر الأمر، فها هو ذا نفس الخطاب الذي يحوي الوصية، وقد سطر غلافه بيد أخينا الراحل نفسها».

أعطاني الخطاب وقد كُتب على الغلاف الكلمات الآتية:

«إلى يد السيد «إبينزر بلفور آل شو» في بيت آل شو، على أن يسلمه له ابني «ديفيد بلفور».

كان قلبي يدق دقًّا قويًّا لهذا الأمل العظيم المرتقب الذي تفتح فجأة أمام صبي لم يتجاوز السابعة عشر من عمره، ابن ذلك المعلم الريفي الفقير في غابة «إتريك»، فتلعثمت قائلًا:

- لو كنت مكاني يا سيد كامبل، فهل كنت تذهب؟

فقال القسيس: «حقيقة كنت أذهب وبلا تردد. إن صبيًّا جميلًا مثلك يستطيع أن يبلغ «كراموند» (المجاورة «لأدنبرة») في مسيرة يومين. ولو سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ، ودفع بك أقاربك الذين هم من علية القوم -والذين لا يخالجني شك في أن بعض دمهم يجري في عروقك- إلى الباب. فما عليك إلَّا أن تعود أدراجك مسيرة يومين آخرين، وتطرق باب الأبرشية، ولكني آمل أنهم سيحسنون لقياك كما تنبأ لك بذلك أبوك، ولشيء ما، أعلم أنك ستكون رجلًا عظيمًا في وقت ما». ثم استطرد قائلًا: «وهنا أيها الصبي «ديفي» فإن وجداني يحدثني بأن أطري لك هذا الرحيل، وأن أدلك على السبيل الذي تأمن به أخطار الدنيا».

وعند ذلك وقع اختياره على مقعد مريح فوق قطعة حجرية مستديرة تحت شجرة على جانب الطريق، فجلس عليه، وشفته العليا الطويلة تنطق بالجدية، والشمس تلقي أشعتها علينا متخللة قمتين، ثم وضع منديل جيبه على قبعته ذات الحزام؛ اتقاء حرارة الشمس.

وهناك -بعدئذ- رفع سبابته، وأول شيء حذرني منه كان ضد عدد وفير من العقائد الدينية الخاطئة التي لم يسبق أن مرت بي تجاربها، وحثني على إقامة الصلاة في مواقيتها، وألَّا أكف عن القراءة في الإنجيل، ثم صور لي ذلك البيت العظيم الذي كنت وثيق الصلة به، وكيف أوطن النفس على التصرف مع أهله، ثم قال:

- كن رقيقًا يا «ديفي» في الأمور البسيطة، وكن واعيًا لما أقول؛ لأنه ولو أنك ناعم المولد، إلَّا أنك نشأت نشأة ريفية لا تجعلنا نحس بالخجل من تصرفاتك يا «ديفي»، لا تجعلنا نحسُّ بالخجل، وفي ذلك البيت العظيم واسع الأرجاء، كن رقيقًا مع كل

أولئك الخدم الذين تعج بهم الدار، وكن حذرًا سريع الخاطر متئدًا في حديثك كما ينبغي. أما فيما يتعلق برب البيت، فتذكر أنه سيده. لن أقول لك مزيدًا إلَّا أنك تمجد مَن يستحق التمجيد، وإنه لمما يدعو إلى السرور أن تطيع سيدًا أو حتى شابًّا صغيرًا».

فقلت: «حسنًا يا سيدي، قد أفعل ذلك، وأعدك بأني سأعمل جهدي لأكون عند حسن ظنك»، فأجاب السيد «كامبل» من أعماق قلبه:

- «حسنًا جدًّا، والآن لنأتِ إلى الماديات أو (بالأحرى) إلى غير الماديات. ها هنا معي لفافة صغيرة تحتوي على أربعة أشياء»، جذبها أثناء حديثه بشيء من المشقة الشديدة من جيب في طرف سترته، واستطرد قائلًا: «وأول هذه الأشياء الأربعة هو استحقاقك الشرعي: إنه مبلغ زهيد ثمن لكتب أبيك وأثاثه التي اشتريتها (كما أوضحت في أول الأمر)، وعمدت إلى إعادة بيعها إلى الناظر الجديد ابتغاء نفع يعود عليك، وأما الأشياء الثلاثة الأخرى فهي هدايا، وإنه لمن دواعي غبطة السيد «كامبل» وغبطتي أن تتقبلها. فالأول، الشيء المستدير، سيكون أكثرها بعثًا للبهجة في نفسك عند بدء رحيلك. أوه يا «ديفي» أيها الصبي، إنه ليس إلَّا قطرة في بحر، ولن يعينك إلَّا قليلًا، ثم لا يلبث أن يتلاشى كالصباح، وأما الشيء الثاني المسطح المربع، والذي تجد عليه سطورًا، فإنه سيقف إلى جانبك طوال حياتك، وسيكون كعصا ذات نفع لك في الطريق، ووسادة مريحة لرأسك في مرضك، وأما الشيء الأخير المكعب الشكل، فإنه (كما سترى) أمنيتي النقية لك بالعيش في أرض أفضل».

عند هذا انتصب واقفًا على قدميه، وخلع قبعته، ثم صلى قليلًا بصوت مرتفع، وبعبارات مؤثرة من أجل شاب بدأ يشق طريقه في الحياة، وفجأة طوقني بذراعيه، وضمني إلى صدره بقوة، ثم أمسك بي على طول ذراعيه، ونظر إليَّ بوجه ينطق كله بالأسى، ثم استدار وودعني باكيًا، وعاد أدراجه مهرولًا في الطريق الذي سبق لنا أن سلكناه. قد يكون لغيري أن يضحك لمرآه، وأما أنا فقد كنت في حالة فكرية لا تسمح لي بذلك. ظللت أرقبه طالما أنه على مرمى البصر. لم يتوقف عن إسراعه، ولم يلتفت إلى الخلف مرة واحدة، فطاف بذهني أنه بهذا قد أفرغ كل ما بنفسه من أسى على رحيلي، وأحسست بأن ضميري يلذعني بعنف؛ لأنني كنت من ناحيتي شديد الغبطة لهذا الرحيل عن ذلك الريف الهادئ، والذهاب إلى بيت عظيم تدب فيه الحركة والحياة، والعيش بين قوم أثرياء ذوي مكانة يحملون اسمي ويجري في عروقهم دمي.

ساءلت نفسي: «ديفي، ديفي، هل بدوت في يوم من أيام حياتك بمثل هذا الجحود الأسود؟ وهل تستطيع أن تنسى النعم الماضية والأصدقاء القدامى لمجرد اسم يدوي؟»، ثم قلت في ضيق: «يا للخجل!».

جلست بعد ذلك على الحجر المستدير الذي كان يجلس عليه الرجل الصالح، ثم فتحت اللفافة لأرى بعيني الأشياء التي أهداها إليَّ، فذلك الشيء الذي قال إنه مكعب؛ لم يخالجني أدنى شك، بل كنت واثقًا كل الثقة في أنه إنجيل صغير ملفوف في حفاظ

من الصوف. وأما ما قال عنه إنه مستدير، فلم يكن سوى قطعة من النقود (شلن). والشيء الثالث الذي قال عنه رائع وإنه سيعينني في عافيتي ومرضي طول أيام حياتي؛ فقد كان قطعة صغيرة من ورق عادي أصفر غير مصقول، كتب عليها بالمداد الأحمر ما يأتي:

«صناعة الزنبق من ماء الوادي».

«خذ الأزهار من زنبق الوادي وقطرها في وعاء به خمر، واشرب ملء ملعقة أو ملعقتين كلما واتتك الفرصة. إنه يرد النطق لمن أصابهم الخرس، ويساعد على شفاء النقرس، ويبعث الطمأنينة في القلب، والقوة في الذاكرة. توضع الأزهار في زجاجة محكمة الغلق، وتدس لمدة شهر كامل في التل الذي يلجأ إليه النمل، ثم أخرجها، تجد سائلًا من عصير الزهر. ضعه في زجاجة، فهو يفيد المريض والسليم، رجلًا كان أو امرأة».

ثم بيد القسيس أُضيفت العبارة الآتية:

«كذلك لمرض المفاصل، فإنك تحكها به، وللأعرج ملعقة كبيرة كل ساعة».

أصدقك القول بأني ضحكت لهذا، ولكنه ضحك مهزوز، وكنت مبتهجًا حين وضعت اللفافة في طرف عصاي، ثم انطلقت، وعبرت المخاضة وتسلقت التل على طرفه البعيد. وعندما بلغت طريق الماشية الأخضر الذي يجري متسعًا بين أعشاب برية مزهرة، ألقيت النظرة الأخيرة على أبرشية «أسندن» والأشجار المحيطة بمنزل القسيس، وعلى الأشجار الكبيرة القائمة بفناء الكنيسة مثوى أبوَيَّ.

* * *

الفصل الثاني
أصِلُ إلى نـهَاية الرِّحلة

عندما وصلت إلى قمة أحد التلال فيما بعد ظهر اليوم التالي، رأيت الإقليم يترامى أمامي منحدرًا حتى يصل إلى البحر، وفي وسط هذا المنحدر، وعلى حافة طويلة فوق مرتفع ممتد، قامت مدينة «أدنبرة»، ينبعث منها الدخان كالأتون، وكان هناك علم يخفق فوق القلعة، أما السفن فرائحة غادية، أو مستقرة في مراسيها بالخليج، وقد استطعت -رغم بعدها عني- أن أتبينها بسهولة، وقد أخذتني دهشة شديدة لمرآها.

مررت بعد ذلك بمنزل يقطنه أحد الرعاة، ثم سلكت مسلكًا وعرًا متجهًا إلى جوار «كراموند»، وظللت أتنقل من مكان إلى آخر متخذًا طريقي إلى غرب العاصمة بجوار «كولنتون»، حتى وصلت إلى طريق «جلاسجو» ولشدَّ ما كان سروري وعجبي عندما رأيت كتيبة تسير بدقات أقدام رتيبة على أنغام المزامير، وقائدًا مسنًّا أحمر اللون يمتطي صهوة جواد أشهب يسير في أحد طرق القافلة، وفرقة من الحرس بقبعاتهم البابوية في الطرف الآخر، فارتقى إلى ذهني كبرياء الحياة عند مرأآ السترات الحمراء ومسمع تلك الموسيقى الشجية. وبعد مسيرة قصيرة أنبئت بأني في أبرشية «كراموند»، وبدأت أبدل من تحرياتي عن اسم بيت «آل شو». كانت الكلمة تبدو عجيبة أمام أولئك الذين طلبت إليهم أن يدلوني على الطريق إليه. ظننت أول الأمر أن بساطة مظهري وملابسي الريفية التي كساها جميعها تراب الطريق لم تكن لتتلاءم مع عظمة المكان الذي أسأل عنه، ولكن بعد أن رمقني اثنان أو ثلاثة ممن سألتهم بنفس النظرات ونفس الجواب، بدأت أفكر في أن هناك شيئًا غريبًا يتعلق ببيت «آل شو» نفسه.

ولما رأيت أنه من الأفضل أن أضع نهاية لهذه المخاوف، فقد بدلت من طريقة استقصائي، وعندما أبصرت برفيق أمين آتٍ على طول درب، جالس على عريش عربته، سألته عمَّ إذا كان قد سبق له أن سمع عن بيت أطلقوا عليه اسم «بيت آل شو»، فأوقف عربته، ونظر إليَّ كما سبق للآخرين أن فعلوا، وقال:

- نعم. لماذا؟

فقلت: «وهل هو بيت عظيم؟».

قال: «بلا شك، فالبيت كبير واسع الأرجاء».

قلت: «نعم، وماذا عن القوم الذي يضمهم؟».

فصاح قائلًا: «قوم! أمجنون أنت؟ ليس هناك مَن تسميهم قومًا».

قلت: «ماذا! حتى ولا السيد «إيبنزر»؟.

فقال الرجل: «أوه، نعم هناك رب البيت إذا كان هو مَن تريد حقًا. وما شأنك بهذا أيها الرجل؟».

فقلت في شيء من الحياء: «لقد أوحى إليَّ بأني سأحصل على عمل».

فقال الحوذي بإشارة حادة جفل لها جواده: «ماذا؟»، ثم قال بعد ذلك: «حسنًا أيها الرجل» واستطرد قائلًا: «ليس هذا من شأني، مع أنك تبدو صبيًّا لائقًا بالحديث معه، وإذا كنت ستأخذها نصيحة مني، فابتعد عن بيت «آل شو».

كان الشخص التالي الذي لقيته ضئيل الجسم نشيطًا، ذا شعر جميل أبيض مستعار، عرفت من قسمات وجهه أنه حلَّاق، ولما كنت على ثقة من أن الحلاقين فضوليون، فقد سألته ببساطة عن أي طراز من الرجال ذلك السيد «بلفور آل شو» فصاح: «هُوْ هُوْ هُوْ». ثم قال إنه ليس طرازًا من الرجال، ليس طرازًا من الرجال أبدًا، ثم بدأ يسألني في دهاء عن مهمتي في ذلك البيت، ولكني كنت أكثر دهاء منه، فانصرف إلى زبونه التالي دون أن يظفر مني بشيء.

لا أستطيع أن أصف لك على وجه التحقيق تلك الصفعة التي لطمت تصوراتي، فكلما ازدادت الاتهامات غموضًا تضاءلت محبتي لهم؛ لأنهم تركوا خيالي في متاهة واسعة.

أي نوع من الدور العظيمة كان هذا البيت الذي جعل كل مَن في الأبرشية يحملق في وجهي إذا ما سألته عن السبيل إليه، وأي لون من السادة ذلك الذي تجتاح سوء سيرته جوانب الطريق؟ لو كان بيني وبين «أسندن» مسيرة ساعة، لما ترددت في الرجوع إليها تاركًا مغامرتي، عائدًا إلى منزل السيد «كامبل»، ولكن بما أن المدى قد طال بي فإن مجرد الخجل لن يلذعني -فأكف عن السؤال- إلى أن أصل بالأمر إلى ملمس البينة. وإذا طرحنا اعتدادي بنفسي جانبًا، فقد كان منوطًا بي ألَّا أستكين، ورغم أن أذني قد عافت ما سمعت، وأني بدأت رحلتي مبطئًا، إلَّا أني ما لبثت أواصل سؤالي عن الطريق، وظللت أسعى فيه.

كانت الشمس تجري نحو مستقرها على وشك المغيب، حين قابلت امرأة بدينة سمراء في وجهها شراسة، تجر ساقيها هابطة من فوق قمة تل، وعندما سألتها سؤالي التقليدي، رمقتني بنظرة حادة، ثم رافقتني عائدة إلى القمة التي بارحتها لتوها، وأشارت إلى بناء ضخم في العراء، مقام على بقعة خضراء في قاع الوادي المتاخم. كانت المنطقة المحيطة به جميلة تتخلل هضابًا منخفضة، وكان مرأى مياهها وأشجارها ممتعًا، وبدت المحاصيل أمام ناظري بهيجة كل البهجة، ولكن المنزل نفسه بدا وكأنه نوع من الأطلال، لم أرَ طريقًا يصل إليه، ولم يرتفع من مداخنه دخان، ولم يكن به ما يشبه الحديقة، فغاص قلبي بين أضلعي وصحت:

- هذا!!

استشاط وجه المرأة غضبًا يفيض حقدًا على رب البيت، ثم صاحت:

- هذا هو «بيت آل شو»، بُني بالدم، وأوقف بناؤه بالدم، وسيحيله الدم إلى أنقاض. ثم صاحت مرة أخرى قائلة: «انظر هنا. هأنا أبصق على الأرض وألعنه، فلتصبح

نهايته سوداء إذا رأيت رب البيت، فقل له ما تسمع، قل له إن «جينيت كلوستون» قد صبت اللعنة عليه ألفًا ومائتي مرة، وإن خاتمة البيت وما فيه من حظيرة للخيول والأبقار، ومن فيه من رجل وضيف، وسيد وزوجة، وفتاة وطفل، ستكون سوداء.. سوداء».

ثم قفزت المرأة التي ارتفع صوتها، وكأنه أنشودة ساحرة مولية ظهرها إياي، ثم انصرفت.

وقفت حيث تركتني وقد انتصب شعر رأسي إلى مداه، كان الناس في تلك الأيام لا يزالون يعتقدون في الساحرات، ويرتعدون عند ذكر اللعنة، ثم إن هذه المرأة وهي تبصق كنذير شؤم، وتستوقفني قبل أن أصل إلى مأربي، قد سلبتني قوة ساقي.

جلستُ، ثم نظرت إلى بيت «آل شو»، وكلما طال تأملي في المنطقة ازدادت في نظري بهاء، فالشجيرات المحملة بالأزاهير تكسو جميع أرجائها، والأغنام تنتشر في الحقول فترصعها، وأسراب الطيور تحوم في نسق بديع، وكل ما في الأرض ينطق بالحنان، ورغم هذا فإن البناء الكبير الذي قام في وسطها قد أفسد عليَّ متعة الخيال.

جلست على حافة الحفرة، والفلاحون يمرون بي عائدين من حقولهم، ولكن كانت تنقصني الروح التي تدفعني إلى أن أحييهم تحية المساء، وأخيرًا غربت الشمس، وفي ثنايا ضوء السماء الصفراء رأيت عمودًا من الدخان صاعدًا في حلقات، إلَّا أنه لم يكن في نظري أشد كثافة من دخان إحدى الشموع، ولكن طالما أن هذا الدخان يدل على أن هناك نارًا ودفئًا وطبخًا، فلا بد وأن يكون هناك كائن حي يقطن الدار قد أشعل هذه النار، وعند ذلك نزلت السكينة على قلبي.

سلكت بعد ذلك طريقًا صغيرًا هزيلًا يسير بين الحشائش، ويصل إلى مقصدي، ومع أنه كان مسلكًا هزيلًا حقًّا لا يصلح لأن يكون السبيل الوحيد إلى مكان مأهول، إلَّا أني لم أرَ سواه.

والآن أتى بي الطريق إلى قوائم حجرية مرتفعة بجوارها مسكن عار غير مسقوف، وسترات عسكرية على القمة، ومدخل لم يكتمل بناؤه بعد، قصد به أن يكون مدخلًا رئيسًا، وبدلًا من أن يكون له أبواب مصنوعة من حديد مصاغ، فقد كان هناك بابان موثقان ببعضهما البعض بحبل من القش، وطالما أنه لم يكن هناك أسوار لحديقة، أو ما يدل على طريق تحف به الأشجار، فقد مر الطريق الذي سلكته بيمين الأعمدة متجهًا نحو الدار وكلما اقتربت منه، بدا أكثر وحشة، فقد ظهر وكأنه جناح منزل لم يتم بناؤه، وما كان ينبغي أن تبقى النهاية الداخلية مفتوحة في الطوابق العليا عارية تحت السماء، كان درجه لم ينته بناؤه بعد، وكثير من النوافذ بغير زجاج، والخفافيش تطير رائحة غادية كالحمام خارج أبراجه.

كان الليل قد شرع يرخي سدوله عندما حاذيت الدار، وبدأ بصيص من الضوء يتلألأ خافتًا في ثلاث من النوافذ السفلى التي كانت شاهقة العلة ضيقة قد أحكمت قضبانها.

ساءلت نفسي: أهذا هو القصر الذي كنت أسعى إليه؟ وهل فيما وراء هذه الجدران ألقى أولئك الأصدقاء الجدد الذين أَجِدُّ في البحث عنهم؟ وهل أستقبل هنا آمالي

العراض؟ لماذا؟ كانت النار والأضواء المتلألئة تنبعث من منزل أبي على شاطئ الماء في «أسندن»، فيراها الناس على مبعدة ميل، ويفتح بابه لدقات السائلين!

تقدمت حذرًا، وعندما أرهفت السمع في أثناء مسيري، سمعت صليل أطباق وسعالًا جافًّا لهفًا يخرج في نوبات، ولكني لم أسمع صوت حديث ولا نباح كلب.

كان الباب -كما استطعت أن أتبينه في الضوء الخافت- قطعة ضخمة من الخشب رصعتها المسامير، فرفعت يدي، وقلبي يغوص بين ضلوعي، وطرقت الباب مرة، ثم توقفت وانتظرت أرهف السمع، فإذا البيت قد أمسى في صمت مميت، ومرت دقيقة بأكملها لم يتحرك فيها شيء إلَّا خفافيش تحوم، فطرقت الباب ثانية وأصغيت مرة أخرى، ولكن أذني في هذه المرة كانت قد اعتادت على الصمت، إلى حد أني سمعت الدقات الرتيبة لساعة الحائط تعد الثواني، ولكن، مَن ذا الذي في داخل المنزل صامت صمت الموتى! لا بد وأن يكون قد حبس أنفاسه.

راودتني نفسي عن الفرار، ولكن الغضب استبد بي، وبدلًا من هذا فقد بدأت أمطر الباب ركلًا ولطمًا، وأصيح مناديًا السيد «بلفور». كنت في أحر ندائي عندما سمعت سعالًا فوق رأسي مباشرةً، ففزت إلى الخلف ونظرت إلى أعلى، فرأيت رجلًا في نافذة الطابق الأول، يرتدي رداء نوم طويلًا، وفوهة بندقية قصيرة تشبه فوهة الناقوس، وسمعت صوتًا يقول:

- إنها محشوة.

فقلت: إني أحمل رسالة للسيد «إيبنزر بلفور». هل هو هنا؟

فأجاب الرجل حامل البندقية:

- ممن هذا الخطاب؟

فاستشطت غضبًا، وقلت: «إما أن يكون هنا، وإما لا».

فكان الجواب: «حسنًا، تستطيع أن تضعه على عتبة الباب وتنصرف».

فصحت: «لن أفعل هذا، لا بد لي أن أسلمه إلى يدي السيد «بلفور» كما أمرت بأن أفعل؛ لأنها رسالة تعارف».

فصاح الصوت بحدة: «ماذا؟!».

فأعدت ما قلت، وجاء السؤال التالي بعد فترة ليست بالقصيرة:

- ومن تكون أنت؟

فقلت. «لست خجلًا من ذكر اسمي. إنهم يسمونني «ديفيد بلفور».

وعند هذا أيقنت أن الرجل قد جفل؛ لأني سمعت صوت ارتطام البندقية بقاعدة النافذة، وبعد مرور فترة طويلة، تبدل الصوت بصورة غريبة، ووجه إليَّ السؤال التالي:

- هل مات أبوك؟

فتولتني الدهشة لهذا، وخانني صوتي فلم أقوَ على الكلام، ولكني وقفت محملقًا، فاستأنف قائلًا:

- نعم. لا ريب في أنه مات، وهذا ما حدا بك إلى أن تأتي إلى هنا تدق بابي.

وبعد فترة أخرى أتبع قائلًا وفي صوته تحدٍّ: «حسنًا يا رجل، سأدعك تدخل». ثم اختفى من النافذة.

* * *

الفصل الثالث

أتعَرّف بعمّي

سمعت صليل السلاسل والمزالج يرن عاليًا، وفتح الباب في حذر، ثم أغلق فور مروري، ثم قال الصوت:

- اذهب إلى المطبخ، ولا تمسس شيئًا.

وعندما كان ذلك الإنسان يعيد مزالج الباب إلى مواضعها، كنت أتحسس طريقي حتى دخلت المطبخ، وكانت النار فيه موقدة وضاءة، رأيت في ثنايا نورها حجرة عارية، أعتقد أن عيني لم تقعا على حجرة في مثل عرائها. رأيت فيها ستة أطباق موضوعة على الأرفف، ومائدة معدة للعشاء، عليها وعاء به ثريد، وملعقة مصنوعة من قرن الحيوان، وقدح به قليل من الجعة، وسوى ما ذكرت لم يكن بتلك الحجرة الخاوية ذات القبوة الحجرية شيء إلَّا صناديق موصدة قد صُفَّت على طوال الجدار، ودولاب في ركن منها مغلق بقفل.

لحق بي الرجل بعد أن انتهى من وضع آخر سلسلة، وكان مخلوقًا دنيئًا قبيح الخلقة، أحدب الظهر ضيق المنكبين، وجهه في لون الصلصال، قد يتراوح عمره ما بين الخمسين والسبعين، غطاء رأسه مصنوع من نسيج صوفي، وكذلك رداء نومه الذي كان يرتديه فوق أسمال قميصه عوضًا عن السترة والصدرية. كان قد مضى عليه وقت طويل لم يحلق لحيته، ولكن أشد ما آلمني بل وأفزعني: أنه لم يحول بصره عني، ولا نظر إلى وجهي نظرة حانية مباشرة. ومهما كانت طبيعة هذا الرجل -سواء بالحرفة أو بالمولد، فقد كان أعمق من أن أسبر غوره، ولكنه كان يبدو كخادم كهل غير ذي نفع، قد وضع في هذا البيت الكبير ليقوم على الخدمة فيه نظير مأكله ومشربه. سألني وهو يحدق النظر فيَّ على مستوى ركبتي:

- أمشوق أنت إلى تناول الطعام؟ تستطيع أن تتناول هذا القدر القليل من الثريد.

فقلت له: إني أخشى أن يكون هذا عشاءه، فقال:

- أوه، أستطيع أن أكون في غنى عنه. سأتناول الجعة؛ لأنها تخفف من حدة سعالي.

شرب الكأس حتى منتصفها جرعة واحدة، وعيناه لا تحيدان عن النظر إليَّ أثناء تناولها، ثم مد يده فجأة، وقال:

- دعنا نر الخطاب.

فقلت له: «إنه خاص بالسيد «بلفور»، لا بك».

فقال: «ومَن تخالني أكون؟ هات خطاب «إسكندر».

قلت: «أتعرف اسم أبي؟».

فأجاب: «قد يكون عجيبًا ألا أعرفه؛ لأنه كان أخي، ومهما يبدو عليك من عدم حبك لي ولبيتي وثريدي إلَّا قليلًا، فإنني عمك يا «ديفي» أيها الرجل، وأنت ابن أخي، لذا، فأعطني الخطاب واجلس، ثم تناول الطعام حتى تشبع».

أعتقد أن عمري لو كان مرتدًّا إلى الوراء عدة سنوات لانفجرت باكيًا من الخجل والضنى واليأس. خانني البيان فتعثر لساني، ولم أجد ما أقوله إن خيرًا وإن شرًّا، ولكني أعطيته الخطاب وجلست إلى الثريد بشهية قليلة نحو الطعام لم يسبق لشاب أن أحس بمثلها.

انحنى عمي على النار يقلب الخطاب بين يديه، ثم سألني فجأة:

- «أتعرف ما به؟». فقلت:

- إنك ترى بنفسك يا سيدي أن خاتمه لم يفض.

فقال: «نعم، ولكن ما الذي حدا بك إلى أن تأتي إلى هنا؟».

قلت: «لكي أسلمك الرسالة».

فقال في خبث ودهاء: «كلا، إنك بلا شك ترنو إلى بعض الأماني».

فقلت: «لا أنكرك يا سيدي أنه عندما قيل لي إن لي أقارب يعيشون في ميسرة، راودني أمل في أنهم سيعينونني على أمري في حياتي، ومع هذا فإني لست سائلًا أتسقط الصدقات من يديك، ولا أتطلع إلى أشياء لا تُعطى لي عن طيب خاطر، مع أن مظهري يدل على فقري، إلَّا أن لي أصدقاء يسرهم عوني».

فقال عمي: «هُوْ هُوْ، لا تكن نفورًا غاضبًا فعما قليل سيحل بيننا الوفاق. ويا ديفي أيها الرجل، إذا كنت قد انتهيت من تناول ذلك القدر القليل من الثريد، فإني سآكل ما تبقى». ثم استطرد قائلًا بعد أن أبعدني عن المقعد والملعقة: «إن الثريد طعام شهي رائع ذو فائدة عظمى للجسد». ثم سبح قليلًا وهو يهمهم، وقال: «أذكر أن أباك كان شديد الكلف بطعامه، وكان قويًّا مع أنه لم يكن أكولًا، أما أنا فلم أكن لأستطيع أن آكل من ملء جوفي»، ثم أخذ رشفةً من قدح الجعة الصغير الذي ربما يكون قد ذكره بواجبات الضيافة؛ إذ إن الحديث الذي تلا ذلك، جرى على النحو الآتي.

قال عمي: «لو كنت تشعر بالظمأ فالماء خلف الباب».

وعند سماعي لهذا، لذت بالصمت، ووقفت على قدمي جامدًا أنظر إلى عمي وقلبي يطفح غضبًا، أما هو فقد كان مسترسلًا في تناول طعامه، وكأنه رجل تحت إلحاح الزمن يرمقني بنظرات قصيرة، ولكنها كالسهام، يوجهها إلى حذائي حينًا، وإلى جواربي الخشنة المنسوجة في البيت حينًا آخر، ولم تتلاق أعيننا إلَّا مرة واحدة فقط عندما اجترأ على النظر إليَّ. لم يكن السارق الذي يضبط متلبسًا بوجود يده في جيب رجل ليبدو أكثر حيرةً وألمًا من صاحبنا، وقد جعلني هذا أفكر فِيمَ إذا كنت أعزو خجله هذا إلى عدم ألفته بالناس واختلاطه بهم، أو ربما بشيء من الجهد يزول عنه هذا الخوف، ويتبدل حاله ويصبح طرازًا آخر من الرجال. أيقظني من هذا التأمل صوته الحاد حين قال:

- هل مات أبوك منذ زمن بعيد؟

قلت: «منذ ثلاثة أسابيع يا سيدي».

قال: «لقد كان رجلًا غامضًا، كان «إسكندر» مقلًّا في كلامه، ومنذ صغره لم ينلني بالسوء يومًا. أليس كذلك؟».

فقلت: «لم أعرف يا سيدي أن له أخًا إلَّا بعد أن أخبرتَني بذلك». فقال «إيبنزر»:

- هل أجترئ وأقول إنك لم تسمع ببيت آل شو أيضًا؟

قلت: «إني لم أسمع إلَّا بالاسم فقط».

قال: «إذا فكرنا في ذلك، فيا لها من طبيعة غريبة لإنسان».

عند كل هذا بدا مقتنعًا اقتناعًا غريبًا، ولكن، هل كان مقتنعًا بنفسه، أو بي، أو بسلوك أبي؟ لست أدري... لقد كان ذلك فوق ما أستطيع أن أتبينه. ومهما يكن من شيء فإنه يبدو لي أنه ليس هناك من شك في أنه ينمي تلك الكراهية وسوء الطوية اللتين اختمرتا في ذهنه من أول الأمر ضدي؛ إذ إنه قفز وسار في الحجرة حتى أصبح خلفي، ثم لمز كتفي بشدة، وصاح:

- سنتفق عما قليل، وإني مغتبط أن ألقاك، والآن تعال إلى مضجعك.

استولت عليَّ الدهشة؛ لأنه لم يشعل مصباحًا ولا شمعة، وتقدمني في الممر الضيق يتلمس طريقه، ويتنفس بعمق، ثم صعد بضع درجات ووقف هنيهة أمام باب مغلق، وفتحه وأنا أسير في أعقابه مباشرة، أتعثر خلفه، ثم أمرني بأن أدخلها؛ لأنها كانت حجرتي. فعلت ما أمرني به، ولكني توقفت بعد أن خطوت قليلًا. ورجوته أن يحضر لي نورًا أضيء به الطريق إلى الفراش، فقال العم إيبنزر:

«هُوْ هُوْ. إن القمر يسطع»

فقلت: «ليس هناك قمر يا سيدي ولا كوكب، والحجرة مظلمة كالهاوية. إني لا أستطيع رؤية الفراش».

فقال: «هُوْ. هُوْ. هُوْ. هُوْ. إني لا أوافق على وجود أضواء بمنزلي؛ لأني أخشى اشتعال الحرائق. طاب مساؤك يا ديفي أيها الرجل». وقبل أن تتاح الفرصة لكي أضيف اعتراضًا، كان قد جذب الباب وأغلقه من دوني من الخارج.

حرت في أمري، أأضحك أم أبكي! كانت الحجرة باردة كالبئر، والفراش -بعد أن وجدت الطريق إليه- رطب كالغدير، ولكن متاعي وجلبابي الذي التففت به كانا معي لحسن الحظ، ورقدت على الأرض تحت السرير اتقاء الهواء، وسرعان ما رحت في سبات.

فتحت عيني مع خيوط النهار الأولى لأجد نفسي في حجرة كبيرة، على جدرانها جلود منقوشة، وقد طُرِّز أثاثها تطريزًا بديعًا، تضيئها ثلاث نوافذ جميلة. لا ريب في أن هذه الحجرة كانت منذ عشر سنوات أو عشرين سنة جميلة يبتهج المرء إذا

نام فيها، أو استيقظ ليجد نفسه بها، ولكنها منذ ذلك الحين أصبحت رطبة قذرة مهجورة، يعبث بها العنكبوت والجرذان أشد العبث، وبالإضافة إلى هذا فإن إطارات النوافذ كانت محطمة. كان هذا في الحقيقة هو الطابع الذي عَمَّ البيت كله مما جعلني أعتقد أنه لا بد وأن يكون جيران عمي الغاضبون وعلى رأسهم «جينيت كلوستون» قد أقاموا حول المنزل حصارًا في وقت من الأوقات.

وفي تلك اللحظة كانت الشمس تسطع خارج الدار، ولما كان البرد القارس داخل تلك الحجرة البائسة يلذعني، فقد ظللت أدق الباب وأصيح حتى جاءني سجاني، وفتح الباب لي فخرجت، ثم قادني إلى ما وراء المنزل حيث كان هناك بئر عميق ترفع منها المياه بالدلو وقال لي:

- اغسل وجهك إن شئت.

وبعد أن غسلت وجهي عدت إلى المطبخ حيث وجدته قد أوقد نارًا ويُعد ثريدًا. كان على المائدة وعاءان وملعقتان مصنوعتان من قرن الحيوان، وقدح واحد صغير من الجعة يحوي نفس القدر، وربما يكون نظري قد وقع على هذا الشيء بالذات بنوع من الدهشة، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد استرعى انتباه عمي؛ لأن ما قاله كان ترديدًا لما دار بخلدي؛ إذ إنه سألني عَمَّ إذا كنت أريد أن أشرب شيئًا من الجعة، فقلت له حقيقة إن هذه هي عادتي، ولكني لا أحب أن يلتزم بها، فقال:

- كلا، كلا، لن أضن عليك بشيء طالما أنه في إطار ما هو معقول.

أحضر قدحًا آخر من الرف، ولشد ما دهشت عندما لم يأتِ بمزيد من الجعة، ولكنه أفرغ نصف ما كان بقدحه في الكأس الخالية حتى أصبح ما فيهما متساويًا تمامًا. لقد كان فيما فعل نوع من الكرم أذهلني، ولو كان عمي بخيلًا حقًّا لكان من ذوي النشأة العالية التي تكاد تجعل الرذيلة أمرًا مخجلًا.

بعد أن انتهينا من طعامنا، فتح «إيبنزر» درجًا وأخرج منه غليونًا مصنوعًا من الصلصال ولفافة من الطباق، قطع منها قدر ما يملأ الغليون ثم أعادها إلى مكانها، وأغلق الدرج مرة أخرى، ثم جلس في ضوء الشمس بجوار إحدى النوافذ يدخن في صمت، ويرمقني بنظراته بين الفينة والفينة، وفجأة أطلق أحد أسئلته قال:

- وأمك؟

وعندما أخبرته بأنها ماتت أيضًا، قال:

- نعم. لقد كانت صبية طيبة.

وبعد فترة صمت طويلة، قال:

- ومَن هم أصدقاؤك أولئك الذين حدثتني عنهم؟

فقلت له: «إنهم أشخاص مختلفون يحملون اسم «كامبل»، ومع ذلك فقد كانوا في الحقيقة شخصًا واحد، إنه القسيس الذي لم يتخل عني لحظة واحدة».

ولكني بدأت أظن أن عمي يستهين بقدري، ولما وجدت نفسي وحيدًا معه، أردت ألا يعتقد بأنني بلا سند. لقد بدا وكأنه يقلب هذا الأمر في رأسه، فقال:

- «ديفي» أيها الرجل، إنك لم تخطئ السبيل حين قصدت إلى عمك «إيبنزر» إني أعتز بالأسرة اعتزازًا شديدًا، وأهدف إلى أن أفعل كل ما يعود عليها بالخير عن طريقك. وفيما أنا أفكر في أن أفعل أفضل الأشياء لك بأن أجعلك تدرس القانون أو الكهنوتية أو الجيش -الذي يحبه الصبية أكثر من أي شيء آخر- فإني لا أنسى أن أقول لك إنني لا أريد أن تخضع أسرة «بلفور» لآل «كامبل» سكان الجبال، وأطلب منك أن تحتفظ بلسانك داخل فمك، لا خطابات ولا رسائل ولا أي نوع من الحديث لكائن من كان، وإلا فها هو ذا بابي».

فقلت: «أيها العم ايبنزر، ليس لديَّ ما يبرر الظن في أنك لا تفعل ما يعود عليَّ بالخير، ومع هذا، فإنه يطيب لي أن تعرف أنني أعتد بنفسي وكبريائي، وأنها لم تكن مشيئتي أن آتي إلى هنا للبحث عنك. ولو قلت لي مرة أخرى إن الباب أمامك، فسآخذ كلمتك مأخذ الجد وأتمسك بها».

وعند هذا بدا على وجهه الحزن والقلق، وقال:

- هُوْ. هُوْ. هذا لا يمكن أن يكون يا رجل، انتظر يومًا أو اثنين، إني لست ساحرًا لأجد لك حظًا في قاع آنية الثريد، ولكن أعطني الفرصة يومًا أو اثنين، ولا تقل شيئًا ما لأحد ما، وأحب ألَّا يرقى لثقتك أي شك في أنني سأفعل الخير لك».

قلت: «إن ما تفوهت به حسن وفيه الكفاية، وإذا طاب لك أن تمد لي يد العون، فلا شك في أن هذا سيبعث عليَّ البهجة في نفسي، ولن أكون إلَّا شاكرًا لصنيعك».

وهنا بدا لي أنني سأكون سيد الموقف، وشرعت أقول بأنني يجب أن أضع ملابس نومي وأغطية فراشي في الهواء لكي تجففها الشمس؛ لأنه ليس هناك ما يدعو إلى النوم في مثل هذا المكان الرطب، فقال بصوته الحاد:

- أهذا بيتك أم بيتي؟

ولكنه سرعان ما استدرك ما قال، فأتبع: «كلا. كلا ليس هذا ما عنيته، وإنما قصدت إلى أقول بأن ما أمتكله يا ديفي يا رجلي إنما هو ملك لك، وإن ما تمتلكه ملك لي. إن الدم أكثر كثافة من الماء، وليس هناك من أحد سواك وسواي يحمل الاسم».

ثم صار يشيد بالأسرة وعراقتها، وبأبيه الذي بدأ يوسع البيت، وبنفسه الذي أوقف البناء فيه؛ لأنه رأى أن في إتمامه إسرافًا آثمًا. ذكرني هذا بأن أبلغه رسالة «جينيت كلوستون» فقال:

- عليها اللعنة ألفًا ومائتين وخمس عشرة مرة، كل يوم مرة منذ أن أوقفت البناء. قسمًا بالله يا «ديفيد»، لا بد لي وأن أشويها على جمر النار قبل أن أموت. إنها ساحرة معروفة بسحرها. سأذهب وأقابل كاتب الكنيسة.

وعند هذا فتح صندوقًا وأخرج منه سترة وصدرية زرقاوين قديمتين، ولكنهما كانتا بحال لا بأس بها، وقلنسوة بين بين. كانت كلها بغير أربطة، ثم ارتداها في إهمال،

وأخرج من الصوان عصا ليتوكأ عليها، وأغلق الصوان والصندوق. وكان على وشك الخروج من المنزل حين خطر له خاطر أوقفه، فقال:

- لا أستطيع أن أتركك وحدك بالمنزل، لا بد وأن تخرج وأغلق الباب.

فصعد الدم إلى وجهي، وقلت:

- لو أخرجتني، فسيكون هذا آخر ما بيني وبينك من إخاء.

أصفر وجهه اصفرارًا شديدًا، وامتص شفتيه، ثم قال:

- ليس هذا هو السبيل.

ثم نظر نظرة شريرة إلى ركن في الحجرة، وأتبع قائلًا:

- ليس هذا هو السبيل لتحظى برضاي.

فقلت: «سيدي، مع احترامي الخاص لسنك ولدمنا المشترك، فإني لا أقيم وزنًا لرضاك؛ فهو لا يساوي عندي أكثر من بنسين. لقد نشأت نشأة فيها اعتداد بنفسي، ولو كنت كل عمومتي، وكل الأسرة، وأكثر من هذا عشرات مرات، ما اشتريت محبتك بمثل هذه الأثمان».

عند سماع هذا، ذهب العم «إيبنزر» إلى النافذة وأطل منها لحظة، واستطعت أن أراه يرتعد وينتفض كمن أصيب بمرض الفالج، ولكن عندما استدار، رأيت ابتسامة تجري على وجهه ثم قال.

- حسنًا، حسنًا. ينبغي أن يحتمل كل منا صاحبه. لن أذهب، وهذا كل ما يقال في ذلك الشأن.

فقلت: «أيها العم إيبنزر، إني لا أستطيع أن أفهم ذلك، إنك تعاملني كلص، وتكره بقائي في هذا المنزل. دعني أقول لك إنني أرى في كل دقيقة تمر وفي كل كلمة تقولها، إنك لا تستطيع أن تحبني. ومن ناحيتي فقد تحدثت إليك كما لم أفكر في أن أتحدث إلى أي رجل آخر، إذَنْ فلماذا تصر على بقائي هنا. دعني أعد. دعني أعد إلى أصدقائي الذين يحبونني وأحبهم»، فقال بلهفة شديدة.

- لا. لا. لا. إنني أحبك وسنتفق عما قليل. ومن أجل شرف البيت لن أدعك تعود من حيث أتيت. ابق هنا هادئًا، وكن ولدًا طيبًا إذا بقيت هنا لفترة وجيزة، وهدأت نفسك. فستجد أننا سنتفق». وبعد أن محصت الأمر في صمت، قلت:

- سأبقى لفترة قصيرة؛ لأن المنطق يقول بأني ألقى العون ممن يجري في عروقهم دمي أكثر من أن ألقاه من الغرباء. وإذا لم نوفق، فإني سأعمل قدر جهدي على ألّا يكون الخطأ من جانبي.

* * *

الفصل الرابع
أتعرض لأشد الخطر في بيت الأشباح

كان اليوم كئيبًا في مطلعه، ولكنه أضحى جميلًا بعض الشيء، فتناولنا الثريد البارد مرة أخرى في الغداء، والساخن في العشاء، وكان هذا الثريد والقليل من الجعة طعام عمي الوحيد. لم يتكلم عمي إلا لمامًا، وإذا نطق فإنما لينطق سؤالًا بعد أن يطول به الصمت كما كان يفعل من قبل، وإذا حاولت أن أستدرجه إلى الحديث عن أيامي القابلة راوغني مرة أخرى. وجدت في غرفة مجاورة لباب المطبخ -حيث ساقني إلى الدخول فيها- عددًا كبيرًا من الكتب، كلها إما باللاتينية، وإما بالإنجليزية. وقضيت فيها وقتًا ممتعًا فيما بعد ظهر ذلك اليوم. حقًّا لقد مر بي الوقت هينًا مع هذه الصحبة الجميلة إلى حد أني كنت أرضى عن بقائي في البيت، ولم يوقظ ريبتي إلَّا مرأى عمي وعيناه اللتان كانتا تلعبان مع عيني لعبة «اختبئ وابحث». (استغماية).

كشفت عن شيء واحد بعث في نفسي بعض القلق، ذلك أني عثرت على ورقة بيضاء في صدر كتاب يروي قصة من قصص البطولة والأشباح (للكاتب باتريك ووكر)، وقد كتب عليها ما يأتي بخط واضح: «إلى أخي إيبنزر في عيد ميلاده الخامس»، وعند هذا حرتُ في أمري. بما أن أبي كان الأخ الأصغر فنحن بين أمرين، إما أن يكون أبي قد ارتكب خطأً غريبًا، وإما أنه كان يجيد الكتابة بخط جميل واضح قبل أن يبلغ الخامسة من عمره.

حاولت أن أطرد هذا الأمر من فكري، ولكن رغم أني استوعبت كثيرًا من مصنفات المؤلفين الممتعة قديمها وحديثها في التاريخ والشِّعر والقصة، إلَّا أن تصوري لخط أبي قد ترك في نفسي أثرًا لا يُمحى. وعندما رجعت أخيرًا إلى المطبخ، وجلست مرة أخرى لأتناول الثريد وقدح الجعة الصغير، فإن أول شيء تبادر إلى ذهني هو أن أسأل عمي «إيبنزر» عَمَّ إذا كان أبي قد تعلم القراءة والكتابة في وقت مبكر من عمره، فأجابني قائلًا:

- «إسكندر»، إنه لم يكن كذلك، وقد كنت أسرع منه. كنت في صغري صبيًّا ماهرًا، واستطعت أن أقرأ عندما استطاع أبوك ذلك».

أثار هذا القول في نفسي كثيرًا من الظنون، ودار بخلدي أن أسأله عَمَّ إذا كان هو وأبي توأم، فقفز من فوق مقعده، وسقطت الملعقة القرنية من يده على الأرض، وقال:

«ما الذي حدا بك إلى أن تسأل هذا السؤال؟»، ثم أمسك بي من صدر سترتي، وفي هذه المرة، نظر إلى عيني نظرة مباشرة، كانت عيناه صغيرتين براقتين كعيني الطير، تغمزان وتحركان جفونهما على صورة عجيبة، فسألته في هدوء؛ لأنني كنت أقوى منه كثيرًا، ولم يكن من اليسير إرهابي:

- ماذا تعني؟ ارفع يديك عن سترتي فليس هذا من آداب السلوك في شيء.

هنا بدا عمي كمن يبذل قصاري جهده ليسيطر على نفسه، فقال:

«يا ديفيد أيها الرجل، لا ينبغي أن تحدثني عن أبيك، ففي هذا ممكن الخطأ». ثم جلس برهة يهتز وهو ينظر إلى وعاء الثريد، ثم قال بصوت لم يصدر من صميم قلبه: «لقد كان كل ما لي من إخوة»، ثم أمسك بملعقته واستأنف عشاءه وهو لا يزال يهتز. إن المسلك الأخير الذي سلكه بوضع يده عليَّ، ثم إن ادعاءه المفاجئ بحبه لوالدي الراحل، كانا أبعد عن إدراكي الذي كان خليطًا بين الخوف والرجاء، فظننت تارة أن عمي ربما يكون رجلًا مختل العقل، وقد يكون جنونه ذا خطر، وتارة أخرى يطوف بخيالي أن الموقف يشبه قصة ملحمة كنت قد سمعت القوم ينشدونها، وهي لصبي فقير له حق مشروع في إرث، وله قريب آثم عمل أن يحول بينه وبين إرثه. وهنا ساءلت نفسي: لماذا يلعب عمي هذا الدور مع قريب فقير له أتى بابه، ويكاد يكون كالسائل إن لم يكن قد أضمر له في نفسه ما يرهبه؟!

بهذا التصور الذي لم أقره كله -ولكنه مع ذلك أخذ يثبت في ذهني- بدأت أحاكيه في نظراته الخفية، حتى إننا كنا نجلس إلى المائدة كالقط والفأر، يرقب كل منا صاحبه بنظرات مختلسة. لم يتفوه بكلمة أخرى خيرة كانت أو شريرة، ولكنه كان في شغل عني بتدبير أمر خفي في ذهنه، وكلما امتد بنا الجلوس وطال نظري إليه، ازددت يقينًا بأن ما يدبره لي ليس فيه من الخير شيء، وعندما انتهى من تنظيف الوعاء أخرج لفافة من الطباق تفي بملء غليونه كما فعل في الصباح، ثم استدار بمقعده نحو المدفأة، وجلس برهة يدخن وقد أولاني ظهره، وأخيرًا قال:

«يا ديفي، لقد كنت سابحًا في التفكير»، وانتظر هنيهة، ثم قال ثانية: «معي قدر قليل من المال كنت قد نذرته لك قبل مولدك»، ثم استتبع قائلًا: «وكنت قد وعدت أباك بذلك حين كنا جالسين على مائدة نحتسي الخمر، ولكن لتعلم أنه ليس من حقك الشرعي، حسنًا، إني أحتفظ بهذا القدر الزهيد على حدة، ورغم أن ذلك كان إسرافًا مني، إلَّا أني موثق بوعدي، ونما هذا المال حتى أصبح الآن بالضبط»، وانتظر برهة، ثم قال وهو يتعثر في كلامه: «أربعين جنيهًا»، ثم رماني بنظرة من طرف عينه من فوق كتفه، وأضاف قائلًا وكأنه يصرخ: «وبما أن الجنيه الإسكتلندي يساوي شلنًا إنجليزيًّا، فإن الفرق كان كبيرًا بين التقديرين».

هنا استطعت أن أتبين أن القصة مكذوبة من أساسها: وقد قيلت لهدف بعينه حرت في التكهن به، ولم أبذل أي جهد في كتمان النغمة الساخرة، فأجبته قائلًا:

- أوه، فكر ثانية يا سيدي، أعتقد أنها جنيهات إسترلينية.

فأجاب عمي:

- هذا ما قلته، جنيهات إسترلينية. ولو خطوت خارج الباب لمدة دقيقة لتتبين أي نوع من الأمسيات ليلتنا هذه، فإني سأحضر لك النقود وأناديك مرة أخرى.

نفذت مشيئته وأنا أبتسم بيني وبين نفسي، محاولًا بأن أجعله يوقن بأنه من السهل خداعي. كانت ليلة ظلماء لم يظهر في سمائها إلَّا قليل من النجوم المنخفضة، وعندما وقفت خارج الباب، سمعت الرياح عن بعد تئن أنينًا أجوف وسط التلال.

قلت لنفسي لا بد وأن يكون هناك ما يجعل الجو مرعدًا متقلبًا، وأدركت قليلًا من تلك الأمور بالغة الأهمية التي ستتكشف لي قبل أن ينقضي المساء.

وعندما نُودي عليَّ مرة أخرى، عد عمي في يدي سبعة وثلاثين جنيهًا ذهبًا، وكان الباقي في يده قطعًا صغيرة من الذهب والفضة، ولكن قلبه سقط بين ضلوعه، فدس هذه القطع الصغيرة في جيبه، وقال:

- هاك النقود، وهذا يدلك على أني طراز من الرجال فريد، وغريب مع الغرباء، ولكن الوعد عندي ميثاق، ولم يكن ما فعلته إلَّا دليلًا على ذلك.

كان عمي يبدو شديد الحرص على ماله، ولذا فقد أخرسني هذا الكرم المفاجئ، وماتت على شفتي الكلمات التي أقدم له الشكر بها، فقال:

- لا تقل شيئًا. لا تشكرني. لا أريد شكرًا، إنني أقوم بما يمليه عليَّ واجبي. إني لا أقول أن أي إنسان يستطيع أن يفعل ما فعلته، ولكن من ناحيتي -رغم أنني رجل حريص- فإن من دواعي سروري أن أفعل الصواب مع ابن أخي. وإنه لمما يبعث على البهجة في نفسي أن الوفاق سيحل بيننا الآن كما يقوم بين صديقين حميمين.

فأجبته بدوري بأسلوب كله عذوبة ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، وكنت طوال الوقت أعجب مما سيعقب ذلك، ولماذا هانت عليه جنيهاته الغالية، إذ إني أرى أن السبب الذي طرحه لا يستسيغه عقل طفل. رمقني بطرف عينه، ثم قال:

- والآن انظر هنا. دقة بدقة.

فأخبرته بأني على أهبة الاستعداد لأثبت اعترافي بالجميل في إطار ما هو معقول، ثم انتظرت متوقعًا أن يصدر إليَّ أمرًا مروعًا، وأخيرًا عندما استجمع شجاعته ليتكلم، لم يقل شيئًا (تمامًا كما ظننت) سوى أن العمر يتقدم به، وإلا أنه قد تحطم بعض الشيء، وأنه ينتظر مني أن أساعده في شؤون البيت وفي الحديقة الصغيرة، فأبديت له استعدادي للمعاونة، فقال.

«حسنًا، فلنبدأ منذ الآن». ثم انتزع من جيبه مفتاحًا صدئًا واسترسل قائلًا: «ها هو ذا مفتاح سلم البرج الكائن في الطرف البعيد من المنزل تستطيع أن تصل إليه من الخارج؛ لأن هذا الجزء من الدار لم يتم بناؤه بعد. اذهب هناك واصعد الدرج، وهات لي الصندوق الموضوع في القمة». ثم أضاف قائلًا: «إن به أوراقًا». فقلت:

«هل أستطيع أن آخذ معي نورًا أضيء به الطريق؟»، فقال بخبث ودهاء:

«كلا، لا أسمح بإضاءة نور في منزلي»، فقلت:

«حسنًا يا سيدي، وهل البرج في حالة جيدة». قال:

«إنه رائع»، ثم استطرد قائلًا أثناء انصرافي: «الزم جانب الجدار؛ لأنه لا يوجد حاجز واق (درابزين)، ولكن الدرج سليم تحت قدميك».

خرجت تحت جنح الظلام، وكانت الريح لا تزال تعوي عن بعد، ورغم ذلك فإنها لم تقترب من بيت الأشباح. اشتدت الظلمة، وكنت مبتهجًا؛ لأني استطعت أن أتحسس

الجدار حتى بلغت الباب الذي يصل إلى درج البرج في نهاية الجناح الذي لم يتم بناؤه بعد، فوضعت المفتاح في ثقب الباب، ولم أكد أديره، حتى استضاءت السماء فجأة بنار وهاجة دون أن أسمع صوت ريح أو رعد، ثم عادت إلى ظلامها مرة أخرى. رأيت نفسي مسوقًا إلى أن أضع يدي على عيني؛ لكي يعود إليهما لون الظلام. حقيقة كنت كالأعشى عندما دخلت البرج.

كان الظلام في الداخل بهيمًا، حتى ليخيل إلى المرء أنه من العسير عليه أن يجتذب أنفاسه، ولكني اندفعت بقدمي ويدي، فلطمت الجدار بإحداهما والدرج الأسفل بالأخرى. كاد الدرج أن يكون مستديرًا، وإذا لمست الحائط تبينت أنه مصنوع من حجر جميل منحوت. والدرج أيضًا رغم أنه كان ضيقًا شديد الانحدار، إلَّا أن يد البناء قد صقلته، وهو منتظم صلب تحت القدم.

تذكرت قول عمي بشأن الحاجز الواقي، وتحسست طريقي في ظلمة كالقار بقلب يخفق.

كان ارتفاع بيت الأشباح حوالي خمسة طوابق كاملة، غير ما كان يتخللها من إضافات. حسنًا، بدا لي أن الدرج يزداد تهوية ونورًا، فساءلت نفسي متعجبًا عن سبب هذا التغير، عند هذا سطع وميض برق صيف لم يلبث أن تلاشى، لم أصرخ لأن الخوف قد عقد لساني، ولم أسقط لأن رحمة السماء قد تولتني، لا لأني كنت قوي البنية.

لم يكن الوميض وحده هو الذي أضاء كل مكان من خلال ثقوب الجدار حتى خِلْتُ نفسي أتسلق عارضة خشبية (سقالة)، بل إن نفس الضوء العابر هو الذي أوضح لي أن درجات السلم غير متساوية الطول، حتى أن موطئ قدمي في تلك اللحظة لم يكن ليبعد عن البئر بأكثر من بوصتين.

قلت لنفسي: أهذا هو السلم الرائع؟! وقفزتْ إلى فؤادي نفثة مصدرها نوع من شجاعة الغضب. لا ريب في أن عمي قد بعث بي إلى هذا المكان لأخوض غمار أخطار جسام، أو ربما لألقي حتفي، ولكني أقسمت على أن أصل إلى غاية ولو أطاح ذلك بعنقي، فجثوت على يدي وركبتي وزحفت ببطء شديد على شكل حلزوني، أتحسس كل بوصة أمامي، وأختبر صلابة كل حجر، وظللت على هذا الحال طالما كنت أرتقي الدرج. بدت الظلمة بمقارنتها بالوميض، وكأنها قد تضاعفت.

لم يكن ما ذكرت هو كل ما في الأمر. بل إن أذني قد أوذيتا وعقلي قد اضطرب من عدم توقف الخفافيش عن الحركة، تلك الوحوش القذرة التي استوطنت الجزء الأعلى من البرج، والتي كانت تلطم وجهي وجسدي إذا ما هبطت في طيرانها.

كان البرج مربع الشكل، وكانت الدرجات في كل ركن من أركانه مصنوعة من حجر كبير على صورة مختلفة لتربط مجموعة من الدرجات الأخرى بعضها بالبعض في مستوى واحد مائل، حسنًا اقتربت من أحد المنعطفات، وبينما كنت

أتحسس ما أمامي كما درجتَ على ذلك، إذ بيدي تتزلق على أحد الحواف، ولم أجد تحتها إلَّا فراغًا.

لم يرتفع بناء الدرج إلى أكثر من ذلك. ولكي توحي إلى شخص غريب بأن يتسلقه، فإنك تسوقه إلى حتفه (ومع شكري للوميض وحذري، فقد نجوتُ).

إن مجرد التفكير في الخطر الذي وقعت فيه، وفي الارتفاع الشاهق الذي كان من المحتمل أن أسقط من فوقه، قد أجرى العرق على جسدي وأرخى أوصالي، ولكني عرفت ما أردته آنئذ، فاستدرت راجعًا وتحسست طريقي مرة أخرى إلى العودة، وغضب مروع يملك على قلبي. وفي منتصف الطريق هبت ريح عاصفة زلزلت البرج، ثم تلاشت وأعقبها سقوط الأمطار، وقبل أن أبلغ سطح الأرض، كانت تهطل كأفواه القرب.

طللت برأسي في العاصفة، والتفت نحو المطبخ، فرأيت الباب مفتوحًا وكنت قد أوصدته ورائي عندما خرجت، ينبعث منه بصيص ضئيل من النور، وخُيِّل إليَّ أني أرى خيالًا ثابتًا تحت المطر لا يتحرك، وكأنه رجل يصيخ السمع، ثم هب وميض يخطف الأبصار، رأيت عمي على ضوئه واضحًا، وفي نفس المكان الذي تخيلته يقف فيه، ثم أعقب الوميض قصف رعد.

والآن سواء أكان عمي قد ظن أن هذا التحطيم هو صوت سقوطي على الأرض، أم أنه سمع فيه صوت الإله يتوعد القاتل، فإني سأترك لك تقدير هذا. لا ريب في أنه قد استولى عليه لون من ألوان الفزع المخيف، فدخل المنزل على عجل تاركًا الباب مفتوحًا من خلفه، تبعته بقدر ما أستطيع من خفة، ودخلت المطبخ دون أن يشعر بي، ثم وقفت أرقبه.

لقد كان لديه فسخة من الوقت لكي يفتح صوانًا في الركن، ويخرج منه غلافًا كبيرًا يحوي زجاجة فيها ماء الحياة، وجلس إلى المائدة وظهره إليَّ، دائمًا، وثانية. كانت تتملكه نوبة من رعدة قاتلة، وصار يئن بصوت عال، ورفع الزجاجة إلى شفتيه يعب الكحول الخالص ملء فمه.

تقدمت نحوه حتى وقفت وراءه مباشرة، وأمسكت بكتفيه فجأة بكلتا يدي وصحت قائلًا: «آه»، فصاح عمي صيحة محطمة، وكأنها ثغاء الغنم، ثم رفع ذراعيه وانكفأ على الأرض كالموتى. صدمت لهذا بعض الشيء، ولكن كان عليَّ أن أفكر في نفسي قبل كل شيء، فلم أتردد في أن أدعه يرقد حيث سقط. كانت المفاتيح معلقة في الدولاب، وكان في تصميمي أن أزود نفسي بالسلاح قبل أن يثوب عمي إلى رشده، ويعود إلى القدرة على تدبير السوء لي.

كان في الصوان قليل من القوارير، وكان واضحًا أن بعضها يحوي أدوية، وقوائم كثيرة جدًّا، وأوراق أخرى كنت راغبًا في أن أنقب فيها إذا كان لديَّ من الوقت ما يسمح بذلك. وجدت أيضًا بعض الحاجيات التي لم تكن تصلح لغرضي، ثم استدرت نحو الصناديق أفتش فيها، فوجدتُ أولها مليئًا بالدقيق، والثاني بحافظات النقود، أما ثالثها فكان مملوءًا بأشياء أخرى كثيرة معظمها من الملابس. عثرت على خنجر

صدئ قبيح المنظر بلا غمد من ذلك الطراز الذي يحمله سكان جبال إسكتلندا، فأخفيته في صدريتي، والتفت إلى عمي فألقيته ممدَّدًا حيث سقط مكومًا على بعضه، ركبته قائمة، وذراعه منبسطة عرضًا. وقد كست وجهه زرقة غريبة، ويبدو كمن توقفت أنفاسه، وخشيت أن يكون قد قضى، لذا فقد أحضرت شيئًا من الماء ولطمت به وجهه، كان يحرك فمه وجفونه، وأخيرًا رفع بصره ورآني، فتولى عينيه ذعر لم يسبق لإنسان في هذه الدنيا أن أحس بمثله، فقلت له:

«تعال، تعال، اعتدل في جلستك»، فتلعثم، ثم قال:

«ألا زلت حيًّا!؟ هل أنت حي يا رجل؟!».

أجبت: «أجل هأنذا حي كما ترى، ولا شكر لك على ذلك».

بدأ عمي يبحث جاهدًا عن أنفاسه بزفرات عميقة، ثم قال:

«الزجاجة الزرقاء، في الصوان، الزجاجة الزرقاء».

قال هذا وأنفاسه لا تزال تزداد بطئًا وثقلًا.

أسرعت إلى الصوان، ووجدت به حقيقة زجاجة دواء زرقاء، وقد كتب مقدار الجرعة على ورقة ملتصقة بها، فأعطيتها له مسرعًا قدر ما استطعت، وبعد أن انتعش قليلًا، قال له:

«إنها النوبة يا ديفي. نوبة قلبية»، فأجلسته على مقعد ونظرت إليه. شعرت حقيقة بشيء من الشفقة على رجل بدا مريضًا على هذه الصورة، ولكن إلى جانب هذا، كان الغضب الشديد يملك عليَّ كل جوارحي.

أحصيت أمامه كل النقاط التي أردت لها إيضاحًا؛ لماذا كذب عليَّ في كل كلمة فاه بها، ولماذا خشي أن أتركه وأرحل، ولماذا كره أن أعرف أنه وأبي توأم، وسألته: «هل هذا لأنه صحيح؟»، ولماذا أعطاني نقودًا كنت مقتنعًا بألا حق له فيها، وأخيرًا لماذا حاول أن يقتلني، أصغى إلى كل هذا صامتًا لا يجيب، وأخيرًا ضرع إليَّ في صوت كسير أن أدعه يذهب إلى فراشه قائلًا:

«سأتحدث إليك في الصباح عن كل ما سألت، وأؤكد لك تأكيد حدوث الموت أني سأقول لك كل شيء».

بلغ به الضعف حدًّا جعلني لا أستطيع أن أفعل أي شيء إلَّا أن أرضى. أغلقت عليه الحجرة، ووضعت المفتاح في جيبي، ثم عدت إلى المطبخ وأشعلت نارًا لم يسبق لهذا المكان أن رأى مثيلًا لها لسنين طويلة خلت، ولففت نفسي في عباءتي الصوفية، ثم استلقيت على صناديق ورحت في سبات.

* * *

الفصل الخامِسُ
أذهبُ إلى معبر الملكة

في المساء سقطت أمطار غزار، وفي صبيحة اليوم التالي هبت ريح شتاء عاتية من الناحية الشمالية الغربية، ساقت أمامها السحب المنثورة، ولكن قبل أن تبزغ الشمس، وقبل أن تغيب النجوم الأخيرة، اتخذت طريقي إلى جانب الغدير، وغصت في بركة كانت مياهها عميقة دوارة، ورغم أن الدفء سرى في جسدي من أثر الاستحمام، إلَّا أني جلست مرة أخرى بجوار النار التي سدت عوزي، وشرعت أتبصر موقفي برصانة وتؤدة.

الآن لم يراودني أدنى شك في أن عمي يناصبني العداء، وأني بلا مراء أحمل حياتي بين يدي، وأنه لن يترك حجرًا دون أن يقلبه للقضاء عليَّ، ولكني كنت يافعًا جريئًا مليئًا بالحياة شأن الكثرة المطلقة من الصبية الذين ترعرعوا في أحضان الريف، وكنت شديد الاعتداد بدهائي.

لقد أتيت إلى بابه وأنا لست أفضل من شحاذ، وأكثر قليلًا من طفل، فقابلني بالغدر والعنف. قد تكون الخاتمة راضية لو أتسيد الموقف وأسوقه أمامي كما يسوق الراعي قطيعًا من الغنم.

جلست هناك أهز ركبتي وأبتسم للنار. فرأيت في تفكيري أني أتنسم خبايا نفسه واحدة تلو أخرى، ويزداد يقيني بأني سأكون سيدًا على الرجل وحاكمًا له.

يقولون إن عرَّاف «أسندن» قد صنع مرآة يستطيع الناس أن يقرؤوا فيها طوالعهم، لا بد وأنها كانت مصنوعة من مادة أخرى غير الفحم المحترق؛ لأني في كل الأشكال والصور التي جلست أمعن النظر فيها، لم أر سفينة ولا بحارًا يضع على رأسه قبعة من الشَّعر، ولا هراوة غليظة لرأسي الأبله، ولا أي إشارة تنبئ عن كل تلك المحن والخطوب التي اكتمل نضجها لتسقط عليَّ.

الآن، امتلأتُ خيلاء بنفسي، فصعدت السلم ومنحت سجيني خلاصه، فحياني تحية الصباح وفيها أدب كثير. بادلته التحية وأنا أنظر إليه من علياء قدرتي، ثم جلسنا نتناول طعام إفطارنا كأن شيئًا لم يقع. قلت وفي صوتي سخرية لاذعة:

«حسنًا يا سيدي، أليس لديك من المزيد ما تقوله لي؟». ولكنه حار جوابًا، فاسترسلت قائلًا: «أظن أنه قد آن لنا -على ما أعتقد- أن يفهم كل منا صاحبه. لقد خلتني صبيًّا ريفيًّا لا يزيد إدراكًا أو شجاعة على عصا الثريد (المغرفة)، وعاملتك على أنك رجل طيب، أو على الأقل أنك لست أشد سوءًا من الآخرين، ولكن يبدو لي أن كلينا كان مخطئًا في تقديره. ما الذي حدا بك إلى أن تخشاني، وتخدعني، وتحاول الخلاص مني بقتلي؟»، فتمتم بعض كلمات بأنه لم يهدف إلَّا إلى الدعابة وأنه يهوى المزاح، وعندما رآني أبتسم، بدل من نبرات صوته، وأكد لي أنه سيوضح لي كل شيء بعد أن ننتهي من تناول طعام الإفطار. قرأت في وجهه أنه

ليس في ذهنه أكذوبة معدة ليقولها لي، مع أنه كان يقدح زناد فكره لابتداع واحدة، وأظن أني كنت على وشك أن أجهر له بذلك حين قطع علينا حديثنا طارق يدق الباب.

أمرتُ عمي بأن يبقى في مكانه، وذهبت لأفتح الباب، فوجدت عند عتبته صبيًّا لم يكتمل نموه بعد، يرتدي ملابس البحر. لم يكد يراني حتى بدأ يرقص بضع خطوات على المزمار القرني البحري (لم يسبق لي أن سمعت بهذه الرقصة أو رأيتها)، ويفرقع بأصابعه في الهواء، ويخطو خطوات هذه الرقصة ببراعة فائقة. كسا الزمهرير وجهه زرقة، وكان هناك شيء ما يتراقص في عينيه، لعلها نظرت حائرة بين الضحك والدموع.

ورغم أن ذلك كان ذا أثر بالغ على العواطف البشرية، إلَّا أنه لم يتفق مع مظهره المرح، قال بصوت محطم:

«ماذا؟! امرح يا رجل». فسألته متئدًا أن يفصح عن دواعي بهجته، فقال:

«أوه، إنها فرحة على أي حال»، ثم شرع يغني:

«إنها بهجتي في ليلة وضاءة».

«في موسم السنة».

وهنا قلت له:

«حسنًا إذا لم يكن لك عمل هنا على وجه الإطلاق، فإني لن أتقيد بآداب السلوك وسأغلق الباب من دونك».

قال: «تمهل يا رفيقي لا تكن عجولًا، ألا تعرف المزاح؟ أم تريدني أن أُلهب بالسياط؟ لقد جئت برسالة من «هنري أوزي» العجوز إلى السيد «بلفور»»، وأراني الخطاب في أثناء حديثه لي، ثم أضاف: «وإلى جانب هذا فإن جوفي يعوي من الجوع أيها الرفيق».

فقلت: «حسنًا ادخل الدار، وستتناول شيئًا من الطعام، حتى ولو كان نصيبي».

بهذا أدخلته المنزل، وأجلسته مكاني حيث التهم فضلات إفطارنا بنهم، يغمز بعينيه بين لحظة وأخرى، ويشكل وجهه ألوانًا، حتى خُيِّل إليَّ أن تلك الروح المسكينة قد رأت فيما تفعل نوعًا من أنواع الرجولة.

في نفس الوقت، قرأ عمي الرسالة، وجلس يفكر، ثم وقف على قدميه فجأة، وقد تملكه شيء من النشاط كثير، وجذبني إلى الركن البعيد من الغرفة.

قال: «اقرأ هذا». ثم وضع الخطاب بين يدي (وها هو ذا ملقى أمامي وأنا أكتب قصتي هذه).

«فندق الهوز بمعبر الملكة».

سيدي،

إني مستلق هنا مع ربان سفينتي في حالة من الاضطراب والفوضى، وهأنذا أبعث إليك بخادم غرفتي لأنبئك بأنه إذا كان لديك من أوامر لما وراء البحار، فأرجو إبلاغي بها. واليوم آخر فرصة لك؛ لأني سأقلع وستدفعنا الرياح خارج الخليج. لن أجهد نفسي لأخفي عليك ما لقيته من عقبات من وكيلك السيد «رانكيلور»، وإن لم نتخلص منها على وجه السرعة، فمن المتوقع أن ذلك سيجر علينا بعض الخسائر. لقد سحبت كمبيالة على أحد المصارف باسمك كتأمين نقدي.

وإني يا سيدي خادمك المطيع،

«إلياس هوسيزون».

وحالما رأى عمي ما فعلت، استطرد قائلًا:

«لعلك ترى يا «ديفي» أن لي مغامرة مع ذلك الرجل «هوسيزون» ربان السفينة التجارية المسماة «بالعهد ديزار»، والآن لو أننا رافقنا صبيك، فإني أستطيع أن أرى الربان في فندق «الهوز»، أو على ظهر السفينة إن كانت هناك أوراق للتوقيع عليها، وحتى لا نسرف في ضياع الوقت، فإننا نستطيع أن نذهب إلى السيد «رانكيلور» المحامي، وبعد أن ينتهي كل هذا [وكنت غير مطمئن إلى كل كلماتي البريئة]، فمما لا شك فيه أنك ستثق في «رانكيلور» إنه وكيل لنصف علية القوم في هذه البقاع، وهو رجل قد تقدمت به السنون، مرموق ذو مكانة وكان يعرف أباك».

وقفت لحظة أفكر، فأنا ذاهب إلى مكان به سفن، وهو بلا شك آهل بالسكان، إذَنْ فلن يجترئ عمي على إتيان العنف معي، ولا مراء في أن صحبة الصبي ستقيني شروره وسوآته إلى حد بعيد، وعندما نصل إلى ذلك المكان، فأعتقد أني أستطيع أن أسوق عمي إلى زيارة المحامي، حتى ولو كان غير جاد عندما عرض عليَّ ذلك الاقتراح.

ربما كنت راغبًا من أعماق قلبي في رؤية البحر والسفن من مكان قريب لها، ولعلك تذكر أني قضيت طوال حياتي في التلال الداخلية، وأني منذ يومين على وجه التحديد قد وقع نظري أول مرة على الخليج منبسطًا كأرض زرقاء، والسفن الشراعية من فوقه وهي ليست بأكبر حجمًا من الدمى. دار كل هذا في رأسي، فقلت وبي عزم:

«حسنًا هيا بنا إلى الخليج».

ارتدى عمي سترته وقبعته، وشد على وسطه سيفًا قصيرًا علاه الصدأ، وأطفأ النار، وأغلقنا الباب، ثم انطلقنا في الطريق.

كانت الريح في تلك البقعة شمالية غريبة، تلطم وجوهنا أثناء مسيرنا. كنا في شهر يونية، والعشب كله أبيض قد توجته الأزاهير والأشجار يانعة مخضرة، ولكن إذا حكمنا بزرقة أظافرنا وألم معاصمنا، كان من المحتمل أن نكون في فصل الشتاء، وأن البياض الذي نراه ليس إلَّا ثلوج شهر ديسمبر.

كان العم «إيبنزر» يتعثر في خطاه أثناء مسيره في الخندق، ينتقل من جانب إلى آخر، وكأنه حرَّاث مسن عائد إلى داره بعد انتهائه من عمله، ولما لم يفه بكلمة واحدة طوال الطريق، فقد رأيت نفسي مسوقًا إلى التحدث مع الصبي الذي أنبأني بأن اسمه «رانسوم»، وأنه ركب البحر منذ أن كان في التاسعة من عمره، ولكنه لم يقل لي كم يبلغ من العمر الآن؛ لأنه فقد قدرته على الحساب.

أراني علامات وشم على صدره، بعد أن كشف عنه في مهب الريح على الرغم من اعتراضي على ذلك؛ لأني ظننت أن هذا التعرض كان كافيًا للقضاء عليه. كان يقذف بأقذع السباب كلما جال بخاطره ما مرت به من أحداث، ولكنه كان أقرب إلى أن يكون طالبًا غبيًّا من أن يكون رجلًا، وأخذ يزهو بذكر ما ارتكبه من سوءات قاسية كالسرقات والاتهامات الزائفة والقتل.

ذكر كل هذا بإسهاب فيه خيلاء وفيه شك كبير، وكان في أثناء حديثه أشبه بمن أصابه الجنون، مما جعلني أعطف عليه أكثر مما أصدقه.

سألته عن السفينة (التي أعلن أنها أجمل سفينة مخرت عباب البحر)، وعن الربان «هوسيزون» الذي امتدحه بصوت لا يقل ارتفاعًا عن مديحه للسفينة. قال: إن «هنري أوزي» (لأنه كان يسمي الربان بهذا الاسم) كان في تقديره رجلًا لا يعبأ بشيء في السماء أو الأرض، وإنه (كما قال عنه الناس) سيواصل إبحاره حتى تقوم الساعة، وإنه رجل غليظ قاس قاتل. كل هذا جعل الخادم المسكين يعجب بهذه المميزات وكأنها على زعمه صفات الرجولة التي يتحلى بها رجال البحر، ولكنه اعترف بنقيصة واحدة في خلق معبوده، ثم أضاف قائلًا: إن هوسيزون ليس بحارًا، ولكن السيد «شوان» هو الذي يتولى قيادة السفينة، وهو أكثرهم مهارة في هذا العمل، لولا إدمانه على الشراب. وهأنذا أقول لك إني أصدق هذا، لماذا؟ «انظر هنا». ثم طوى جوربه وأراني جرحًا أحمر كبيرًا لم يلتئم بعد، جعل الدم يتجمد في عروقي، وقال بصوت يفيض كبرياء: «لقد فعل هذا، فعله السيد «شوان»، فصحتُ:

«ماذا؟! أتلقى على يديه مثل تلك المعاملة التي تنم عن الوحشية؟

لماذا؟ إنك لست عبدًا ليعاملوك على هذا النحو»، فقال الولد الأبله المسكين:

«وكذلك سيرى على يدي. انظر هنا» وأراني سكينًا كبيرًا موضوعًا في حفاظه قال بأنه سرقه، ثم أردف قائلًا: «أوه. دعني أره يحاول، إني أتحداه أن يفعل. يلقى الأسى على يدي، أوه إنه ليس الأول». ثم أكد ما قال بقسم حقير كريه أحمق.

لم أشعر بالشفقة نحو إنسان في هذه الدنيا العريضة بمثل ما شعرت نحو هذا المخلوق الذي يكاد أن يكون أبله.

بدأ يراود فكري وظني أن السفينة «العهد» (بكل ما يحمل اسمها من تقوى) لم تكن بأفضل من الجحيم على سطح البحار إلَّا قليلًا، فقلت له:

«أليس لديك أصدقاء؟»، فقال إن له أبًا في أحد المرافئ الإنجليزية، لا أذكر اسمه، وكان رجلًا رقيقًا، ولكنه مات، فصحت قائلًا:

«باسم السماء، ألا تستطيع أن تجد حياة راضية على اليابسة؟»، قال:

أوه، كلا. ثم غمز بعينيه، ونظر بخبث شديد، وأردف قائلًا:

«سيدفعون بي إلى امتهان إحدى الحرف. إني أعرف حيلة تساوي حرفتين، أعرف». فسألته عن تلك الحرفة التي يمكن أن تكون مروعة كتلك التي يمارسها حيث يحيا هدفًا لأخطار متعاقبة، لا من جراء الريح والبحر فحسب، بل ومن تلك القسوة الهائلة التي يعانيها من أولئك الذين كانوا سادة له. فقال: «إن ما تفوهت به ليس إلَّا كبدًا للحقيقة»، ثم بدأ يطوي حياته، ويحدثني عن البهجة التي يحس بها عندما يطأ أرض الشاطئ، والمال في جيبه ينفقه كرجل، ويشتري تفاحًا، ويترنح من الشراب، ويدهش ممن أسماهم «الراكدون الذين يخشون جوب البحار»، ثم استطرد قائلًا: «وليس الناس كلهم على هذه الحال من المحن، بل هناك من بينهم مَن هم أسوأ حالًا مني، إنهم أولئك الذين يعملون نظير عشرين جنيهًا. يا إلهي، آه، لو رأيتهم وهم يبحرون! لقد رأيت رجلًا في مثل عمرك (ربما كنت أبدو أمامه متقدم السن) له لحية أيضًا، حسنًا وعندما خرجنا من النهر، وانتهى أثر المخدر الذي تعاطاه، صرخ، ويا لعجبي، إنه لم يكف عن الصراخ، فسخرت منه. أضيف إلى هذا أنه كان هناك بعض الصغار أيضًا، أوه أصغر مني، كنت أقوم على تنظيمهم وفي يدي حبل أسوقهم به». وعلى هذا النمط استرسل في حديثه حتى قفز في ذهني ما كان يعنيه بالعشرين جنيهًا. إنهم الآثمون التعساء الذين سيق بهم عبر البحار إلى شمالي أمريكا ليسخروهم أو الأبرياء الأكثر شقاء، أولئك الذين كانوا يختطفونهم لمآرب خاصة أو للأخذ بالثأر.

وصلنا في تلك اللحظة إلى قمة تل، ونظرنا أسفل إلى الخليج والرصيف. كانت مخاضة الخليج (كما هو معروف جيدًا) تضيق في هذا المكان حتى تصبح في سعة نهر متوسط الاتساع، فتتكون مخاضة مريحة تتجه ناحية الشمال، وتحيل الجزء الأعلى إلى مرفأ يصلح لاستقبال جميع السفن. كانت هناك جزيرة صغيرة فيها بعض الأطلال تقع في وسط المضايق تمامًا، وأنشؤوا على الشاطئ الجنوبي رصيفًا يقوم على خدمة المخاضة، ورأيت في نهاية الرصيف على الجهة الأخرى من الطريق ذلك البناء الذي يطلقون عليه اسم «حانة هوز»، مستندًا إلى حديقة غناء، نمت فيها أشجار تتوجها زهرة عيد الميلاد وأعشاب هذا العيد.

تقع مدينة «كوين فري» في أقصى الغرب، أصبح المكان المجاور للحانة شديد الوحشة في ذلك الوقت من النهار بعد أن اتجهت السفينة براكبيها ناحية الشمال، وكان هناك زورق صغير بجوار الرصيف، به بعض من البحارة النائمين على قاعدته الخشبية. إنه زورق السفينة كما أخبرني «رانسوم» وكان في انتظار الربان. وعلى مبعدة نصف ميل، أبصرنا «بالعهد» واقفة في المرسى وحيدة، وكان البحارة في ظهرها في حركة دائبة، والأحمال تتأرجح عند نقلها إليها. وعندما هبت الريح من ذلك الاتجاه، استطعت أن أسمع غناء البحارة وهم يجذبون الحبال، وبعد أن سمعت كل ما قيل لي في الطريق، نظرت إلى تلك السفينة بمقت شديد، وأشفقت من صميم قلبي على تلك الأرواح البائسة التي قُدِّر لها أن تبحر عليها.

وصلنا ثلاثتنا، ثم وقفنا على حافة التل، وهناك عبرت الطريق، ثم تحدثت إلى عمي قائلًا:

«أظن أنه من الصواب أن أقول لك يا سيدي بأنه ليس هناك من الأسباب ما يدفع بي إلى ظهر هذه «العهد».

بدا عمي وكأنه قد استيقظ من حلم، ثم قال:

«إيه! ما هذا؟».

فأعدت ما قلت، فقال:

«حسنًا، حسنًا، أعتقد أننا سنعمل على ما يبعث البهجة في نفسك، ولكن، لماذا نقف هنا؟ إن البرد قارس، وإذا لم أكن مخطئًا فإنهم يدفعون الآن بالعهد إلى عرض البحر».

* * *

الفصل السادسُ
ما حدَث عِند معبَر الملكة

وحالما بلغنا الحانة، قادنا «رانسوم» صاعدًا بنا الدرج إلى حجرة صغيرة فيها مضجع، دافئة وكأنها فرن أُوقد بنار فحم حامية، وقد جلس فيها إلى مائدة تكاد تلاصق المدخنة رجل يكتب، طويل القامة أسمر اللون وقور، ورغم أن الحجرة كانت شديدة الدفء، إلَّا أنه كان يرتدي سترة بحرية ثقيلة مغلقة بزر حتى عنقه، وقبعة مصنوعة من الشَّعر تدلت على أذنيه، ومع ذلك فإني لم أرَ مطلقًا أي رجل حتى ولو كان قاضيًا جالسًا إلى منصته في مثل رزانة هذا الربان وتفكيره ورباطة جأشه، وما إن رآنا حتى انتصب واقفًا على قدميه وتقدم نحونا، ثم مد يده الكبيرة إلى «إيبنزر»، وقال بصوت رقيق عميق:

«إني فخور برؤيتك يا سيد «بلفور»، ومسرور لأنك هنا في الوقت الملائم، فالريح معتدلة والمد في رجعته. إننا سنرى وعاء الفحم القديم يحترق على جزيرة «ماي» قبل أن يحل المساء»، فقال عمي:

«إنك تحتفظ بحجرتك حارة جدًّا»، فقال ربان السفينة:

«إنها عادتي يا سيد «بلفور»، والمعروف عني أني رجل بارد بطبعي. دمي بارد يا سيدي. ليس هناك لا فراء ولا صوف، كلا يا سيدي ولا خمر ساخن يبعث الدفء فيما يسمونه درجة الحرارة، وهذا يا سيدي هو الحال مع الغالبية المطلقة من الرجال الذين يعيشون في البحار الاستوائية، والذين يطلق عليهم اسم «الرجال الماسيون السمر»، فأجاب عمي:

- حسنًا، حسنًا أيها الربان، ينبغي علينا أن نعيش الحياة التي خلقنا لها.

كان من المصادفات العجيبة، أن التصور الذي جال بفكر الربان قد ساهم مساهمة فعالة فيما سألقاه من نائبات؛ لأنه على الرغم من أني عاهدت نفسي على ألا أدع قريبي يغيب عن ناظري، فقد كنت مشوقًا إلى أن أرى البحر عن كثب، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد أضناني جو الحجرة المغلقة حتى ما كاد يقول لي: «أسرع، وانزل الدرج والعب برهة»، حتى كانت البلاهة قد بلغت بي حدًّا جعلني ألبي.

عند هذا انصرفت تاركًا الرجلين إلى زجاجة وكومة كبيرة من الأوراق، وبعد أن عبرت الطريق الواقع أمام الحانة، سرت على الشاطئ فرأيت أن رياح تلك المنطقة قد ساقت أمامها مويجات لا تزيد قوة على تلك التي رأيتها تلطم الشاطئ على سطح البحيرة، ولكن الأعشاب كانت شيئًا جديدًا عليَّ لم آلفه، فبعضها أخضر اللون، وبعضها الآخر داكن طويل، وغير هذه وتلك فقد كان من بينها ما يحمل عائمات صغير للسمك تفرقع بين أصابعي، ومع كل هذا فقد كانت رائحة مياه البحر في داخل الخليج بعيدًا عن الشاطئ مثيرة شديدة الملوحة، أضف إلى هذا أن السفينة

المسماة بالعهد قد بدأت تهز أشرعتها التي تعلقت بأعوادها فتدلت كالعناقيد، وروح جميع من رأيت من الرجال، كل هذا جعلني أفكر في العالم الخارجي.

نظرت إلى البحارة أيضًا في الزورق، فإذا بهم قوم سمر ضخام، بعضهم يرتدي الأقمصة، وبعضهم الآخر يلبس السترات، وغير أولئك وهؤلاء كانوا يلفون المناديل الملونة حول رقابهم، وكان هناك واحدًا منهم يحمل شمارًا للغدرات قد أحكم وضعه إلى جيوبه، واثنان أو ثلاث يحملون هراوات من ذوات العقد، وكانوا جميعًا يتمنطقون بأسياف صغيرة.

أمضيت النهار مع واحد منهم يبدو أنه أقل رفاقه يأسًا، وسألته عن موعد إبحار السفينة، فأنبأ بأنهم سيقلعون إذا ما انحسر المد، وأبدى سروره لمغادرة الميناء حيث لا حانات ولا عازفين على الكمان. قال هذا وهو يقذف بأقذع السباب، مما دعاني إلى الإسراع في الفرار منه، والعودة إلى «رانسوم» الذي بدا أقل الجماعة سوءًا، والذي خرج مسرعًا من الحانة يجري نحوي ويصرخ في طلب كأس من الخمر، فأخبرته بأنني لن أعطيه شيئًا مما طلب؛ لأن كلينا لم يبلغ سن الانغماس في الشراب بعد، ثم قلت:

«ولكنك تستطيع أن تتناول قدحًا من الجعة، وإني أرحب بهذا». فنظر إليَّ عابسًا وقذفني سبابًا، ولكن رغم هذا، فقد كان مبتهجًا لحصوله على الجعة. وفي الحال جلسنا إلى مائدة في حجرة الحانة الأمامية، والتهمنا الطعام والشراب في شهية بالغة.

هنا مر بي خاطر، وهو أني أحسن صنعًا لو أقمت صداقة بيني وبين صاحب الحانة (لأنه أحد رجال تلك المقاطعة)، فقدمت له شيئًا من الطعام والشراب؛ لأن هذه العادة كانت جارية في تلك الأيام، ولكنه كان رجلًا قد بلغ من العظمة مرتبة لا يليق معها أن يجالس روادًا فقراء مثل «رانسوم» ومثلي. كان خارجًا من الحجرة عندما ناديته ليعود إليَّ وأسأله عمَّ إذا كان يعرف السيد «رانكيلور»، فقال:

«نعم، إنه رجل أمين جدًّا»، ثم استطرد قائلًا: «هل أنت الذي حضرت مع السيد «إيبنزر»؟ وعندما أنبأته بالإيجاب سألني: «إنك لست صديقًا له؟ أليس كذلك؟»، وهو يعني بذلك باللغة الإسكتلندية أنني لست أحد أقاربه. فقلت له:

- لا. أبدًا.

قال: «أعتقد ذلك، ومع هذا فإنك تشبه السيد «إلكسندر» إلى حد كبير».

فقلت له:

- إنه يبدو لي أن «إيبنزر» رجل يكره الناس رؤيته في تلك البلاد. فقال صاحب الحانة:

- لا ريب في هذا؛ فهو رجل كهلٌ شرير، وكثير من القوم يتمنون أن يروه مدلى في حبل المشنقة. لقد طرد «جينيت كلوستون» وكثيرًا غيرها من دورهم ومن البلاد،

ومع ذلك فقد كان يومًا ما شابًّا لطيفًا أيضًا قبل أن تأتيه من الخارج أنباء عن السيد «إلكسندر»، وكانت بمثابة الموت له»، فسألته:

- وماذا؟

قال: «لقد قتله. ألم تسمع بذلك؟».

قلت: «ولماذا يقتله؟».

قال: «ولأي شيء إلَّا أن يحصل على المكان».

فقلت: «المكان؟ تعني «بيت الأشباح؟».

قال: «على قدر علمي ليس هناك من مكان سواه».

قلت: «آي يا رجل! هل هذا صحيح؟ وهل كان الإسكندر الابن الأكبر؟» فقال صاحب الحانة:

«حقًّا لقد كان. وأي شيء غير هذا دعاه إلى قتله؟!».

عند هذا بارح الرجل الحجرة في غير أناة، كما كان يريد ذلك من أول الأمر. لا أنكرك أن نفسي كانت قد حدثتني منذ برهة طويلة بما قاله الرجل لي، ولكنَّ هناك شيئًا أظنه، وشيئًا آخر أعرفه حق المعرفة. وأخيرًا جلست مشدوهًا لثروتي الطائلة المرتقبة.

لم أستطع أن أدع نفسي تصدق أن هذا الصبي الذي كان منذ يومين خليًّا يدلف في التراب، قادمًا من غابة «إتريك»، قد أصبح الآن أحد أثرياء الدنيا، له منزل وأرض عريضة، ومن المحتمل أن يمتطي صهوة جواده في الغد. تزاحمت كل هذه الأشياء البهيجة وآلاف غيرها في رأسي عندما جلست أسرح الطرف فيما أمامي من نافذة الحانة غير آبه بما أرى، إلَّا أني أذكر أن بصري وقع على الربان «هوسيزون» واقفًا وسط رجاله على رصيف الميناء في داخل البحر، يتكلم بلهجة فيها شيء من السلطان، ولم يلبث أن قفل راجعًا إلى المنزل. لم يكن في وجهه دمامة رجال البحر، ولكنه كان يحمل قامة مديدة جميلة تتجلى فيها سمات الرجولة، ولا يزال وجهه ينطق بالوقار والرزانة. عجبت في نفسي. هل كان من المستطاع أن تكون القصص التي رواها عنه «رانسوم» صحيحة؟! لقد كنت بين مصدق لها ومكذب؛ لأنها لم تكن لتتلاءم كل الملاءمة مع مظهر الرجل. إنه لم يكن رجلًا طيبًا غاية الطيبة كما ظننت، ولم يكن سيئًا مسرفًا في السوء كما قال عنه «رانسوم»، بل كان في حقيقة الأمر رجلًا ذا دخيلتين متناقضتين، يترك الخيرة منهما خلفه على الشاطئ حالما تطأ قدمه ظهر سفينته.

أعقب ذلك نداء عمي له، فوجدت الرجلين في الطريق معًا، وخاطبني الربان بلهجة فيها احترام وكأننا خدنان (وفي هذا أشد الملق لصبي صغير)، قال:

- سيدي، لقد حدثني عنك السيد «بلفور» أروع الأحاديث، ومن ناحيتي فإني أحب سماتك، ولكم وددت أن أبقى هنا إلى أكثر من ذلك حتى نستطيع أن نقيم بيننا ألفة

صادقة، ولكننا سنعمل ذلك قدر ما يسمح به وقتنا. تعال نصعد إلى ظهر السفينة وتبقى عليها نصف ساعة، وتشرب معي قدحًا إلى أن ينحسر المد.

كنت آنئذ مشوقًا إلى أن أرى ما بداخل السفينة أكثر مما تصفه الكلمات، ولكني لم أشأ أن أدفع بنفسي إلى مخاطرة، فأخبرته بأنني وعمي على موعد مع المحامي، فقال:

«نعم، لقد قال لي عمك ذلك، ولكن، لعلك ترى أن الزورق سيرسو بك على الشاطئ عند رصيف ميناء المدينة، وهو على مبعدة رمية حجر من دار رانكيلور». ثم مال عليَّ فجأة، وهمس في أذني قائلًا: «احذر ذلك الثعلب العجوز. إنه يضمر لك السوء. اصعد إلى ظهر السفينة كي أستطيع أن أسر لك قولًا». ثم تأبط ذراعي واسترسل بصوت مرتفع عندما اتجه ناحية الزورق قائلًا. «ولكن تعال، ماذا أستطيع أن أجلبه لك من «كاروليناس»؟ إن أي صديق للسيد «بلفور» يستطيع أن يأمر. لفافة من التبغ؟ مصنوعات ريشية هندية؟ جلد وحسن ضار؟ مزمار حجري؟ الطير الساخر الذي يموء للعالم كله كقط؟ ديك البحر الذي يشبه الدم في احمرار لونه؟ انتقِ واطلب ما يطيب لك».

كنا في تلك اللحظة قد حاذينا الزورق، فدفعني إليه، ولم أكن لأحلم بالتردد لأني ظننت -يا لي من أبله مسكين- أني عثرت على صديق طيب ومعين، وسرت الغبطة في أوصالي؛ لأني سأرى السفينة. وطالما اتخذنا أماكننا في الزورق دفع به الربان بعيدًا عن رصيف الميناء، وبدأ يتحرك على سطح الماء. وفي غمرة من فرحتي بهذه الحركة الجديدة، ودهشتي من وضعنا المنخفض، ومنظر الشواطئ والسفينة التي كان يزداد حجمها شيئًا فشيئًا كلما قاربناها، لم أستطع أن أدرك تمامًا ما قاله الربان، وإنني كنت غير واعٍ لما أجبته به.

عندما وصلنا إلى جوار السفينة -حيث كنت شديد الذهول من علوها الشاهق- وسمعت دوي المد يلطم جنباتها، وصياح البحارة البهيج وهم يعملون، أعلن «هوسيزون» أنه وأنا سنكون أول مَن يصعد إلى ظهر السفينة، وأمر بإنزال البكرة الرافعة وأدواتها من فوق عود الشراع، ثم رفعوني في الهواء، وأنزلوني مرة أخرى على سطحها حيث كان الربان واقفًا متأهبًا للقائي وسرعان ما تأبط ذراعي. هناك وقفت قليلًا وقد شعرت بشيء من الدوار؛ لأن كل ما حولي كان في حركة دائبة، وربما أكون قد أحسست بشيء من الخوف، ولكني مع هذا كنت سعيدًا كل السعادة لمرأى هذه المناظر الغريبة، وكان الربان أثناء هذا يشير إلى أشدها غرابة، وينبئني عن أسمائها وفوائدها. قلتُ فجأة:

«ولكن أين عمي؟»، فقال «هوسيزون» وقد عبس وجهه فجأة:

- آه، هذا هو بيت القصيد.

هنا شعرت بأني ضائع لا محالة، فانتزعت نفسي منه بكل قواي، وعدوت نحو المتراس، فوثقت كل الثقة بأن الزورق يندفع نحو المدينة، وعمي جالس في المؤخرة، فصحت صيحة عالية قائلًا:

«النجدة! النجدة! قاتل!»، حتى إن جانبي المرسى قد رددا صياحي، فاستدار عمي في مكانه، وأراني وجهًا يفيض قسوةً وهولًا، وكان هذا آخر ما رأيت. وفي الحال جذبتني أيد قوية من جانب السفينة، والآن، وكأن صاعقة قد لطمتني، رأيت وهجًا قويًّا من النار، ثم سقطت على الأرض فاقدًا لوعيي.

* * *

الفصل السابع
أذهب إلى البحر في السفينة
«عهد ديزارت»

ثُبت إلى رشدي في الظلام يعتصرني ألم شديد، مغلول اليد والقدم، وقد أصابني الصمم من جراء ضوضاء لم آلفها، فقد رن في أذني زئير المياه وكأنها متدفقة من سد ضخم، وصوت الشراع وكأنه الرعد، وجلجلة صياح البحارة. كانت الدنيا كلها تدور من حولي صاعدة هابطة، وقد استبد بي المرض وآذاني، وكان عقلي في اضطراب شديد حتى إنه قد استنفذ مني وقتًا طويلًا أن أستجمع شتات فكري من هنا وهناك، وقد أذهلني إحساسي بطعنة ألم جديدة وثقت معها بأني لا بد وأن أكون مستلقيًا في مكان ما بجوف تلك السفينة المنكودة، وأن الريح لا بد وأن تكون قد اشتدت فأمست هوجاء، عندما أدركت بوضوح ذلك المأزق الذي ألقي بي فيه. غمرني سواد يأس، وندم من حماقتي، وشعور بالغضب نحو عمي أنقذني أحاسيسي مرة أخرى. ولما عدت إلى الحياة ثانية، هزني وأصمني نفس الهدير والاضطراب والحركات العنيفة، وفي الحال أضيف إلى سقامي وهمومي ألم امرئ عاش على اليابسة لم يألف حياة البحارة. طالما قاسيت صعابًا إبان شبابي الجامح، ولكن لم يكن من بينها ما حطم عقلي وجسدي، أو بعث بارقات أمل في نفسي، كتلك الساعات الأولى التي قضيتها على ظهر السفينة.

سمعت انطلاق مدفع فظننت أن العاصفة قد عصفت بنا عصفًا شديدًا، وأننا نطلق شارات الخطر. كانت فكرة الخلاص ولو عن طريق الموت في أعماق البحار محببة إلى نفسي، ولكن الأمر لم يكن كما ظننت، بل -كما قيل لي بعد ذلك- إنها عادة متبعة عند الربان، أسطِّرها هنا لأبين أن أشد الناس إغراقًا في السوء، لا بد وأن يطوي بين جوانحه نواحي خيرة.

يبدو أننا كنا نمر على مبعدة أميال من «ديزارت» مهد السفينة، حيث وفدت عليها السيدة العجوز «هوسيزون» أم الربان منذ سنوات خلت لتقيم بها، وسواء أمرت السفينة «العهد» بتلك المدينة من ذهابها أم إيابها، فلابد وأن يُطلق مدفع أو تُرفع الأعلام.

لم يكن للزمن عندي قياس، فقد تشابه الليل والنهار في تلك الرائحة الكريهة المنبعثة من كهف السفينة القابع في جوفها حيث استلقى. ثم إن بؤس حالي جعل الساعات تتضاعف، لذا فقد طال انتظاري وأنا مستلقٍ أتمنى سماع صوت السفينة وهي تتحطم على بعض الصخور، أو أحس برأسها يتمايل وتغوص في أعماق البحر.

لم تكن لدي وسائل التقدير، ولكن النوم سلبني في آخر الأمر إحساسي بالأسى. أيقظني بعد ذلك ضوء مصباح يدوي مُسلَّط على وجهي فرأيت رجلًا في حوالي

الثلاثين من عمره، ضئيل الجسم، ذا عينين خضراوين، وخصلة من شعر أشقر، واقفًا ينظر إليَّ، ثم قال:

- حسنًا، كيف حالك؟

فأجبته ببكاء خافت مكبوت، وتحسس زائري نبضي وصدغي، ثم بدأ يغسل الجرح الذي في رأسي ويضمده، وقال:

«نعم، إنها إصابة موجعة. ماذا يا رجل؟ ابتهج فإن الحياة لم تنته بعد. لقد بدأتها بداية سيئة، ولكنها ستطيب لك بعد ذلك. هل تناولت طعامًا ما؟»، فقلت:

- إني أعاف النظر إليه.

وعند هذا ناولني قليلًا من الخمر والماء في وعاء من الصفيح، ثم تركني مرة أخرى ومضى. وعندما جاء ليراني ثانية، كنت مستلقيًا بين النوم واليقظة، تحملق عيناي في الظلام، وكنت قد برئت من المرض تمامًا، ولكن الدوار أتى في أعقابه، وكان أشد ألمًا من أن يحتمل، وإلى جانب هذا فقد برحت الأوجاع بأطرافي، ثم إن الأغلال التي أوثقوني بها كانت وكأنها من لهيب، وبدت رائحة الكهف الذي أرقد فيه وكأنها جزء مني، وكنت أثناء الفترة الطويلة منذ أن زارني لآخر مرة أعاني عذاب الخوف من جرذان السفينة التي كانت تنطلق مسرعة، وتلطم في بعض الأحايين وجهي، ومن الخيالات المحزنة التي تنتاب المريض بالحمى.

بدا بصيص النور الذي كان ينبعث من المصباح كمصيدة مفتوحة، وكأنه نور الشمس في السماء، ولم أر في ثناياه إلَّا كتل السفينة الخشبية الصلبة السوداء التي كانت سجنًا لي، ولولا هذا لصحت صيحات عالية تنم عن البهجة.

كان الرجل ذو العينين الخضراوين أول مَن هبط السلم، ولاحظت أنه كان يترنح بعض الشيء يتبعه الربان، لم ينبس أحدهما ببنت شفة، ولكن أولهما بدأ يفحصني ويضمد جرحي كما فعل من قبل، بينما كان «هوسيزون» ينظر إلى وجهي نظرة مستهجنة سوداء، ثم قال الأول:

- والآن يا سيدي لعلك ترى بنفسك أنه يعاني حمى شديدة. لقد فقدت شهيته. لا ضوء لديه ولا طعام. إنك ترى بنفسك ماذا يعني ذلك.

قال الربان: «إني لست ساحرًا يا سيد «رياش»».

فقال «رياش»: «ائذن لي يا سيدي أن أقول إنك تحمل على كتفيك رأسًا واعية، ولك لسان تجيد الحديث به فتسأله. لم ألتمس لك المعاذير. أريد أن يؤخذ هذا الطفل من ذلك الحجر ويوضع في أعلى مقدم السفينة».

فقال الربان: «إن ما تريده يا سيدي شيء يتعلق بك وحدك دون سواك، ولكني أستطيع أن أقول لك بما اعتزمته. إنه هنا.. وسيبقى هنا».

فقال الآخر: «إنى أقرك على رأيك، لقد دفع إليك نصيبك، وإني أتوق بخضوع إلى أن تأذن لي بأن أقول إنه لم يدفع لي ولكنه لم يكن من الكثرة بحيث يتلاءم وعملي

كضابط ثان في هذا الدن العتيق. وإنك تعلم حق العلم أنني أبذل قصاري جهدي، ولا أتقاضى شيئًا أكثر من ذلك».

فقال الربان: «إذا استطعت يا سيد «رياش» أن تكف يدك عن وعاء الصفيح، فلن يكون هناك سبيل للشكوى منك، وبدلًا من أسئلة الألغاز، فإني أستجمع شجاعتي لأقول لك إنك تستطيع أن تحتفظ بأنفاسك لتبريد ثريدك»، ثم أضاف بلهجة تزداد حدة: «إنهم في طلبنا على ظهر السفينة»، ثم وضع قدمه على السلم، ولكن السيد «رياش» أمسك به من ذراعه ثم قال:

«أضيف إلى ذلك أنه قد دفع لك لترتكب جريمة قتل».

فالتفت إليه «هوسيزون» والشرر يتطاير من عينيه، ثم صاح:

- ماذا؟ أي قول هذا؟

فقال رياش، وهو ينظر إلى وجهه برباطة جأش:

- يبدو أن هذا هو القول الذي تستطيع أن تفهمه.

فأجاب الربَّان:

- يا سيد «رياش»، لقد طفت البحر معك ثلاث مرات، وكان يجدر بك يا سيدي أن تعرف في كل تلك المدة أنني رجل عنيف، وإن ما تقوله الآن، سحقًا له، سحقًا له، صادر من قلب حاقد وضمير أسود. إذا كنت ترى أن الصبي سيموت...

فقاطعه «رياش» قائلًا: «نعم، إنه سيموت».

فقال «هوسيزون»: «حسنًا يا سيدي. أليس في هذا الكفاية؟ انقله حيث شئت».

وعند هذا ارتقى الربان السلم، وأما أنا الذي ظللت صامتًا طوال هذا الحوار العجيب، فقد أبصرت السيد «رياش» يستدير خلف «هوسيزون» وينحني إلى مستوى ركبتيه على صورة يبدو معها واضحًا، أنها دليل السخرية. استطعت حتى وأنا في حالة مرضي أن أدرك أن مساعد الربان كان تحت تأثير الخمر -كما لوَّح بذلك الربان-، وأنه سواء أكان مخمورًا أم واعيًا، فهو أقرب إلى أن يثبت أنه صديق له وزنه.

انقضت خمس دقائق قطعوا بعدها أغلالي، ثم حملني أحد الرجال على ظهره، وذهب بي إلى أعلى مقدم السفينة حيث وضعني على فراش من بطاطين البحار فوق سرير في قمرة، وأول شيء حدث لي هو أني فقدت حواسي.

لقد كان شيئًا يدعو إلى البهجة حقًّا أن أفتح عيني مرة أخرى على ضوء النهار، لأجد نفسي في صحبة بعض الرجال. كان أعلى مقدم السفينة مكانًا يشبه الحجرة إلى حد كبير، صُفَّت في جميع أرجائه أسرَّة جلس عليها رجال يراقبون أسفل السفينة ويدخنون، أو مستلقون نيامًا. كان اليوم هادئًا والريح معتدلة والكوة مفتوحة، ولم يكن هناك نور النهار الساطع فحسب، بل كلما استدارت السفينة بين حين وآخر، تسلل شعاع شمس مغبر بهر بصري، وبعث البهجة في نفسي. لم أكد أتحرك حتى

جاءني أحد الرجال يحمل شرابًا مصنوعًا من شيء ما يبرئ الجرح أعده السيد «رياش»، وأمرني بأن أسكن لتعود إليَّ عافيتي، وقال لي إنه لم تكن هناك كسور في العظام وإنَّ إصابة في الرأس ليست بذات خطر، واستطرد قائلًا: يا رجل أنا مَن أصابك.

رقدت في ذلك المكان طوال أيام عديدة سجينًا مغلقًا، ولم أسترد عافيتي فحسب، بل سبرت غور رفاقي أيضًا. لقد كانوا قومًا غلاظًا حقًّا شأن رجال البحر، اجتثت من قلوبهم كل المشاعر الحانية، وقدر لهم أن يهيموا معًا على سطح البحار الهائجة برفقة رؤسائهم الذين لا يقلون قسوة عن تلك البحار. كان من بينهم من جابها مع القراصنة، ورأى أشياء يخجل المرء لذكرها، ومن بينهم مَن فروا من سفن الملك ورحلوا وحبال المشانق ملتفة حول رقابهم ولم يخفوا لهذا سرًّا، والجميع كما يقول المثل السائر: «إنَّ مَن يتقوه بلفظ، تناله صفعة»، حتى مع أوفى أصدقائهم. ومع هذا فإني لم أقضِ بينهم أيامًا كثيرة مغلقًا معهم، حتى بدأت أشعر بالخجل من حكمي الأول عليهم عندما انسحبت من بينهم عند رصيف المعبر حيث كانوا كالضواري القذرة. ليس هناك من بين طبقات البشر ما هو شرٍ كله، فلكل منها أخطاؤها وفضائلها؛ ولم يشذ هؤلاء الرفاق عن تلك القاعدة. حقًّا لقد كانوا قوم سوء غلاظًا كما أعتقد، ولكنهم كانوا يتحلون بكثير من السجايا. كانوا رقاق القلوب كلما واتتهم الفرصة، وكانوا بسطاء بل وأكثر بساطة من صبي ريفي مثلي، تنبعث منهم بعض إشعاعات الأمانة، كان من بينهم رجل في حوالي الأربعين من عمره، يجلس إلى جوار سريري الساعات بطولها يحدثني عن زوجته وطفله. كان صيادًا للسمك فقد زورقه، فسيق به إلى البحار العميقة يجوبها. حسنًا، الآن وقد مضى على هذا الحديث أعوام إلَّا أني لم أنسه أبدًا. كانت زوجته -التي كانت تصغره سنًّا كما كان يقول لي ذلك في كثير من الأحايين- تنتظر عبثًا أن ترى زوجها يعود، إنه لن يشعل لها النار في الصباح مرة أخرى، ولن يسهر على الوليد إذا مرضت. حقًّا لقد كان كثير من هؤلاء الرفاق المساكين -كما ستثبت الأحداث القابلة- يقطعون آخر سفرة لهم، فقد تلقفتهم بطون البحار العميقة، والأسماك آكلة لحوم البشر، وإنه لمن الجحود أن ننبش قبور الموتى.

كان من بين طيباتهم التي أتوها أن ردوا لي نقودي التي كانوا قد اقتسموها فيما بينهم، ومع أنها تناقصت إلى الثلثين، إلَّا أني كنت مغتبطًا بالحصول عليها؛ لأني كنت أعقد عليها آمالًا جسامًا في تلك الأرض التي سأذهب إليها. كانت السفينة قاصدة إلى «كارولينا‌س»، ويجب ألا تعتقد أنني كنت منفيًّا وأنا ذاهب إلى ذلك المكان.

كانت تجارة الرقيق مثار ضيق شديد، وقد وضعت الثورات التي اشتعلت في المستعمرات وقيام دولة الولايات المتحدة نهاية لها، إلَّا أنه في تلك الأيام -أيام شبابي- كان الرجال البيض لا يزالون يُباعون في أسواق الرقيق بالمستعمرات، وهذا هو المثوى الذي حكم عليَّ عمي الشرير بأن أنتهي إليه.

كان «رانسوم» خادم حجرة السفينة (وأول مَن سمعت منه بتلك الآثام) يأتيني بين حين وحين من حجرة المراقبة حيث كان ينام ويقوم على الخدمة فيها، والآن يأتي

إليَّ وهو يمتص أحد أطرافه المكدومة في حزن صامت، ثائرًا ضد قسوة السيد «شوان». لقد جعل قلبي يُدمى، ولكن الرجال كانوا يكنون أشد الاحترام لرئيسهم الذي كان كما قالوا عنه «البحَّار الوحيد بين الجماعة وأبعدهم عن الشر إذا كان واعيًا غير مخمور».

حقًّا لقد وجدت خاصية غريبة في كل من وكيلي الربان، فالسيد «رياش» عبوس قاس جاف عندما يكون واعيًا، والسيد «شوان» لا يؤذي ذبابة إلَّا إذا كان مخمورًا، وسألت عن الربان فقيل لي إن الخمر لا تبدل من خلق ذلك الرجل الحديدي شيئًا.

لقد بذلت قصاري جهدي في ذلك الوقت القصير الذي سمح لي به لكي أجعل من «رانسوم» ذلك الرجل المسكين رجلًا أو بالأحرى صبيًّا، ولكن عقله كان من الصعب أن يكون من عقل البشر، إنه لم يستطع أن يتذكر شيئًا فيما قبل مجيئه إلى البحر، إلَّا أن أباه كان يعمل في صناعة ساعات الحائط، وأنه كان يمتلك عصفورًا في ردهة البيت يستطيع أن يغني أنشودة «الإقليم الشمالي»، أما ما عدا ذلك فقد ذاب بين طيات السنين التي كانت تفيض قسوة وضنى: لقد كان يتخيل اليابسة خيالًا غريبًا تلقنه عن قصص البحارة التي تقول بأن الأرض مكان يدفع فيه بالصبية إلى لون من ألوان الرق يُسمَّى «حرفة»، ويُزج بهم في غياهب السجون القذرة، وكان يعتقد أن كل رجل ثان في مدينة ليس إلَّا مخادعًا، وأن كل بيت ثالث ليس إلَّا مكانًا يدسون فيه السم لرجال البحر ويقتلونهم، فقصصت عليه كيف أني كنت أعامل برفق على اليابسة التي كان يخشاها أشد الخشية، وكيف أني أتناول الطعام الشهي، وأتلقى العلم بعناية على أيدي أصدقائي وأبويَّ على السواء، وأنه لو كان قد أوذي أخيرًا، فما عليه إلَّا أن يبكي أمرَّ البكاء، ويقسم على أن يهرب، ولكنه إذا كان في خلقه الطبيعي الذي يتسم بالطيش (أو ما يزيد قليلًا)، أو لو كان قد شرب قدحًا من الخمر في حجرة المراقبة، فإنه سيسخر من هذا الرأي.

كان السيد «رياش» -سامحه الله- يعطي الشراب للصبي ولم يكن يهدف إلَّا إلى الشفقة به، ولكن ذلك كان تدميرًا لصحته. إن أشد الأشياء حسرة في الحياة أن ترى هذا الصبي في شقاء، بلا صديق، يتمايل ويرقص ويتحدث بما لا يفقه. كان بعض الرجال -لا جميعهم- يضحكون، وكان آخرون يترعرعون سودًا كالرعد (يفكرون -ربما- في طفولتهم أو في أطفالهم) ويأمرونه بأن يتوقف عن إتيان مثل هذا الهراء، وأن يفكر فيما كان يفعله، أما فيما يتعلق بي، فقد كنت أحس بالخجل عند النظر إليه؛ ولا يزال الطفل المسكين يطوف بي في أحلامي.

ينبغي أن تعرف أن «العهد» كانت طوال ذلك الوقت تلتقي برياح عكسية لا تنقطع، وتتعثر هنا وهناك في مواجهة هذه الرياح، ولذا فقد كان بابها الذي في سطحها يكاد يكون مغلقًا دائمًا، ولم يكن أعلى مقدم السفينة مضاء إلَّا بمصباح موضوع على كتلة خشبية يتأرجح. كان هناك عمل مستمر للأيدي جميعها، فالشراع تطوى وتنشر كل ساعة، وزمجرة شجار تجري طوال النهار من سرير إلى آخر، وبما أنه لم يؤذن لي بأن يطأ قدمي ظهر السفينة، فإنكم تستطيعون أن تصوروا لأنفسكم كيف أن حياتي أصبحت مضنية، وكيف أني كنت غير قادر على احتمالها، وكيف كنت مشوقًا إلى استبدالها.

حصلت على هذا التغيير -كما ستسمع- ولكن ينبغي عليَّ أولًا أن أذكر حديثا دار بيني وبين السيد «رياش» أودع في نفسي بعض الشجاعة لاحتمال آلامي.

استقبلته وكان في حالة من الشراب محببة إلى النفس (لأنه في الواقع ما كان يقترب مني وهو واع) فاتفقنا على كتمان سري وأخبرته بقصتي كلها مسهبة.

قال لي إنها تشبه قصة ملحة، وإنه سيعمل قدر طاقته لعوني، وأن أحضر قرطاسًا وقلمًا ومدادًا وأكتب سطرًا للسيد «كامبل»، وآخر للسيد «رانكيلور»، إذا كنت صادقًا فيما قلت فإني أثق كل الثقة بأنه سيكون قادرًا على خلاصي والحصول على حقوقي، ثم يستطرد قائلًا:

- وفي نفس الوقت، تشجع، وهأنذا أقول لك إنك لست الشخص الوحيد، فكم من رجل يفلح أرض التبغ فيما وراء البحار، يود لو كان عند بابه في وطنه ممتطيًا صهوة جواده. كثيرون! كثيرون! إن الحياة دائمًا تقلب ظهر المجن لخيار الناس. انظر إلي، أنا ابن أحد النبلاء وأكثر من نصف طبيب، وهأنذا هنا أعمل بحارًا تحت إمرة «هوسيزون».

ظننت أنه من الكياسة أن أسأله عن قصته، فأطلق صفيرًا عاليًا، ثم قال:

- لم تكن لي قصته أبدًا. إني أحب المرح وهذا كل شيء.

ثم قفز من أعلى مقدم السفينة.

* * *

الفصل الثامنُ
حجرة المراقبَة

في إحدى الليالي، وكانت الساعة حوالي الحادية عشرة، نزل أحد رجال السيد «رياش» المنوطين بالمراقبة على سطح السفينة طلبًا لسترته، وبدأ في الحال يهمهم عن شيء يجري في أعلى مقدم السفينة قائلًا: «وأخيرًا انتهى منه شوان».

لم تكن بنا حاجة إلى ذكر الاسم فنحن جميعًا نعرف مَن يعني، ولكن لم يكن لدينا من الوقت ما يفي لاختمار الفكرة في أذهاننا، ولا أقل منه لنتحدث فيما حدث حين فُتح باب ظهر السفينة فجأة، ونزل الربان «هوسيزون» السلم، ونظر بحدة حول الأسرَّة على ضوء المصباح المتراقص، وقصد إليَّ مباشرة، ثم ناداني -يا لعجبي- بنغمة فيها عذوبة قليلًا:

«يا رجلي، نريد منك أن تقوم على خدمة حجرة المراقبة، فأنت و«رانسوم» ستتناوبان العمل فيها». وفي أثناء حديثه ظهر بحاران من باب سطح السفينة يحملان «رانسوم» بين سواعدهما، والسفينة آنئذ تجري مستقيمة في عرض البحر، والمصباح يهتز، والضوء مسلط رأسًا على وجه الغلام. لقد كان أبيض كالشمع، وعليه مسحة تشبه الابتسامة المروعة. جرى الدم في عروقي باردًا، وجذبت أنفاسي كمن صُقع، فصاح «هوسيزون» قائلًا:

- أسرع إلى مؤخر السفينة، أسرع إلى مؤخر السفينة!

وعند هذا مررت مسرعًا بالبحارة وبالصبي (الذي لم يتكلم ولم يتحرك) وصعد السلم عدوًا إلى سطح السفينة.

كانت السفينة تجري مسرعة على خط مستقيم، تترنح فوق قمة موجة طويلة متلاطمة، وكانت تسير على جانبها الأيمن. أما الناحية اليسرى من منحنى أسفل الشراع الأمامي، فقد استطعت أن أرى من خلالها غروب الشمس وهو لا يزال ساطعًا.

لقد جعلني هذا -في تلك الساعة من الليل- أُدهش دهشة شديدة، ولكن كنت قد بلغت من الجهل حدًّا لم أستطع معه أن أصل إلى النتيجة الصحيحة بأننا كنا متجهين شمالًا حول إسكتلندا، وكنا في ذلك الحين في البحر المرتفع الواقع بين «أوركني» وجزر «شتلاند» متجنبين تيارات مضيق «بنتلاند» الخطرة. ولما كنت مغلقًا في الظلام لمدة طويلة، ولم أكن أعرف شيئًا عن الرياح العكسية، فقد ظننت أننا نعبر المحيط الأطلسي، وأننا في منتصف الطريق أو يزيد. وفي الحقيقة (بالإضافة إلى أني عجبت قليلًا من تلكؤ ضوء غروب الشمس)، لم ألق بالًا لهذا، بل كنت أعبر سطح السفينة اندفاعًا، وأجري بين البحار، وأمسك بالحبال، ولم أنجُ من السقوط في البحر إلَّا عندما أمسكت بي يد واحد من أولئك الذين كانوا فوق ظهر السفينة، والذين كانوا دائمًا رقيقين معي.

كانت حجرة المراقبة التي كنت قاصدًا إليها، والتي كان عليَّ منذ الآن أن أنام فيها وأقوم على خدمتها، ترتفع ست أقدام فوق ظهر السفينة، وكانت تشغل حيزًا لا بأس به إذا ما قيس بحجم السفينة، في داخلها مائدة مثبتة، ومقعد، وسريران أحدهما للربان والآخر لمساعديه بالتناوب.

كانت حجرة المراقبة كلها من القمة إلى القاعدة مجهزة بالأقفال؛ لكي يحتفظ الضباط فيها بممتلكاتهم، وجزء من مؤن السفينة. وكان هناك في القاع مستودع آخر تدخل إليه من عنبر السفينة الذي يتوسط سطحها، وكان حقًّا يحوي أطيب الطعام والشراب وكل البارود، وكانت جميع الأسلحة -ما عدا قطعتي المدفع النحاسي- موضوعة على رف في الحائط الأخير لحجرة المراقبة، أما الغالبية العظمى من سيوف البحارة القصيرة فقد كانت في مكان آخر.

كان لحجرة المراقبة نافذتان صغيرتان في جانبيها، ولكل منهما ضلفتان خشبيتان، وبها كوة في سقفها تضيئها نهارًا، وهناك مصباح مُوقد دائمًا في الظلام. لقد كان مُشعلًا عندما دخلت، وكان ضوؤُه خافتًا، ولكنه كان كافيًا ليظهر السيد «شوان» جالسًا على المائدة، وأمامه زجاجة خمر وقدح من الصفيح. لقد كان رجلًا فارع القامة، قوي البنيان، شديد السمرة، يحملق أمامه في المائدة كالأبله.

لم ينتبه إلى دخولي، ولم يتحرك عندما تبعني الربان الذي اتكأ على الفراش بجواري ينظر إلى المساعد نظرة سوداء. وقفتُ والرعب يملؤني من «هوسيزون»، وكان لديَّ من الأسباب ما يدعو إلى ذلك، ولكنَّ شيئًا أوحى إليَّ في تلك اللحظة بألا أخشاه، وهمست في أذنه قائلًا:

- «كيف حاله؟» فهز رأسه كمن لا يعرف شيئًا، ولم يشأ أن يفكر، ووجهه عابس أشد العبوس.

وفي الحال دخل السيد «رياش»، ورمق الربان بنظرة واضحة وضوح الكلام تعني بأن الصبي قد مات، ثم اتخذ مكانه كسائرنا، وظل ثلاثتنا سكوتًا نحملق في السيد «شوان» الذي جلس صامتًا ينظر إلى المائدة نظرة جامدة.

وفجأة مد يده ليأخذ الزجاجة، وعند هذا تقدم السيد «رياش» وانتزعها منه بطريقة تنم عن الدهشة لا العنف، يرسل السباب عاليًا، ويعلن أن ما حدث فيه أكثر من الكفاية، وأنه لا بد وأن تجري محاكمة «شوان» على ظهر السفينة.

وفي أثناء حديثه (وكانت الأبواب المنزلقة لا تزال مفتوحة) ألقى بالزجاجة في اليم، فقفز السيد «شوان» على قدميه على الفور وهو لا يزلا مبهوتًا، ولكنه عمد إلى القتل فقتل، وكان في استطاعته أن يقتل مرة أخرى لو لم يقف الربان بينه وبين فريسته.

زأر الربان قائلًا: «اجلس أيها الخنزير السكير. أتعرف ماذا فعلت؟ لقد قتلت الغلام!»

بدا السيد «شوان» كمن أدرك، لأنه جلس مرة أخرى ووضع يده على جبينه، ثم قال: «نعم؛ لأنه أحضر له إناءً قذرًا».

عندما تفوه بهذه الكلمة، نظر الربان وأنا والسيد «رياش» كلنا إلى بعضنا البعض لحظة نظرة فيها خوف، ثم اتجه «هوسيزون» نحو ضابطه الأول وأمسك به من كتفه، وقاده إلى فراشه، وأمره بأن يستلقي وينام كما تأمر طفلًا سيئ الخلق، فزمجر القاتل قليلًا، ولكنه خلع حذاء البحر وأطاع.

صاح السيد «رياش» بصوت مروع قائلًا: «كان ينبغي عليك أن تتدخل قبل ذلك بوقت كاف. لقد فات الأوان الآن».

فقال الربان: «يا سيد «رياش»، إن ما حدث الليلة لا ينبغي أن يُذاع في «ديزارت». إن الغلام قد سقط من على ظهر السفينة، هذه هي القصة، وسأدفع خمسة جنيهات من جيبي لتؤكدوا صحتها». ثم استدار إلى المائدة، وأضاف قائلًا: «ما الذي حدا بك إلى أن تلقي بهذه الزجاجة الشهية بعيدًا؟ لم يكن هناك ما يدعو إلى ذلك يا سيدي، هات لي زجاجة أخرى يا «ديفيد»، هناك في قاع الصندوق المغلق». ثم ألقى إليَّ بالمفتاح، وأضاف قائلًا «لرياش»: «إنك في حاجة إلى كأس، وإن ما حدث كان شيئًا كريهًا».

جلس الاثنان يحتسيان الخمر معًا، وبينما هما في ذلك، إذ نهض القاتل الذي كان مستلقيًا على فراشه يشكو باكيًا، واتكأ على مرفقيه ينظر إليهما وإليَّ.

كانت تلك الليلة هي الأولى في واجباتي الجديدة، وفي خلال اليوم التالي قمت بخدمتهم على وجه مُرضٍ. كان عليَّ أن أقوم على خدمة وجبات الطعام التي كان الربان يتناولها في ساعات منتظمة جالسًا مع الضابط الخالي من النوبة، كنت أجري النهار بطوله حاملًا كؤوس الخمر لواحد أو لآخر من رؤسائي الثلاثة، أما في المساء فكنت أنام على بطانية ملقاة على ألواح سطح السفينة عند الطرف البعيد من حجرة المراقبة، وفي مسرى الهواء بين البابين. كان مضجعنا خشنًا باردًا، ولم أنم دون أن أضيق بمَن يقطع عليَّ نومي؛ إذ إن شخصًا كان يأتي بصفة مستمرة من على ظهر السفينة ليأخذ خمرًا، وإذا ما بدلوا الحراسة بأخرى، جلس اثنان أو ثلاثة منهم يخمرون طاسًا من الشراب. عجبت لهؤلاء القوم كيف استطاعوا أن يحتفظوا بصحتهم، كما عجبت لنفسي أيضًا كيف استطعت ذلك. لم تكن هناك أغطية لأتدثر بها، وكانت وجبات الطعام إما من ثريد مصنوع من دقيق الشوفان، وإما من السمك المملح، فيما عدا مرتين كل أسبوع حيث كانت الوجبات من الفطائر.

ورغم أني بلغت من الارتباك حدًّا كبيرًا (لأني لم أعتد ركوب البحر)، وكنت في بعض الأحايين أسقط بما أحمله لهم، إلَّا أن كلًّا من السيد «رياش» والربان كان يصبر صبرًا غريبًا. لم أستطع إلَّا أن أتصور أنهما كانا يعانيان وخز الضمير، وأنهما لم يكونا طيبين معي إلَّا نادرًا؛ لأنهما كانا سيئي الطوية نحو «رانسوم».

أما السيد «شوان» فقد يكون الخمر أو الجريمة التي اقترفها أو قد يكون الاثنان معًا قد أحدثا في عقله اضطرابًا. لا أستطيع أن أقول إني رأيته في سديد عقله. إنه لم يعتد على وجودي هناك (وكان خائفًا أحيانًا كما ظننت)، وفي أكثر من مرة، كان يسترجع يده مني عندما كنت أقوم على خدمته. لقد كنت في أول الأمر واثقًا من أنه لم يدرك تمامًا ما أقدم عليه، وقد وجدت الدليل على ذلك في اليوم الثاني من خدمتي

في بيت المراقبة. كنا وحيدين فحملق في فترة طويلة، ثم انتصب فجأة ووجهه مصفر كوجوه الموتى، ويا لرعبي، لقد اقترب مني، ولكن لم يكن عندي من الأسباب ما يجعلني أخافه، ثم سألني:

- إنك لم تكن هنا من قبل؟

فقلت: «لا يا سيدي»،

فسأل مرة أخرى: «كان هناك صبي آخر؟»، وعندما أجبته، قال: «نعم، أظن ذلك»، ثم ذهب وجلس دون أن يقول مزيدًا، إلَّا أن يطلب خمرًا.

قد ترى ذلك غريبًا، ولكن رغم ما كان ينتابني من رعب، إلَّا أني كنت حزينًا من أجله. لقد كان رجلًا متزوجًا، وزوجته في «ليث»، ولكن هل كان له أبناء أم لا، لقد نسيت ذلك الآن، أتمنى ألا يكون له.

لم تكن الحياة جافة طوال الوقت الذي أمضيته على ظهر السفينة، والذي (كما ستسمع) لم يكن طويلًا، وكنت أتناول طعامًا شهيًّا كالذي يتناوله أفضلهم، وكان يُؤذن لي بأن آخذ قسطي من المشهيات المملحة (المخلل) التي كانت أطيب ما لديهم، ولو كانت بي رغبة إلى الشراب؛ لأصبحت مخمورًا من الصباح حتى المساء كالسيد «شوان». كان معي رفاق أيضًا طيبون في معدنهم، فالسيد «رياش» الذي كان في الكلية يتحدث إليَّ كصديق عندما لا يكون عابسًا، ويحدثني عن أشياء عجيبة، وينبئني عن بعض الأخبار، وحتى الربان، رغم ما كان يقيمه بيني وبينه من فوارق، فقد كان أحيانًا غير صارم في الحديث معي، ويخبرني عن البلاد الجميلة التي زارها.

حقًّا، كان خيال «رانسوم» المسكين يطل علينا نحن الأربعة، وكان عليَّ وعلى «شوان» بصفة خاصة أشد ثقلًا. جدت لي متاعب أخرى، لقد كنت هنا أقوم بعمل قذر لرجال ثلاثة أزدريهم، وكان ينبغي أن يعلق واحد منهم على الأقل في حبال المشنقة. كان هذا في الحاضر، أما في المستقبل، فإني لم أكن لأتخيل نفسي إلَّا عبدًا يعمل جنبًا إلى جنب مع العبيد في حقول التبغ، ولن يوجعني السيد «رياش»، ربما من باب الحذر، بذكر كلمة أخرى عن قصتي. أما الربان الذي حاولت أن أقترب منه، فقد ركلني ككلب ولم يسمع مني كلمة، وكلما تعاقبت الأيام، غاص قلبي شيئًا فشيئًا، حتى إني أصبحت مسرورًا من العمل الذي شغلني عن التفكير في أمري.

* * *

الفصل التاسِع
الرجل ذو الحزام الذهبي

كان الحظ العاثر الذي تعقب «العهد» أكثر من سبعة أيام في تلك السفرة قد تزايد على صورة واضحة. إنها لم تقطع في بعض الأيام إلَّا مرحلة قصيرة، وكانت أيام أخرى ترتد إلى الوراء فعلًا، وأخيرًا كنا نتخبط ناحية الجنوب البعيد، وظللنا اليوم التاسع بطوله نساير الريح ذهابًا وجيئة على مرأى من «رأس روث» وساحله الذي اكتنف الصخر جانبيه. انعقد بعد هذا مجلس من الضباط، واتخذوا قرارًا لم أتبينه تمامًا، ولكني رأيت نتيجته فقط، وهي أننا جعلنا من الريح العاصفة العكسية ريحًا مواتية مسرعين نحو الجنوب.

وبعد ظهيرة اليوم العاشر قامت أمواج هادرة، وضباب كثيف مبتل أبيض أخفى أحد طرفي السفينة عن الآخر، وعندما ذهبت إلى سطح السفينة رأيت الرجال والضباط طوال بعد الظهيرة ينصتون بلهفة وهم فوق المتاريس، وقالوا: «أمواج متكسرة على الصخور»، ومع أني لم أفهم من معنى هذا الاصطلاح إلَّا قليلًا، غير أني أحسست بأن في الجو ما ينذر بالخطر، فاستولى عليَّ الاضطراب.

ربما كانت الساعة العاشرة مساء وكنت في خدمة السيد «رياش» والربان وهما يتناولان عشاءهما، حين ارتطمت السفينة بشيء ما فأحدثت دويًّا عاليًا، وسمعنا أصواتًا تصرخ، فقفز سيداي على أقدامهما وقال السيد «رياش»: «لقد اصطدمت السفينة»، فقال الربان:

«كلا يا سيدي، كل ما هنالك أننا صدمنا زورقًا في الماء»، ثم أسرعا إلى الخارج.

كان الربان مصيبًا فيما قال. لقد صدمنا زورقًا في الضباب فانشق من وسطه، وغاص في الأعماق بكل ملاحيه ما عدا رجلًا واحدًا. كان هذا الرجل (كما سمعت فيما بعد) مسافرًا وجالسًا في المؤخرة، بينما كان الآخرون على المقاعد يجدفون. طار مؤخر الزورق في الهواء في اللحظة التي ارتطم فيها بالسفينة، وكان الرجل طليق اليدين (ولكن معطفه المصنوع من النسيج الخشن، والذي تدلى إلى ما تحت ركبتيه قد أربكه) فأمسك بحافة السفينة. لقد دل هذا على أنه سعيد الحظ موفور النشاط ذو قوة خارقة، بحيث استطاع أن ينجو بنفسه من ذلك المأزق، ومع هذا، فعندما جاء به الربان إلى حجرة المراقبة، ألفيته هادئًا مثلي.

كان الرجل ضئيل الجسد، ولكنه وثيق البنيان، خفيف الحركة كالعنز ينطق وجهه بوضوح لا غموض فيه، ولكنه كان شديد السمرة قد لفحته الشمس، وتناثر على بشرته نمش قليل، وحُفر من آثار إصابته بالجدري، كانت عيناه تشعان نورًا عجيبًا، فيهما نوع من الجنون المتراقص الباعث على البهجة والقلق معًا. وعندما خلع معطفه، وضع على المائدة عذارتين جميلتين مكسوتين بالفضة، ورأيته يتمنطق بسيف كبير. بالإضافة إلى هذا فقد كان الرجل رقيق الخلق؛ وعاهد الربان بلطف.

ومهما يكن من شيء فقد كان رأيي فيه من أول نظرة أن هنا رجلًا أستطيع أن أضعه موضع الصديق لا العدو.

كان الربان من جهته يستشف ملاحظاته، ولكن من ناحية الملبس لا من الشخصية، وحقًّا عندما خلع الرجل معطفه، بدا شخصًا أعظم من أن يكون في حجرة المراقبة لسفينة تجارية؛ لأنه كان يضع على رأسه قبعة ذات رياش، ويرتدي صدرية حمراء، وسروالًا ذا نسيج من وبر طويل أسود، وسترة زرقاء ذات أزرار فضية ومزركشة بفضة فاخرة، وملابس ثمينة، رغم أن التلف قد أصابها من أثر الضباب والنوم بها.

قال الربان: «إني آسف على فقدان الزورق».

فقال الرجل الغريب: «لقد هوى رجال كثيرون إلى القاع، وكنت أؤثر أن أراهم مرة أخرى على اليابسة على أن أرى عشرة زوارق».

فقال «هوسيزون»: «هل هم أصدقاؤك؟».

فكان الجواب: «ليس عندكم في بلادكم أصدقاء من هذا الطراز. لقد كانوا على استعداد لأن يموتوا من أجلي كالكلاب».

فقال الربان وهو لا يزال يرقبه: «حسنًا يا سيدي، يوجد في العالم رجال أكثر من الزوارق لتضعهم فيها».

فصاح الآخر: «وهذا صحيح أيضًا. إنك تبدو سيدًا ذا فطنة بالغة».

فقال الربان: «لقد كنت في فرنسا يا سيدي»، بهذا كان واضحًا أنه يعني بالألفاظ أكثر مما تحمله معانيها.

فقال الآخر: «حسنًا يا سيدي، ولذا فلديك رجال كثيرون قد ذهبوا إلى فرنسا معك».

فقال الربان: «لا شك يا سيدي، وسترات جميلة.».

فقال الرجل الغريب: «أوهو! أو هكذا ستمضي بنا الأمور؟»، ثم وضع يديه بسرعة على غدارتيه فقال الربان:

- «لا تكن عجولًا، ولا تقرب الشر قبل أن ترى أن الحاجة ماسة إليه. إنك ترتدي سترة جندي فرنسي، وتحمل في رأسك لسانًا إسكتلنديًّا، حقيقة هناك كثير من «الأمناء» في هذه الأيام يفعلون مثل ما تفعل، وربما فعلوا ما هو أفضل منه».

فقال السيد ذو السترة الجميلة: «كذا؟ هل أنت من جماعة «الأمناء؟»، (يقصد هل هو من اليعقوبيين؛ لأن كل جانب من مثل هذه الأنواع من الخلافات المدنية يتخذ لنفسه لقب «الأمانة»).

فقال الربان: «لماذا يا سيدي؟ إني بروتستنتي أزرق أصيل وإني أحمد الله على ذلك». (وكان هذا أول لفظ يتعلق بأي ديانة سمعته يفوه به، ولكني عرفت فيما بعد أنه كان دائم التردد على الكنيسة وهو على الشاطئ)، ثم أتبع قائلًا: «ولكن من أجل

كل هذا أستطيع أن أكون آسفًا عندما أرى رجلًا آخر وظهره إلى الحائط». فسأله اليعقوبي:

- «أتستطيع ذلك حقًّا؟ حسنًا يا سيدي. لكي أكون واضحًا معك كل الوضوح، فإني واحد من أولئك السادة الذين عانوا المتاعب في حوالي سنتي خمس وأربعين وست وأربعين (ولكي أستمر في وضوحي معك) فإني لو وقعت في قبضة أحد السادة ذوي السترات الحمراء، فمن المحتمل أن تمضي بي الأمور عسيرة شاقة. والآن يا سيدي كنت في طريقي إلى فرنسا، وكانت هناك سفينة فرنسية تمخر عباب البحر لتلتقطني، ولكنها مرت بالقرب منا في الضباب -كما كنت أتمنى من صميم القلب أن تمروا كذلك دون أن ترتطموا بزوارقنا- وخير ما أقوله هو أنك لو استطعت أن ترحل بي إلى شاطئ ذلك المكان الذي كنت قاصدًا إليه، فلك مني الوعد بأني سأكافئك بسخاء نظير جهدك».

فقال الربان:

- إلى فرنسا؟ كلا يا سيدي، هذا ما لا قدرة لي عليه، ولكننا نستطيع أن نفحص الأمر إذا كنت سأعود بك إلى المكان الذي أتيت منه.

ثم -لسوء الحظ- لاحظ وجودي في ركن كنت قابعًا فيه، فأمرني بأن أذهب إلى مطبخ السفينة لكي أحضر العشاء للسيد. لم أضيع وقتًا، أعدك، وعندما رجعت ودخلت حجرة المراقبة، وجدت أن السيد قد انتزع من حول خصره حزامًا مليئًا بالنقود، وأفرغ على المائدة جنيهًا أو اثنين. وكان الربان ينظر إلى الجنيهات ويتطلع إلى الحزام ثم إلى وجه السيد، فاعتقدت أن ثورة في دخيلة نفسه هزته، وصاح قائلًا:

«نصف هذا المال، فأصبح في خدمتك».

أعاد الآخر جنيهاته إلى الحزام، ثم وضعه ثانية تحت صدريته: وقال:

«لقد أخبرتك يا سيدي بأنني لا أملك من هذا المال دانقًا واحدًا. إنه ملك لزعيمي». وهنا مس قبعته بيده، ثم استطرد قائلًا: «ولن أكون إلَّا رسولًا أبله إذا ضننت بجزء منه لأنقذ الباقي، وسأبدو ككلب صيد حقًّا لو اشتريت جثتي بهذا الثمن الغالي. سأعطيك ثلاثين جنيهًا لو رسوت بي على شاطئ البحر، وستين جنيهًا لو أنزلتني في «بحيرة لينه» خذ المبلغ إن شئت، وإلا فإنك تستطيع أن ترتكب أسوأ ما تستطيع أن ترتكبه من حماقات»، فقال «هوسيزون»:

- نعم. ولو سلمتك للجنود؟

فقال الآخر:

- إنك بذلك تعقد صفقة رجل أبله. دعني أقل لك يا سيدي إن أملاك زعيمي مصادرة شأن كل رجل من «الأمناء» في إسكتلندا، فمقاطعته في يدي الرجل الذي يسمونه «الملك جورج»، ثم إن جنوده يجمعون الإيجارات أو يحاولون ذلك، ولكن من أجل شرف إسكتلندا فإن المستأجرين المساكين لا ينسون زعيمهم الملقى في المنفى، وإن هذا المال ليس إلَّا جزءًا من الإيجار نفسه الذي يرنو إليه «الملك جورج». الآن يا

سيدي إنك تبدو لي رجلًا يدرك الأمور، إذا أخذت هذه النقود وسلمتها إلى الحكومة فكم سيكون نصيبك منها؟

فقال «هوسيزون»: «مما لا شك فيه أنهم لن يعطوني إلَّا مبلغًا زهيدًا». ثم أضاف بعد ذلك بلهجة جافة: «ذلك لو عرفوا. ولكني أظن أنني أستطيع أن أمسك عن الحديث بشأنها لو حاولت ذلك».

فصاح السيد قائلًا:

- آه، ولكني سأخدعك هنا. وإذا زيفت لي الأمور فسأمكر بك، وإذا مستني أي يد فسيعلمون أي نقود هي.

فقال الربان:

- حسنًا. فليكن ما ينبغي أن يكون. ستون جنيهًا وسيتم كل شيء وفق هواك. هذه يدي أمدها إليك.

فقال الآخر: «وهذه يدي».

وعندئذ خرج الربان (مسرعًا على ما أعتقد)، وتركني وحدي مع الرجل الغريب في حجرة المراقبة.

في تلك الحقبة (التي أعقبت السنة الخامسة والأربعين مباشرة) كان هناك كثير من السادة المنفيين عائدين إلى الوطن مخاطرين بحياتهم لكي يروا أصدقاءهم أو ليجمعوا بعض المال. وقد شاع بين الناس أن مستأجري أملاك زعماء سكان الجبال الإسكتلندية الذين صُودرت ممتلكاتهم، كانوا يقترون على أنفسهم ليبعثوا إليهم بالمال، وكان رجال قبائلهم يقاتلون الجنود من أجل هذا، ويجابهون أسطولنا العظيم ليحملوها إليهم عبر البحار.

سمعت الناس يتحدثون بهذا كله، والآن عندي رجلٌ تحت ناظري كانت حياته مصادرة بسبب هذه الاتهامات؛ ولسبب آخر، ألا وهو أنه ليس ثائرًا ومهربًا للإيجارات فحسب؛ بل لأنه كان قد التحق أيضًا بخدمة لويس ملك فرنسا؛ وإذا لم يكن هذا كافيًا، فإنه يلف حول خصره حزامًا مليئًا بجنيهات ذهبية؛ ومهما كانت آرائي؛ فإنني لم أستطع أن أنظر إلى مثل هذا الرجل دون مزيد من الاهتمام؛ فقلت له وأنا أضع اللحم أمامه:

- وهكذا فأنت يعقوبي؟

فقال وهو يبدأ بتناول الطعام: «وأنت؛ لا بد وأن تكون بوجهك الطويل من الموالين للملك جورج»، فقلت له:

«إني بين بين»، قلت هذا لكيلا أبعث الضيق في نفسه؛ ولكني كنت في حقيقة الأمر شديد الولاء للملك «جورج» قدر ما لقني السيد «كامبل».

فقال: «وهذا لا شيء، ولكني أقول يا سيد، بين بين، إن زجاجتكم هذه خاوية، وإنه لشاق على النفس أن أدفع ستين جنيهًا ثم تضنون عليَّ بقطرة من الخمر بعد ذلك».

فقلت: «سأذهب وأسأل عن المفتاح».

ثم صعدت إلى سطح السفينة.

كان الضباب متقاربًا ببعضه البعض أشد الاقتراب، ولكن الأمواج كانت في غالبها منخفضة. لقد سيروا السفينة وهم لا يعلمون على وجه التحقيق أين كانوا، ولم تعنهم الريح (وكانت شحيحة) على المضي في مسلكهم الصحيح، وكان الرجال يصيخون الآذان ليسمعوا أصوات الأمواج وهي ترتطم بالصخور، ولكن الربان ومعه ضابطان كانوا في الوسط يتهامسون. لاح لي (لست أدري لماذا) أنهم كانوا يدبرون شرًّا، ثم إن أول كلمة سمعتها، عندما اقتربت منهم مسرعًا، كانت أكثر من يقين أيَّدَ ظني، وقد تحقق ذلك اليقين عندما سمعت السيد «رياش» يصيح كَمَن جالت بخاطره فكرة مفاجئة، ويقول: «ألا نستطيع أن نستدرجه بالخديعة للخروج من حجرة المراقبة؟».

فقال «هوسيزون»:

- إنه لمن الأفضل أن يبقى حيث هو؛ لكيلا يجد فسحة من المكان ليستعمل سيفه.

فقال «رياش»: «حسنًا، هذا صحيح، ولكني أرى أنه من العسير أن ننال منه».

قال «هوسيزون»: «لقد واتتني فكرة: نستطيع أن نستدرج الرجل إلى الحديث، ويقف اثنان إلى كلا جانبيه ثم نوثق ذراعيه، وإذا أخفقنا في ذلك، فإننا نوصد البابين ليصبح في قبضة أيدينا قبل أن تتاح له الفرصة لأن يستل سيفه».

عندما سمعت هذا تولاني ذعر، واستبد بي الغضب من أولئك الخونة الشرهين شاربي الدماء الذين ركبت البحر معهم. كان الهرب أول شيء مر بخاطري، ولكن الخاطر الذي تلاه كان أكثر جرأة.

فقلت: «أيها الربان، إن السيد يطلب خمرًا والزجاجة خالية. هل لك أن تعطيني المفتاح؟».

فجفل الجميع، واستداروا، ثم صاح «رياش»:

«لماذا، ها هي ذي فرصتنا قد واتت للحصول على أسلحتنا». ثم قال لي:

«أصغ إليَّ يا «ديفيد»، أتعرف أين توجد الغدارات؟».

فقال «هوسيزون»:

«نعم، نعم. ديفيد يعرف، ديفيد ولد طيب. لعلك ترى يا «ديفيد» يا رجلي أن ذلك الرجل الهمجي ساكن الجبال يشكل خطرًا على السفينة، وفوق ذلك فهو عدو خطير للملك «جورج» حفظه الله».

ما نادوني يومًا باسمي «ديفيد» منذ أن وطأت قدماي ظهر السفينة، ولكني لم أرفض مشيئتهم، وكأن كل ما سمعته كان شيئًا عاديًّا تمامًا.

استأنف الربان كلامه قائلًا: «إن المشكلة هي أن البارود وكل بنادقنا كبيرها وصغيرها في حجرة المراقبة تحت بصر ذلك الرجل، والآن لو نزلت أو نزل أحد الضباط ليحضرها، فإن هذا سيدع للرجل مجالًا ليفكر، ولكن صبيًّا مثلك يا «ديفيد» يستطيع أن يختطف قرنًا وغدارة أو اثنتين دون أن يلحظ الرجل شيئًا. ولو استطعت أن تقوم بهذا العمل بمهارة، فإني سأذكر لك ذلك ولن أنساه، وسيكون ذا نفع لك؛ لأنك ستجد أصدقاء لك عندما نصل إلى كارولينا». وهنا أسر «رياش» في أذنه بضع كلمات، فقال له الربان:

«هذا هو عين الصواب يا سيدي»، ثم لي: «انظر هنا يا «ديفيد»، إن الرجل يحمل حزامًا مليئًا بالذهب، وأعدك بأنك ستنال نصيبك منه». ورغم أني كنت غير قادر على الكلام، إلَّا أني أخبرته بأنني سأحقق له ما شاء، وعند هذا أعطاني مفتاح صندوق الخمر، فشرعت أعود مبطئًا إلى حجرة المراقبة وأنا أقول لنفسي: ماذا عليَّ أن أفعل؟ لقد كانوا كلابًا ولصوصًا. لقد سرقوني من موطني، وقتلوا «رانسوم» المسكين، فهل أحمل لهم الشموع لارتكاب جريمة قتل أخرى؟ ولكن، من ناحية أخرى، كان رعب الموت ماثلًا أمام عيني، إذ إنه كيف يمكن لرجل وصبي حتى ولو كانا في شجاعة الأسود أن يفعلا شيئًا ضد طاقم سفينة بأكمله.

ظل هذا يتردد في جنبات عقلي، ولكني لم أصل إلى نتيجة بينة. وعندما دخلت حجرة المراقبة رأيت اليعقوبي يتناول عشاءه على ضوء المصباح، وهنا اتخذت قراري في لحظة، ولم يكن لي فضل فيه، ولكني كنت مسوقًا بغير اختياري إلى أن أفعله، فقصدت إلى المائدة ووضعت يدي على كتفه.

وقلت: «أتريد أن تُقتل؟».

فقفز على قدميه ونظر إليَّ نظرة تساؤل واضحة وضوح الكلام، فصحت به قائلًا:

- أوه. إن جميع مَن هنا سفاحون، والسفينة غاصة بهم. لقد قتلوا غلامًا لساعتهم، والآن حل دورك.

فقال: «نعم، نعم. ولكنهم لم ينالوا مني بعد». ثم نظر إليَّ بدهشة، وقال: «هل ستقف إلى جانبي؟».

فقلت: «سأفعل ذلك، إني لست لصًّا، ولم أصبح قاتلًا بعد. سأشد أزرك».

قال: «لماذا إذَنْ؟ وما اسمك؟».

فقلت: «ديفيد بلفور»، ثم ظنًّا مني بأن رجلًا يرتدي مثل هذه السترة الجميلة لا بد وأن يحب كل رجل رفيع، وهنا أضفت لأول مرة «من الأشباح».

لم يرتب في مطلقًا؛ لأن ساكن الجبال الإسكتلندية اعتاد أن يرى أفاضل الناس في فقر مدقع، ولكن بما أنه لم يكن له ممتلكات خاصة فإن كلماتي هذه قد لذعت غروره الصبياني، فقال وهو ينتصب واقفًا:

«اسمي ستيوارت، وينادونني «ألن بريك». إن اسم ملك يلائمني كثيرًا مع أني أحمله بلا لقب، وليس هناك مَن يصفق عند ذكره»، وبعد أن فاه بهذا التقريع، كما لو

كان شيئًا له أهميته الكبرى، بدأ يفحص وسائل دفاعنا.

لقد بنيت حجرة المراقبة بناء قويًّا جدًّا ليصونها من غدر البحار، وكان من بين فتحاتها الخمس كوة في السقف وبابان وقد بلغت من السعة حدًّا بحيث يستطيع رجل أن يمر فيها، وإلى جانب هذا فقد كان في الإمكان جذب البابين ليغلقا، كانا مصنوعين من خشب البلوط السميك، يجريان في مجار محفورة، ومجهزين بخطاطيف لتبقيهما مغلقتين أو مفتوحتين حسب الحاجة.. كنت قد أحكمت إغلاق الموصد منهما، وبينما أنا في طريقي لأغلق الآخر، أوقفني «ألن» قائلًا:

- «ديفيد» -بما أني لا أستطيع أن أتذكر لقبك، لذا فإني سأجرؤ على أن أناديك «بديفيد» مجردًا- إن بقاء هذا الباب مفتوحًا لهو أحسن وسائل دفاعي».

فقلت: «من الأفضل أن يُغلق».

فقال: «بل على النقيض. إنك ترى أن لي وجهًا واحدًا، وطالما أن هذا الباب مفتوح ووجهي له، فإن الكثرة الغالبة من الأعداء ستكون في مواجهتي حيث أفضل أن يكونوا».

ثم ناولني سيفًا قصيرًا من فوق الرف، حيث كان عليه عدد قليل من الأسياف والأسلحة، وقد انتقاه بعناية بالغة وهو يهز رأسه ويقول بأنه لم ير أبدًا في حياته أحقر من هذه الأسلحة. ثم أجلسني على المائدة ومعي قرن بارود، وحقيبة ملأى بالطلقات، وجميع الغدارات التي أمرني بأن أعبئها.

ثم قال: «دعني أخبرك بأن هذا العمل بالنسبة إلى سيد ناعم المولد لأفضل من تنظيف الأطباق، وحمل الخمر إلى بحارة قد اسودت وجوههم حتى أصبحت في لون القار». وعند هذا وقف في وسط الحجرة ووجهه إلى الباب، شاهرًا سيفه الكبير، ثم أجرى تجربة في الحجرة التي كان عليه أن يدبر أمر القتال فيها، ثم قال وهو يهز رأسه:

- ويجب أن أتمسك بهذا المكان لكي أقف فيه، وفي هذا حسرة أيضًا لأنه لا يتفق ومهاراتي التي أعمل بها دائمًا عندما أكون في الصفوف الأمامية، والآن هل لك أن تستمر في حشو الغدارات وتنتبه لي؟

فقلت له: «إنني سأصغي بانتباه».

احتبست أنفاسي، وجف حلقي، وأظلم النور في عيني، وانتفض قلبي من التفكير في الأعداد التي ستنقض علينا عما قليل، ثم إن البحر الذي سمعت مياهه المضطربة تلطم كل جوانب السفينة، وحيث اعتقدت أن جثتي ستلقى فيه في الصباح، قد سرى في عقلي سريانًا عجيبًا.

قال ألن: «أول كل شيء، كم من الرجال ضدنا؟»، فعددتهم، ولما كانت الأحداث تجري في عقلي سريعة، فقد كان عليَّ أن أجمع الأرقام مرتين.

ثم قلت: «خمسة عشر».

فبعث صفيرًا ثم قال: «هذا أمر يستعصي علاجه. والآن اتبعني. إن مهمتي هي أن ألتزم هذا الباب حيث أتوقع أن تقوم المعركة الرئيسة التي لن تشترك فيها.. تذكر ألا تطلق نارًا على هذا الجانب إلَّا إذا تغلبوا عليَّ؛ لأني أفضل أن يكون في مواجهتي عشرة أعداء على أن يكون وراء ظهري صديق مثلك يطلق الرصاص».

فأخبرته بأني لست حقيقة من خيرة الرماة، فصاح قائلًا بإعجاب شديد لصراحتي:

- لقد تحدثت بشجاعة عظمى. إن هناك كثيرًا من السادة لا يجترئون على أن يقولوا ذلك.

فقلت: «ولكن من المحتمل أن يقتحموا الباب الذي من خلفك».

فقال: «نعم، وهذا بعض عملك. يجب عليك أن تصعد إلى سريرك فور انتهائك من حشو الغدارات لتكون قريبًا من النافذة؛ وإذا رفعوا يدًا لاقتحام الباب، فما عليك إلَّا أن تطلق النار، ولكن ليس هذا كل شيء. دعنا نصغ منك جزءًا من جندي يا «ديفيد». أي شيء آخر عليك أن تقوم على حراسته؟».

فقلت: «هناك الكوة، ولكني في واقع الأمر يا سيد «ستيوارت» سأكون في حاجة إلى ألَّا أحول نظري عن كلا الجانبين حتى أستطيع أن أصونهما؛ لأنه إذا كان وجهي متجهًا ناحية أحدهما، فلا بد وأن يكون ظهري إلى الآخر».

فقال ألن: «هذا عين الصواب. ولكن، أليس لرأسك أذنان؟».

فصحت: «بكل تأكيد. لا بد وأني سأسمع تحطيم الزجاج».

فقال ألن عابسًا: «إنك تحمل في عقلك بعض مبادئ الإدراك».

* * *

الفصل العاشرُ
حصار حجرة المراقبة

ولكن الآن قد انتهى وقتنا للمهادنة، وظل أولئك الذين كانوا على ظهر السفينة في انتظار عودتي حتى أوشك صبرهم على النفاد، ولم يكد «ألن» يتكلم إلَّا لمامًا حتى لاح له وجه الربان من خلال الباب المفتوح، فصاح فيه «ألن» وقد صوب سيفه نحوه قائلًا:

- قف!

وقف الربان حقًّا، ولكنه لم يفزع ولا رجع القهقرى قدمًا، ثم قال:

- سيف مسلول من غمده؟ إن هذا رد غريب على كرم الوفادة!

فقال «ألن»:

- أتراني؟ إنني من سلالة الملوك. أحمل اسم ملك. شارتي البلوط. أترى سيفي؟ لقد أطاح بعدد من الراديكاليين يزيد على أصابع قدميك. استدع هوامك وراء ظهرك يا سيدي وانقضوا. وحالما يبدأ صليل السلاح فسرعان ما تتذوقون هذا الفولاذ ليصيب منكم مقتلًا.

لم يقل الربان شيئًا لألن، ولكنه تصفح وجهي بنظرة مخيفة، وقال:

- «يا ديفيد»، لن أنسى هذا.

سرى رنين صوته في أوصالي وهز خوالج نفسي، ثم انصرف في اللحظة التالية.

فقال ألن: «والآن دع يدك تحم رأسك؛ لأن القاضية آتية».

استل «ألن» خنجرًا، وأمسك به بيده اليسرى ليضرب به إذا ما أفلتوا من سيفه، وأما أنا فقد صعدت إلى السرير متسلحًا بالغدارات وبشيء من قلب ثقيل. فتحت النافذة التي كنت منوطًا بمراقبتها، فلم أستطع أن أرى إلَّا جزءًا صغيرًا من ظهر السفينة، ولكنه كان كافيًا لغرضنا. كان البحر قد انخفض، وسكنت الريح فهدأت الأشرعة، ولذا فقد خيم على السفينة سكون مطلق جعلني أستوثق من سماع أصوات تهمهم. وبعد قليل سمعت صليل أسلحة فوق ظهر السفينة، فعرفت أنهم كانوا يوزعون السيوف القصيرة على بعضهم، وأن واحدًا منها قد سقط على الأرض، وبعد ذلك عاد السكون مرة أخرى.

لست أدري هل كنت ما تسميه خائفًا، ولكن قلبي كان يدق كقلب طائر، كلاهما سريع الدقات، وكلاهما صغير. كان على عيني غشاوة، وكنت أحكها باستمرار لأزيلها، ولكنها كانت تعود أدراجها بلا انقطاع. أما الأمل فلم يكن لي فيه أدنى بارقة اللهم إلَّا ظلمة اليأس، ونوع من السخط على الدنيا بأسرها جعلني أكلف بأن أبيع حياتي بأغلى ما أستطيع. حاولت أن أصلي -على ما أذكر- ولكن سرعة عقلي نفسها

-وكانت كرجل يجري- لم تجعلني أعاني التفكير في الكلمات، وكانت غاية مناي أن تبدأ المعركة وينتهي كل شيء.

لقد حدث كل شيء فجأة عندما بدأت المعركة مصحوبة باندفاع الأقدام، وزئير الأصوات، وصيحة من «ألن» وصوت الضربات، وشخص يصرخ كَمَن أُصيب، فنظرت خلفي من فوق ظهري، ورأيت السيد «شوان» في طريق الباب وأمامه ألن يتبارزان، فصحت قائلًا:

«هذا هو الرجل الذي قتل الغلام»، فقال ألن:

«راقب نافذتك». ولما رجعت إلى مكاني، رأيته ينفذ سيفه في جسد مساعد الربان.

لم تكن بي حاجة إلى الإسراع لكي أُعني بالجزء الخاص بي؛ لأنه نادرًا ما كان ظهري إلى النافذة أمام خمسة رجال يحملون أحد أعواد الشراع التي كانوا يحتفظون بها لهدم الأسوار، ومروا بي سراعًا، ثم اتخذوا مركزًا يصلح لدفع الباب إلى الداخل. لم يسبق لي أن أطلقت غدارة طوال حياتي، وقليلًا ما أطلقت بندقية، ولم أطلق الرصاص على كائن حي أبدًا، ولكن إما أن أطلق الآن وإما لا أطلق أبدًا. وعندما حركوا العود ليقتحموا الباب، صحت فيهم قائلًا:

«خذوا هذا». وأطلقت النار في وسطهم.

أعتقد أني أصبتُ واحدًا منهم؛ لأنه صرخ، ورجع القهقرى خطوة، ووقف الباقون وكأنهم قد أخذوا بعض الشيء. وقبل أن يثوبوا إلى رشدهم، أرسلت رصاصة أخرى فوق رؤوسهم، وعندما أطلقت الثالثة (التي شغلت حيزًا واسعاً كالثانية) ألقى الجمع كله العود، وفروا.

تلفت حولي في حجرة المراقبة مرة أخرى، فإذا المكان كله مليء بدخان النار التي أطلقتها، كما كادت أذناي أن تتفجرا من جلبة الطلقات، ولكن ألن كان واقفًا هناك كما كان من قبل، غير أن سيفه كان في ذلك الحين يقطر دمًا حتى نصابه، وفي موقف بلغ من الفخار حدًّا جعله يبدو وكأنه منيع لا يقهر. كان السيد «شوان» أمامه مباشرة، جاثيًا على الأرض بيديه وركبتيه، والدم يتفجر من فمه، ويلفظ أنفاسه الأخيرة ببطء، ووجهه مروع أبيض، وعندما نظرت إليه رأيت بعض أولئك الذين من خلفه يمسكون به من عقبيه ويجرون جسده خارج حجرة المراقبة. أعتقد أنه مات عندما كانوا يفعلون ذلك. وصاح «ألن» قائلًا:

هذا واحد من أنصار الملك «جورج» لك»، ثم التفت إليَّ وسألني عن عدد من أجهزتُ عليهم، فقلت له إنني أصبت واحدًا منهم لعله الربان، فقال:

- أما أنا فقد سفكت دم اثنين. كلا، إن دمًا كثيرًا لم يرق بعد. إنهم سيعودون مرة أخرى، تولَّ الرقابة المنوطة لك «يا ديفيد»، فليس ما حدث إلَّا جرعة خمر قبل تناول الطعام.

عدت إلى مكاني أحشو الغدارات الثلاث التي أفرغت رصاصها، وظللت أرقب بعيني وأنصت بأذني.

كان أعداؤنا على ظهر السفينة غير بعيدين عنا، وكانوا يتجادلون بصوت عال استطعت معه أن أسمع جملة أو اثنتين رغم أزيز الأمواج. وسمعت أحدهم يقول:

«إن «شوان» قد أخطأ خطأً فاحشًا في تدبيره»، فأجابه الآخر:

- ما هذا يا رجل؟ لقد دفع الثمن.

بعد ذلك عادت الأصوات إلى همسها كذي قبل، والآن، كان واحد منهم يتكلم أكثر الوقت كَمَن يضع خطة، ثم أجابه واحد وأعقبه آخر إجابة مقتضبة، وكأنهم رجال يتلقون الأوامر، وبهذا وثقت أنهم عائدون مرة أخرى، وأنبأت ألن بذلك، فقال:

هذا ما ندعو الله أن يكون. إن لم نستطع أن نجعلهم يعرفون مبلغ قوتنا وننهي هذا الأمر فلن يزور النوم أعيننا. ولكن في هذه المرة، تذكر أنهم سيكونون جادين.

بهذا كانت غداراتي معدة، ولم يكن هناك شيء لأفعله إلَّا أن أُصغي وأنتظر. وعندما كان القتال دائر الرحى، لم يكن لديَّ متسع من الوقت لأفكر فيمَ إذا كنت خائفًا، وأما الآن عندما عاد كل شيء إلى سكونه فقد أصبحت لا أفكر في أي شيء آخر إلَّا في الخوف. اشتد تفكيري من السيوف المشحوذة، والفولاذ البارد. والآن عندما بدأت أسمع الخطوات المختلسة، وحفيف ملابس الرجال وهي تلمس جدار حجرة المراقبة، وعرفت أنهم يتخذون أماكنهم في الظلام جال بخاطري أن أصرخ عاليًا.

كان كل هذا يجري في جانب ألن، وبدأت أرى أن نصيبي في القتال قد انتهى، إلَّا أني سمعت شخصًا يسقط بسهولة على السقف فوقي، ثم أعقب ذلك نداء مميز على المزمار البحري، وهو شارة الهجوم، فانقض جماعة منهم دفعة واحدة على الباب والسيوف في أيديهم، وفي الوقت ذاته تحطم زجاج الكوة إلى ألف قطعة، وقفز منها رجل ونزل على الأرض، وقبل أن يقف على قدميه وضعت الغدارة في ظهره، وكان من المستطاع أن أصيبه أيضًا، إلَّا أني عندما لمسته (وكان لا يزال حيًّا) ارتعد جسدي كله، ولم أستطع أن أضغط على الزناد أكثر من قدرتي على الهرب.

سقط السيف من يد الرجل عندما قفز، ولما أحس بالغدارة، استدار برشاقة وأمسك بي وهو يزأر بالسباب، وعند هذا، إما أن شجاعتي قد رُدت إليَّ، وإما أن الخوف الشديد قد استبد بي إلى حد أن الشجاعة تملكتني مرة أخرى، إذ إني صرخت وأطلقت عليه النار في وسط جسده، فبعث بأنةٍ مروعة، بشعة أشد البشاعة، وسقط على الأرض. وفي نفس الوقت، صدمت رأسي قدم رجل آخر تدلت ساقاه من الكوة، فاختطفت غدارة أخرى وأصبته في فخده، فانزلق إلى الداخل، وسقط مكومًا على جسد رفيقه.

لم أخطئ الهدف لكثرة الرجال، ولما لم يكن لديَّ من وقت للتصويب، فقد وضعت فوهة الغدارة في نفس المكان وأطلقت النار.

من المحتمل أني وقفت أحملق فيهم طويلًا، ولكني سمعت ألن يصيح كَمَن يطلب النجدة، فأعاد هذا إليَّ انتباهي. لقد احتفظ بالباب طويلًا، ولكن أحد البحارة أفلت من رقابته وأمسك بجسده عندما كانٍ في شغل عنه بالآخرين. ورأيت ألن يطعنه بيده اليسرى، ولكن الرجل كان متشبثًا به كالقلعة، واقتحم آخر المكان شاهرًا سيفه. كان

الباب مكتظا بوجوههم. وظننت أننا هالكان، فأمسكت بسيفي، وانقضضت عليهم، وأخيرًا سقط المبارز، وقفز ألن إلى الوراء ليفسح لسيفه مكانًا، وانقض عليهم كالثور يزأر وهو في طريقه إليهم، فتحطموا أمامه كالماء، ثم استداروا وفروا يتساقطون الواحد عكس الآخر من فرط عجلتهم.

كان السيف يضوي في يده في زحام أعدائنا الهاربين كما يضوي الزئبق، وتنبعث صرخة جريح في كل ومضة، وكنت لا أزال موقنًا أننا هالكان عندما ولى الجميع، وألن يسوقهم أمامه على ظهر السفينة ككلب راع يلاحق غنمًا، ومع ذلك، فإنه لم يكد يخرج حتى عاد ثانية حذرًا كما كان شجاعًا، وفي نفس الوقت كان البحارة يواصلون إدبارهم صائحين كما لو كان لا يزال في إثرهم، وسمعناهم يتساقطون الواحد فوق الآخر على ظهر السفينة.

كانت حجرة المراقبة كالمجزر، ففي داخلها ثلاثة من القتلى، وعلى بابها آخر يعاني سكرات الموت، وهناك وقف ألن وأنا منتصرين لم يلحق بنا أذى.

أقبل عليَّ مادًّا ذراعيه، وصاح قائلًا:

«تعال إلى ذراعي»، ثم احتضنني وقبَّل وجنتي كليهما قبلات حارة، وقال: «يا ديفيد»، إني أحبك كأخ، ويأيها الرجل» ثم صاح بنوع من النشوة: «ألست محاربًا من طراز رفيع؟»، وهنا استدار إلى الأعداء الأربعة. ورشق حسامه في جسد كل منهم حتى نفذ، ثم قلبهم رأسًا على عقب واحدًا بعد الآخر خارج البابين، وكان في أثناء ذلك يغني ويترنم ويصفر لنفسه كرجل يحاول أن يستعيد أحد الأنغام، ولكنه كان في الواقع يحاول أن يبتدع أنشودة جديدة.

كان الدم يجري في وجنتيه طوال الوقت، وعيناه تبرقان بريق عيني طفل في الخامسة من عمره فرحًا بدميته الجديدة. هنا جلس فوق المائدة والسيف في يده، وبدت الأنشودة التي كان يبتدعها أكثر وضوحًا، ثم انفجر يغني بصوت عال أغنية إسكتلندية. لقد ترجمتها هنا لا بالشِّعر، (الذي لستُ حاذقًا فيه) ولكن على الأقل باللغة الإنجليزية الشائعة، غناها بعد ذلك كثيرًا، ثم ذاعت بين الناس، ولذا فقد سمعتها وشُرحت لي مرات كثيرة:

«هذه هي أنشودة سيف «ألن»

الحداد صنعه

والنار صاغته

والآن يضوي في يد «ألن برك»

كانت أعينهم كثيرة براقة

سريعة لا يمكن رؤيتها

كانوا يحركون أياديَ كثيرة

وكان السيف وحيدًا

جحافل الظباء الشهب فوق الرابية

إنها كثيرة والرابية واحدة

الظباء الشهب تختفي

وتبقى الرابية

تعالوا إليَّ من تلال العشب

تعالوا من جزر البحر

أيتها النسور حواد البصر

هنا لحم لكم».

والآن كانت هذه الأنشودة التي وضعها ألن (كلمات وموسيقى) في ساعة نصرنا أقل مما أستحقه، أنا الذي ساندته في المعركة، فالسيد «شوان» ومعه خمسة رجال إما قتلوا وإما أصبحوا في حالة عجز تام، ولكن من بين أولئك سقط اثنان بيدي، هذان اللذان أتيا عن طريق الكوة) وأصبت أربعة آخرين، ومن بين هذا العدد واحد (ليس بأقلهم أهمية) كانت إصابته على يدي. بهذا كله قمت بنصيب وافر من القتل والجرح، وكان من المحتمل أن أستحق مكانًا من أشعار ألن، ولكن بما أن الشعراء لا يفكرون إلَّا في القوافي، فقد كان ألن يمتدحني دائمًا بأكثر مما أستحق بقول منثور جميل.

كنت في نفس الوقت بريئًا من كل خطأ نسب إليَّ، لا لأني ما كنت أعرف كلمة واحدة من اللغة الإسكتلندية فحسب، ولكن من طول الانتظار الممل أيضًا، والإسراع والجهد اللذين استوليا على روحينا المحاربتين، وفوق كل هذا فقد نالني من الرعب قسط، وحالما انتهى كل شيء، تملكتني البهجة عندما تهاويت على مقعدي.

ضاق صدري، حتى إنني لم أستطع أن أجتذب أنفاسي إلَّا بمشقة، وجثم على صدري التفكير في الرجلين اللذين قتلتهما، وكأنه أضغاث أحلام، وفجأة، وقبل أن أتكهن بما سيحدث، بدأت أبعث الزفرات وأبكي كأي طفل.

دق ألن على كتفي، وقال لي إني كنت صبيًّا شجاعًا، وإنني لست في حاجة إلى شيء إلَّا إلى النوم، ثم استطرد قائلًا: «سآخذ النوبة الأولى. لقد أحسنت إليَّ صنعًا يا «ديفي» أولًا وآخرًا. ولن أستعيض عنك «بآبن» كلها، كلا ولا «ببرد البان».

اتخذت الأرض لي مضجعًا، وأخذ ألن النوبة الأولى وغدارته في يده، وسيفه على ركبته. قضى ثلاث ساعات، كما رأينا ساعة الربان فوق الحائط، ثم أيقظني فأخذت دوري لثلاث ساعات أخرى، وقبل أن تنتهي وضح النهار، وكان صبحًا هادئًا غاية الهدوء، ومياه البحر ملساء، ولكنها كانت دوارة، فهزت السفينة وجعلت الدم يجري على أرض حجرة المراقبة غاديًا رائحًا، وسقط مطر ثقيل ينقر فوق السطح. لم يحدث شيء مثير طوال نوبة مراقبتي، وسمعت ضربة قوية من مقبض دفة السفينة

مما جعلني أعرف أنه لم يكن هناك أحد عند ذراع الدفة. حقًا (كما علمت بعد ذلك) لقد مات عدد كبير منهم أو أُصيب، وأما من تبقوا، فكانوا في حالة نفسية سيئة، حتى إن السيد «رياش» والربان كانا يأخذان نوبات المراقبة مثل ألن ومثلي، ولولا تفكيرهما في تناوب الحراسة، لذهبت السفينة إلى الشاطئ.

كان من رحمة الله أن الليل قد جن هادئًا؛ لأن الريح قد ذابت مع هطول المطر، وحتى في وضع السفينة على هذا النحو، فقد حكمت على ذلك من نواح عدد وفير من الطيور المائية وهي تطير صائحة منقبة حول السفينة، التي لا بد وأن تكون الرياح ساقتها إلى قرب الشاطئ أو إلى إحدى جزر «هبريدز». وأخيرًا؛ عندما نظرت من باب حجرة المراقبة؛ رأيت عن يميني أحجار تلال «سكي» الضخمة؛ وجزيرة «رم» من ورائي وعلى مقربة مني.

* * *

الفصل الحَادي عشرُ
الربانُ يخضع

جلست مع «ألن» نتناول طعام الإفطار في حوالي الساعة السادسة صباحًا، وكانت الأرض مغطاة بالزجاج المهشم الذي خضبته الدماء الغزار، مما محا عني إحساسي بالجوع، أما فيما عدا ذلك، فقد كنا في موقف لا يبعث على الرضى فحسب، بل على البهجة أيضًا. لقد طردنا الضباط من غرفتهم، وكان تحت إمرتنا كل ما في السفينة من شراب -سواء أكان خمرًا أم كحولًا- وما طاب من الطعام كالمشهيات المملحة (مخلل)، والخبز الفاخر، وكان هذا وحده كافيًا لأن يجعلنا في حالة نفسية راضية، ولكن أشد ما أرضانا أن أكثر إسكتلنديين إدمانًا على الخمر (لأن السيد شوان قد قتل) كانا في ذلك الوقت حبيسين في مقدم السفينة، حيث حُكم عليهما بأشد الأشياء كراهية له ألا وهو الماء البارد.

قال ألن: «ثق بأننا سنسمع الكثير عنهما قبل أن ينقضي وقت طويل؛ لأنه من المحتمل أن تمنع إنسانًا من القتال، ولكنك لا تستطيع أن تحول بينه وبين زجاجته».

حلت الألفة بيننا، وكان ألن حقًّا يعبر عن مشاعره بطريقة محببة؛ فتناول سكينًا من فوق المائدة وقطع زرًّا فضيًّا من سترته.

وقال: «لقد أخذتها من أبي «دنكان ستيوارت»، وهأنذا الآن أعطيك واحدًا منها ذكرى لأحداث الليلة الماضية، وأينما حللت وأظهرت ذلك الزر، التف حولك أصدقاء «ألن برك».

قال هذا وكأنه «شارلمان» يصدر الأوامر إلى جيوشه، وحقًّا، بقدر ما كنت معجبًا ببسالته كنت دائمًا في خطر من ابتسامتي لخيلائه. أقول هذا لأني إن لم أحتفظ برصانتي، فإني أخشى التفكير فيما يتبع ذلك من شجار.

وحالما انتهينا من طعامنا، فتش «ألن» صندوق الربان، فعثر على فرجون (فرشاة) للملابس، فخلع معطفه وبدأ ينظف سترته ليزيل ما علق بها من أوساخ بعناية وجهد كنت أعتقد أنهما من خصائص النساء.

حقيقة لم يكن لديه سواها، وإلى جانب هذا (كما قال) فإنها كانت ملكًا لملك، وكانت تستحق الرعاية.

لكل هذا، عندما رأيت أي عناية اتخذها في نزع الخيوط التي تخلفت عن قطع الزر، ارتفعت في نظري قيمة هديته.

كان لا يزال مشغولًا بهذا عندما نادى علينا السيد «رياش» من على ظهر السفينة يطلب المفاوضة، فصعدت من الكوة وجلست على حافتها، وغدارتي في يدي، والشجاعة في مظهري، مع أني في دخيلة نفسي كنت خائفًا من الزجاج المكسور. ناديته ليعود وأمرته بأن يتكلم، فجاء إلى حافة حجرة المراقبة، ووقف على لفافة من

الحبال، فساوت ذقنه السقف، ووقف كل منا أمام الآخر صامتًا لحظات، أعتقد أن السيد «رياش» لم يكن في المقدمة أثناء المعركة، ولذا فإنه لم يخرج منها بأسوأ من ضربة على وجنته، ومع ذلك فقد بدا مضنى سقيمًا؛ لأنه أمضى الليل بطوله على قدميه إما واقفًا يراقب وإما قائمًا على علاج الجرحى، وأخيرًا قال وهو يهز رأسه:

- إن هذا عمل مشين.

فقلت: «إنه لم يكن باختيارنا».

قال: «إن الربان يريد أن يتحدث إلى صاحبك. يستطيعان أن يتحدثا عند النافذة.» فصحت قائلًا:

«وكيف نعرف إلى أي خيانة يهدف؟»، فأجاب السيد «رياش»:

«إنه لا يهدف إلى شيء، ولو فعل -أصدقك القول- فلن نستطيع أن نجعل الرجال يتبعونه». فقلت:

«أصحيح ما تقول؟»، فقال:

«سأخبرك بما هو أكثر من ذلك: ليس الرجال هم الذين سيعصونه فحسب، بل وأنا كذلك. إني خائف يا «ديفي»، ثم ابتسم إليَّ واسترسل قائلًا: «إن ما نريده هو أن ننفصل عنه».

عند هذا استشرت «ألن» فوافق على المفاوضة، وأعطى كل منهما للآخر وعده، ولكن السيد «رياش» لم يجئ لهذه المهمة وحدها، بل رجاني ملحًّا أن أعطيه كأسًا من الخمر مذكرًا إياي بعطفه السابق عليَّ، ولذا فقد أعطيته أخيرًا مكيالًا من الخمر في وعاء من الصفيح، شرب قليلًا منه، وحمل ما تبقى ونزل به إلى ظهر السفينة ليقتسمه (على ما أعتقد) مع رئيسه.

وبعد قليل جاء الربان (كما اتفقنا) إلى إحدى النوافذ، ووقف هناك تحت المطر، ويده في الضماد، متجهم الوجه ممتقعه، بدا وكأن العمر قد تقدم به، فأحسست بوخز الضمير لأني قد أطلقت النار عليه.

وفي الحال، رفع «ألن» الغدارة في وجهه، فقال الربان:

- أبعد هذا الشيء. ألم أنفذ وعدي؟! أم أنك تعمد إلى الإساءة إليَّ؟

فقال «ألن»:

- أيها الربان، إني أرتاب في أنك ستحفظ عهدك. لقد ساومت في الليلة الماضية وجادلتني جدل زوجة عاقة، ثم أعطيتني وعدًا ومددت لي يدك لتردها ثانية، وأنت تعرف ماذا كانت العقبى. خسئ وعدك.

فقال الربان:

«حسنًا، حسنًا يا سيدي، إنك لن تحظى بالكثير إذا ما قذفت بالسباب (وحقًّا إن الربان بريء كل البراءة من زلات اللسان)». ثم استرسل في قوله بمرارة «ولكن لدينا من

الأشياء الأخرى ما نتحدث فيه. لقد قطعت أوصال سفينتي تقطيعًا موجعًا، فلم يبقَ عليها من الأيدي ما يكفي للعمل، ثم إن ضابطي الأول (الذي لا يمكن الاستغناء عنه) قد أصاب سيفك منه مقتلًا، فقضى دون أن ينطق بكلمة. لم يبق أمامي شيء يا سيدي إلَّا أن أعود بمَن تبقوا إلى ميناء «جلاسجو»، وهناك (إذا أذنتَ) ستجد مَن هم أكثر قدرة على التحدث معك».

فقال «ألن»:

«نعم. وقسمًا سأتحدث إليهم بنفسي! إن لم يكن هناك مَن لا يتكلم الإنجليزية في تلك المدينة، فإن لديَّ قصة شيقة أقصها عليهم، قصة خمسة عشر بحارًا متقاعسين في ناحية، ورجل ومعه صبي يافع في ناحية أخرى! يا رجل إن هذا شيء يدعو إلى الحسرة». فاحمر وجه «هوسيزون»، واسترسل «ألن» قائلًا: «كلا، لن يكون ذلك، بل عليك أن ترسو بي على الشاطئ كما اتفقنا».

فقال «هوسيزون»:

- وكيف السبيل؟ لقد مات ضابطي الأول، وأنت خير مَن يعرف كيف مات، وليس منا يا سيدي رجل ملمٌّ بذلك الشاطئ ذي الخطر الشديد على السفن.

فقال «ألن»: «إني أعطيك حق الخيار في أن تنزلني على الأرض اليابسة في «آبن» أو «آردجور» أو «مورفن» أو «آريسيج» أو «مورار» أو بالاختصار في أي مكان يروق لك على مبعدة ثلاثين ميلًا من مقاطعتنا ما عدا ولاية «آل كامبل». إنه هدف عريض، ولو أخطأت في بلوغه فلا بد وأن تكون فاشلًا في مهنة البحارة كما ألفيتك فاشلًا في القتال. لماذا؟ إن مواطني المساكين يتنقلون في زورق صيد من جزيرة إلى أخرى، وفي جميع الأجواء. نعم وفي الليل أيضًا في مثل هذه الحالات».

فقال الربان:

- إن زورق الصيد يختلف عن السفينة يا سيدي. ليس له غاطس ماء.

فقال «ألن»: «إذَنْ فإلى «جلاسجو» إذا رغبت، فهناك سنضحك منك على الأقل».

فقال الربان: «إن عقلي لا يفكر في الضحك إلَّا قليلًا. ولكن كل هذا سيتكلف مالًا يا سيدي»، فقال «ألن»:

- إني لا أنقض العهد أبدًا. ثلاثون جنيهًا لو أرسوتني على شاطئ البحر، وستون جنيهًا لو وضعت بي في بحيرة «لينه».

فقال «هوسيزون»: «ولكن انظر يا سيدي أين نحن الآن، إننا على مسيرة ساعات قليلة من «أردنا ميورشان». أعطني ستين جنيهًا أنزلك هناك».

فقال «ألن»: «وهل أتكلم بلهجتي الإسكتلندية، وأخاطر بحياتي بين ذوي السترات الحمراء مرضاة لك؟ كلا يا سيدي، إذا أردت الحصول على ستين جنيهًا، فاعمل على أن تربحها وأنزلني في مقاطعتي».

فقال الربان: «إننا يا سيدي نخاطر بالسفينة وبحياتكم معها.

فقال «ألن»: «لك الخيار في أن تقبل أو ترفض».

فسأله الربان وقد تقطب جبينه: «أتستطيع أن تتولى قيادتنا؟»

فقال «ألن»: «حسنًا، إني أشك في ذلك؛ فأنا رجل مقاتل (كما رأيت بنفسك، أكثر مني بحارًا، ولكني كثيرًا ما أخذت من هذا الشاطئ، ونزلت به، وأعرف شيئًا عن مرساه».

فهز الربان رأسه وهو لا يزال عابس الوجه، وقال:

- «لو كنت قد فقدت نقودًا أقل في هذه الرحلة التعسة الحظ، لوددت أن أراك على حبل المشنقة قبل أن أخاطر بسفينتي يا سيدي، ولكن لتكن مشيئتك، وحالما تميل الريح (وها هو ذا بعضها آت إذا لم أكن مخطئًا)، فإننا سنتجه إلى غايتك، ولكن بقي هناك شرط واحد، وهو أنه من المحتمل أن نلتقي بسفينة ملكية، وربما أخذتنا إلى الشاطئ يا سيدي، وإني لست ملومًا في هذا، ثم إنهم يحتفظون بعدد وفير من القراصنة على ذلك الشاطئ، وأنت تعلم لمَن هم يتربصون؟ والآن يا سيدي، لو حدث هذا فإنك ربما تترك النقود لنا».

فقال «ألن»: «لو رأيت العلم أيها الربان، فما عليك إلَّا أن تولي الأدبار، إنكم الآن -كما سمعت- تعانون بعض النقص في الخمر في مقدم السفينة، ولذا فإني أبادلك زجاجة من الخمر بدلوين من الماء».

كانت هذه هي آخر فقرة في المعاهدة، وقد نفذت في حينها من كلا الجانبين، ولذا فقد استطعت ومعي «ألن» أن نغسل حجرة المراقبة ونتخلص من ذكريات من أجهزنا عليهم، أما الربان والسيد «رياش» فقد استطاعا أن يسعدا مرة أخرى بطريقتهما الخاصة، ألا وهي الشراب.

* * *

الفصل الثاني عشر
أسمع بالثعلب الأحمر

قبل أن ننتهي من تنظيف حجرة المراقبة، هب نسيم من مكان يبعد قليلًا عن الجهة الشمالية الشرقية فساق المطر وظهرت الشمس، وهنا ينبغي أن أوضح -والقارئ يحسن صنعًا لو نظر إلى الخريطة- كنا نعبر «المانش الصغير» في ذلك اليوم الذي نزل فيه الضباب وأغرقنا زورق «ألن»، وعند السحر بعد المعركة، توقعنا سكونًا عند شرقي جزيرة «كانا» أو بينها وبين جزيرة «إيريسكا» إحدى سلسلة جزر «الجزر الطويلة» والآن، لكي تذهب من ذلك المكان إلى بحيرة «لينه»، فإن الطريق المستقيم إليها كان يقع بين مضايق «خليج مل»، ولكن الربان لم يكن لديه خريطة، ولم يكن ليثق في سفينته لتتعمق بين الجزر. ولما كانت الريح مواتية فقد رأى أنه من الأفضل أن يسير في الجهة الغربية من «تيري»، ثم يتجه شمالًا تحت الشاطئ الجنوبي لجزيرة «مل» العظيمة.

كان النسيم يهب طوال النهار من نفس المكان، ولكنه كان يزداد انتعاشًا لا هدوءًا. وفيما حوالي بعد الظهر بدأت موجة هادرة تأتي من حول «هبريدز الخارجية»، وكان حتمًا علينا لكي ندور حول الجزر الداخلية أن نسلك الطريق إلى الجنوب الغربي، ولذا فإن أول ما حدث هو أن هذه الموجة الهادرة قد لطمت عرض سفينتنا فجعلتنا ندور بشدة. ولكن بعد أن جن الليل، وانتهينا من الدوران حول طرف «ثيريه»، وبدأنا نتجه رأسًا ناحية الشرق، كان البحر وراء مؤخر السفينة تمامًا. وفي الصباح الباكر قبل أن تهب الموجة العالية كان الجو يبعث على البهجة الشديدة، وأبحرنا كما كنا تحت شمس ساطعة، والجزر الجبلية على الجوانب المختلفة منا.

جلست مع «ألن» في حجرة المراقبة، والبابان مفتوحان في كلا الجانبين، والريح لا تزال هادئة، ندخن غليونًا أو اثنين من طباق الربان الفاخر. كان كلانا في ذلك الوقت يستمع إلى قصص الآخر، وكانت أكثر أهمية لي؛ لأني تلقنت بعض المعلومات عن ذلك الإقليم الإسكتلندي الجبلي المقفر الذي كنت سأطأ أرضه عما قليل. في تلك الأيام التي جاءت في أعقاب الثورة الكبرى مباشرة كان المرء في حاجة إلى أن يعرف ماذا سيفعله عندما يسير بين أعشاب ذلك الإقليم. كنت الشخص الذي ضرب المثل على ذلك، فأخبرته بكل ما حل بي من نائبات، أصغى إليها دون أن يضيق بها، إلَّا عندما جاء على لساني ذكر القسيس «كامبل» صديقي الطيب، فثار «ألن» وصاح قائلًا إنه يكره كل مَن يحمل هذا الاسم، فقلت له:

«لماذا. إنه رجل تفخر بأن تمد يدك إليه»، فقال «ألن»:

«لا أعرف شيئًا أمد به يدي إلى أحد من آل «كامبل» إلَّا رصاصة أصوبها نحوه. إني أود أن أصيد كل مَن يحمل هذا الاسم كما أصيد الديوك السوداء، وحتى في

ساعة احتضاري، فإني أزحف على ركبتي إلى نافذة غرفتي لأطلق رصاصة على واحد منهم». فقلت:

«لماذا يا ألن؟ ماذا يسوءك من «آل كامبل»؟»، فصاح عاليًا:

«حسنًا، أنا من «آل ستيوارت» من «آبن»، وطالما أسرع «آل كامبل» إلى تدمير مَن يحملون لقبي، نعم، واستولوا على أراضينا بالخديعة لا بحد السيف أبدًا»، وعندما قال هذا، ضرب بقبضة يده على المائدة، ولكني لم ألق بالًا كثيرًا لهذا؛ لأن العادة قد جرت على ألا يقول ذلك إلَّا المغلوبون على أمرهم، ثم استطرد قائلًا: «لقد سلكوا في كل هذا مسلكًا واحدًا، مسلك الخدع التي لا تليق إلَّا بالباعة الجائلين، وهذا بالإضافة إلى ذلك المظهر المشروع الذي يجعل المرء غاضبًا أشد الغضب».

فقلت: «أحب أن أقول لك أيها المسرف في أزرارك، إنه من العسير عليَّ أن أعتقد أنك تحكم على الأمور حكمًا صحيحًا»، فقال وهو يعود إلى ابتسامته:

«نعم، لقد آل إليَّ هذا الإسراف عن نفس الرجل الذي أخذت الأزرار منه. كان ذلك الرجل أبي المسكين «دنكان ستيوارت» سامحه الله. كان أجمل أهله، وأبرع رجال السيف من سكان الجبال الإسكتلندية، وأستطيع أن أقول يا «ديفيد» إنه أبرع من حمل السيف في الدنيا بأسرها. أعرف ذلك لأنه هو الذي علمني. لقد كان من رجال «الحرس الأسود» عندما بدأ ممارسته، وكان كباقي السادة العسكريين يمشي وراءه تابع حاملًا بندقيته أثناء المسير. حسنًا، يبدو أن الملك كان راغبًا في أن يرى رجل سيف من سكان الجبال الإسكتلندية، فوقع الاختيار على أبي وعلى ثلاثة آخرين، جيء بهم إلى مدينة «لندن» ليرى الملك فنون السيف الرفيعة، ثم بعث بهم إلى القصر، وأظهروا كل أفانين السيف لمدة ساعتين متواليتين أمام الملك «جورج» والملكة «كارولين» و«الجزار كاميرلند» وكثيرين ممن لا أذكرهم. وبعد أن انتهوا من عرضهم، تحدث إليهم الملك (وكان مغتصبًا للسلطة) حديثًا لطيفًا، وأعطى كلًّا منهم في يده ثلاثة جنيهات. والآن، وعندما كانوا يغادرون القصر، وكان البواب في رفقتهم، لاح لوالدي -بما أنه من المحتمل أن يكون أول السادة العسكريين من جبال إسكتلندا يمر بذلك الباب- أنه من اللائق أن يعطي البواب المسكين صورة تنم عن صفاتهم، فدس الجنيهات الثلاثة التي منحها الملك إياه في يد الرجل كما لو كانت تلك عادة متبعة، وحذا حذوه في ذلك الثلاثة الآخرون الذين كانوا يتبعونه، ثم خرجوا إلى الطريق، ولم يظفروا بشيء مقابل جهدهم. يقول بعض الناس إنه أول رجل دفع أجرًا لبواب الملك، ويقول آخرون إنه شخص آخر، ولكن الحقيقة أنه كان (دنكان ستيوارت)، وإني على استعداد لأن أثبت ذلك بالسيف أو بالغدارة على السواء، هذا هو أبي، فليرقد في راحة أبدية».

فقلت: «يخيل إليَّ أنه لم يكن الرجل الذي تركك ثريًّا».

فقال ألن: «وهذا صحيح. لقد خلف لي سراويلي لتستر جسدي وإلى جانبها متاع قليل، وهذا ما حدا بي إلى أن أتقدم إلى الخدمة العسكرية، التي كانت نقطة سوداء في حياتي في أطيب الأوقات، وستظل أمرًا موجعًا لي إذا ما وقعت في أيدي ذوي السترات الحمراء».

صحت به قائلًا: «ماذا؟ وهل كنت في الجيش الإنجليزي؟».

فقال: «نعم كنت فيه، ولكنني فررت منه إلى جانب الصواب عند «برستون بانز»، وفي هذا بعض الراحة لي».

لم أستطع أن أشاطره هذا الرأي إلَّا قليلًا؛ لأني أرى أن الفرار من الجندية خطيئة ماسة بالشرف لا تغتفر، ولكن مع أني كنت صغير السن، إلَّا أني كنت أكثر تعقلًا من أن أجهر برأيي.

قلت: «يا عزيزي، يا عزيزي إن الموت عقوبة الفرار من الجندية».

فقال: «نعم. إذا قبضوا عليَّ، فلن يكون هناك إلَّا اعتراف قصير للغفران، ثم حبل طويل «لألن»، ولكن معي في جيبي جواز من ملك فرنسا يقيني بعض الشيء».

فقلت: «إني لا أرتاب في هذا الجواز ريبة شديدة».

فقال «ألن» بجفاء: «ولكني أنا نفسي أشك».

فصحت قائلًا: «ولكن يا لرحمة السماء، إنك أيها الرجل متهم بأنك ثائر، وبأنك هارب من الخدمة العسكرية، وبأنك من رجال ملك فرنسا، فماذا يدفع بك إلى العودة إلى تلك البلاد؟ إنها شجاعة ترعاها عناية الله».

قال «ألن»:

«صه، لقد كنت آتي إلى هنا كل عام من سنة ست وأربعين».

فقلت: «ولأي شيء تأتي يا رجل؟».

قال: «إن الحنين يأخذني لرؤية أصدقائي وبلادي. إن فرنسا بلاد جميلة لا شك في هذا، ولكني أتعطش لأن أرى العشب والظباء، ولديّ بعض الأعمال التي أقوم بها، فأحيانًا ألتقط بعض الصبية ليخدموا ملك فرنسا، لعلك ترى، نظير مبلغ ضئيل من المال، ولكن لب الأمر هو صالح زعيمي «آردشيل».

فقال: «ظننت أنهم يسمون زعيمكم آبن».

فقال: «نعم، ولكن «آردشيل» هو زعيم القبيلة». ولم ينر هذا القول من بصيرتي إلَّا قليلًا، ثم استطرد قائلًا: «إنك ترى يا «ديفيد» أنه عاش حياته كلها رجلًا عظيمًا، تجري في عروقه الدماء الملكية، ويحمل اسم الملوك، ولكن يا لسوءات الزمن! لقد بعث به ليعيش في إحدى مدن فرنسا معدمًا منفيًّا. رأيت بعين رأسي ذلك الذي كان تحت إمرته أربعمائة سيف تلبي نداءه إذا ما أطلق صفارته يشتري الزبد من السوق ويحملها إلى داره في ورقة كرنب. لم يكن هذا باعثًا على الألم في أسرتنا وعشيرتنا فحسب، بل على العار أيضًا. وهذا هو حال علية القوم في مناطق الجبال الإسكتلندية. فالأطفال أمل «آبن» يجب أن يتعلموا العلوم وكيف يمسكون بالسيف في تلك البلاد البعيدة، والآن فإن مستأجري «آبن» مكرهون إلى أن يدفعوا إيجارًا للملك «جورج»، ولكن قلوبهم تفيض إخلاصًا ووفاء لزعيمهم، وبالمحبة، وبقليل من الضغط، وربما بوعيد أو وعيدين، يدفع هؤلاء القوم المساكين الإيجار مرة

أخرى «لآردشيل» حسنًا يا «ديفيد»، أنا اليد التي تحمله». ثم ضرب بيده على الحزام الذي يلتف بجسده، فأحدثت الجنيهات رنينًا، فصحت قائلًا:

«هل يدفعون الإيجار لكليهما؟».

فقال: «نعم، يدفعونه مرتين.» فأعدت ما قلت:

«ماذا! الإيجارين؟».

قال: «نعم يا «ديفيد». لقد قلت لذلك الربان قصة غير هذه، ولكن تلك هي حقيقتها. وإنه ليدهشني لماذا تمس الحاجة إلى شيء من الإكراه، ولكنه من صنع الرجل المسمى «بجيمس ساكن الوديان» وهو «جيمس استيوارت» قريبي الطيب وصديق والدي، وهو أخ غير شقيق «لآردشيل» وعليه أن يجمع المال ويدبر الأمور».

كانت تلك أول مرة أسمع فيها باسم «جيمس ستيوارت»، ولكنه أصبح فيما بعد معروفًا جدًّا عندما شنقوه. لم يكن هذا الأمر لي ذا أهمية قصوى ساعتئذ؛ لأن تفكيري كله كان منصرفًا إلى نخوة سكان الجبال الإسكتلندية هؤلاء.

فقلت: «إني أعتبر هذا نبلًا. ورغم أني من أتباع الملك أو أكثر قليلًا، إلَّا أني أسميه نبلًا».

فقال: «نعم، إنك من أتباع الملك، ولكنك رجل من سادة القوم، وهذا ما يدفع بك إلى أن تكون من أتباعه. والآن لو كنت واحدًا من سلالة «آل كامبل» اللعينة، فإنك تُصر على أسنانك عند سماعك للقصة. لو كنت الثعلب الأحمر»، وعند ذكر هذا الاسم أصر على نواجزه وتوقف عن الكلام. لقد رأيت كثيرًا من الوجوه المتجهمة، ولكني لم أرَ قط أبشع من وجهه عند ذكر لفظ «الثعلب الأحمر».

سألته وأنا خائف ولكني كنت لا أزال مشوقًا إلى أن أعرف عن الثعلب الأحمر شيئًا:

«ومن يكون الثعلب الأحمر؟».

فصاح «ألن»: «ومَن يكون؟ حسنًا، سأحدثك عنه. عندما هزم رجال القبائل عند «كالودن»، وانهار الهدف السامي، ووطأت الخيول بسنابكها أنبل دماء أولئك الذين يعيشون في الشمال، رأى «آردشيل» نفسه مسوقًا إلى أن يهرب فوق الجبال كظبي مسكين ومعه زوجته وأولاده، وإنه لمما يدعو إلى الحسرة أنه بينما كان ملقى في العشب قبل وضعه في السفينة، كان الإنجليز المخاتلون الذين لم يستطيعوا أن ينالوا من حياته شيئًا، يعصفون بحقوقه. لقد سلبوه سلطاته، وانتزعوا أراضيه، وجردوا أتباعه من السلاح بعد أن حملوه ثلاثين قرنًا من الزمان، نعم ومن الملابس ذاتها التي كانوا يرتدونها، ولذا فإن الإثم الآن هو أن يرتدي الرجل ملابس مصنوعة من صوف منقوش ذي مربعات ملونة، ومن المحتمل أن يزج بالمرء في السجن إذا ما لف حول وسطه رداء من ذلك الطراز الذي يتميز به رجال إسكتلندا، ولكن بقى هناك شيء واحد لم يستطيعوا أن يقتلوه ألا وهو الحب الذي يكنه الأتباع لزعيمهم، وهذه الجنيهات دليل على ذلك. والآن يأتي دور رجل من قبيلة «كامبل» هو «كولين أوف جلينز» ذو الرأس الحمراء...».

فقلت له: «أهذا هو مَن تسميه بالثعلب الأحمر؟».

فصاح ألن: «هل في مقدورك أن تقتله؟ نعم، هو هذا الرجل. إنه يجوب البلاد، ويحصل على الأوراق من الملك «جورج» لكي يقال عنه إنه عميل الملك على أرض «آبن». إنه يبدو في أول الأمر رجلًا طيبًا، ويعامل «شيماس» -جيمس ساكن الوديان- ونائب زعيمي معاملة رقيقة، ولكن شيئًا فشيئًا ترامى إلى سمعه ما أخبرتك به وهو أن أتباع «آبن» المساكين من مزارعين وبستانيين كانوا يفترون على أنفسهم ليدبروا إيجارًا ثانيًا ويرسلونه عبر البحار إلى «آردشيل» وأطفاله المساكين. ماذا تسمي هذا بعد أن أنبأتك به؟»، فقلت:

«لقد أسميته نبلًا يا ألن».

قال: «ذلك لأنك أفضل من تابع عادي للملك! ولكن عندما علم «كولين روي» بأمر هؤلاء الأتباع، ثار دم آل «كامبل» الأسود في عروقه»، وجلس على مائدة الخمر يُصر على أسنانه، ويقول:

«ماذا! أيحصل واحد من آل ستيوارت على كسرة خبز وفي مقدوره أن يحرمه منها؟ آه أيها الثعلب الأحمر، لو استطعت أن أضعك أمام فوهة بندقية فرحمة الله عليك!»، (ثم توقف ليبتلع غضبه) واستتبع قائلًا: «حسنًا يا «ديفيد»، ماذا يفعل؟ إنه يعلن عن إيجار الأرض كلها، ويظن لسوء طويته أنني سآتي بمستأجرين آخرين لكي يرفعوا قيمة الإيجار في المزايدة على آل «ستيوارت» و«ماكول» و«ماكروب» (لأن هذه الأسماء جميعها يا ديفيد هي أسماء قبائلنا)، ثم يظن أن «آردشيل» سيقف على قارعة طريق فرنسي ممسكًا بقبعته يستجدي».

فقلت: «حسنًا، وماذا فعل بعد ذلك»!

وأخيرًا انتزع غليونه من فمه بعد طول مكثه فيه، وأراح يديه على ركبتيه، ثم قال:

«نعم، إنك لا تستطيع أن تتنبأ لأن قبائل «ستيوارت» و«ماكروب» و«ماكول» هؤلاء (الذين كان يتحتم عليهم أن يدفعوا الإيجار مرتين، واحدة للملك «جورج» بالعنف المطلق، والأخرى «لآردشيل» بطبيعتهم الرحيمة) قد عرضوا عليه إيجارًا أفضل من إيجار أي شخص من قبيلة «كامبل» في إسكتلندا بأسرها، وأرسل الثعلب الأحمر رسله في جنبات «كلايد» وعرض «أدنبرة» لكي يبحث عنهم ويصانعهم ويرجوهم أن يأتوا إلى حيث يوجد واحد من آل «ستيوارت»؛ لكي يميتوه جوعًا، وليبتهج كل ذي رأس أحمر من قبيلة «كامبل».

فقلت: «حسنًا يا «ألن»، هذه قصة عجيبة ولكنها ممتعة أيضًا، ورغم أني من أنصار الملك، إلَّا إني مغتبط لأن الرجل قد قُهر». فردد «ألن» قائلًا:

«قُهر! إنك لا تعرف إلَّا القليل عن آل «كامبل»، والأقل منه عن الثعلب الأحمر. هل قهر حقًّا؟ كلا... ولن يقهر حتى يراق دمه على سفح الرابية. ولكن لو يحين اليوم أيها الرجل «ديفيد» الذي أستطيع أن أجد فيه فراغًا من الوقت لبعض الصيد، فلن ينمو من الأعشاب في إسكتلندا بأسرها ما يفي بإخفائه من انتقامي!».

فقلت: «ألن» أيها الرجل، إنك لست راجح العقل ولا مغرقًا في المسيحية بإطلاقك هذه الكلمات الكثيرة الغاضبة التي لا تلحق ضررًا بالرجل الذي تسميه بالثعلب الأحمر، ولا تعود عليك بنفع، خبرني عن قصتك بوضوح، ماذا فعل بعد ذلك؟».

فقال: «هذه ملاحظة طيبة يا «ديفيد». صدقًا وحقًّا إنها لا تسبب له ضررًا، وهذا ما يزيد من حسرتي، أما فيما يتعلق بالمسيحية (حيث يختلف رأيي اختلافًا تامًّا وإلا لما كنت مسيحيًّا) فإني أقرك على رأيك إلى حد كبير».

فقلت: «رأي هنا أو رأي هناك فإن المسيحية تنهي عن الانتقام».

فقال «ألن»:

«نعم، إنه واضح كل الوضوح أن واحدًا من آل «كامبل» هو الذي علمك، وستكون حياة ملائمة لهم ولمَن على شاكلتهم إذا لم يكن هناك شيء كصبي وبندقية خلف غصن من العشب، ولكن هذا شيء خارج عن الموضوع، وهاك ما فعله».

فقلت: «نعم، هات ما عندك».

فقال ألن: «حسنًا يا «ديفيد»، بما أنه لم يتمكن من الخلاص من عامة القوم المخلصين بالطرق السليمة، فقد أقسم أن يعمد إلى الغدر للخلاص منهم. كان لا بد أن يموت «آردشيل» جوعًا، وهذا ما كان يصبو إليه، ولما لم يكشف أمر الذين أطعموه في منفاه -إن صوابًا أو خطأ- فقد طردهم، وبعث بالمحامين والأوراق وذوي السترات الحمراء، فساق ذوي النفوس الرحيمة في تلك البلاد إلى أن يتراصوا ويرحلوا على الأقدام، كل ابن يخرج من دار أبيه، ويبرح المكان الذي ترعرع ونشأ به، ولعب فيه عندما كان صبيًّا. ومَن ذا الذي يحل محلهم؟ الشحاذون عراة السيقان؟ والملك «جورج» يطالب بإيجاره. وماذا يهم «كولين الأحمر»؟ لو استطاع إيذاء «آردشيل» فله مشيئته، ولو استطاع أن ينتزع اللحم من فوق مائدة زعيمي، والدمى الصغيرة من أيدي الأطفال، فإنه سيعود على رأس جماعة إلى داره وهو يُغني لجلينورا».

فقلت: «دعني أقول كلمة واحدة. ثق بأنهم لو حصلوا على إيجارات أقل فلا بد وأن يكون للحكومة إصبع في هذا. إنها ليست غلطة قبيلة «كامبل» يا رجل، وإنما هي غلطة الأوامر الصادرة إليه، ولو قتلت «كولين» هذا غدًا، فهل سيكون في هذا نفع لك؟ إن عملًا آخر سيتبع هذا بسرعة المهماز».

فقال ألن: «إنك صبي تجيد القتال، ولكن الدم الراديكالي يجري في عروقك يا رجل».

كان يتكلم بشيء من اللطف غير قليل، ولكنه كان يخفي وراء سخريته غضبًا شديدًا. فرأيت أنه من الفطنة أن أغيِّر سياق الحديث. وأوضحت له دهشتي من أنه على الرغم من أن الجبال الإسكتلندية المرتفعة تعج بالجنود، وتحت حراسة مشددة وكأنها مدينة محاصرة. فكيف لرجل في مثل موقفه أن يهيم فيها دون أن يُلقى القبض عليه!».

فقال ألن: «إنه لأسهل مما تتصور. إن سفح تل عار مثله كمثل طريق واحد. إذا وجد ديدبان في مكان ما، فما عليك إلَّا أن تسلك طريقًا آخر، وبالتالي فإن الأعشاب ستكون عونًا لك، هذا بالإضافة إلى أنك ستجد في كل مكان بيوت الأصدقاء وأجرانهم وأحطابهم، وإلى جانب هذا فإن القوم إذا ما تحدثوا عن بلاد تكسوها الجنود فلن يكون ذلك الحديث إلَّا مضغة في الأفواه. إن الجندي لا يغطي إلَّا مكان نعل حذائه. لقد صِدت السمك يومًا مع أحد الحراس على الجانب الآخر، واصطدت سمكة، وجلست بين العشب على مبعدة ست أقدام من جندي آخر، وتعلمت نغمًا جميلًا من صفيره، وها هو»، ثم أطلق صفيرًا لهذا النغم، واستطرد قائلًا:

«أضف إلى هذا أن الحال الآن لم يبلغ من السوء ما بلغه في سنة ست وأربعين. إن سكان الجبال الإسكتلندية يسمون بالهادئين، ويا لعجبي لم تترك بندقية ولا سيف فيما بين «كانتير» و«رأس روث»، وأي حرص اتخذه القوم في إخفاء بيوتهم المسقوفة بالقش، ولكن الذي أريد أن أعرفه يا «ديفيد» هو أنه حتَّامَ يستمر ذلك؟ لعلك تظن أنه لن يطول المدى لأن «آردشيل» في المنفى، ولأن رجالًا مثل الثعلب الأحمر جالسون يحتسون الخمر ويضطهدون الفقراء في الوطن، ولكنه من العسير أن تقرر قدرة القوم على الاحتمال، وعلى ما لا يستطيعون احتماله، وإلا فلماذا يمتطي «كولين الأحمر» صهوة جواده يذرع كل المناطق المسكينة في «آبن» ولا يودع صبي مليح رصاصة في جسده؟!».

وبعد أن انتهى «ألن» من حديثه، استولى عليه شرود فكر، وطال صمته في حزن شديد.

سأضيف ما تبقى لأقوله عن صديقي، إنه كان ماهرًا في جميع ضروب الموسيقى وبخاصة موسيقى القرب، وشاعرًا مرموقًا بلغته، وقرأ عدة كتب بالفرنسية والإنجليزية، إذا أصاب أمات، صياد ماهر بالصنارة، لاعب بالسيف لا يُبارى سواء أكان سيفًا صغيرًا أم سلاحه الخاص. أما أخطاؤه فكانت تبدو على وجهه، وقد عرفتها جميعًا الآن، ولكن أشدها سوءًا كان نزوعه الصبياني إلى الغضب وتصيد الشجار، ولكنه لم يغضب مني، ولم يقم بيني وبينه عراك جزاء ما قمت به في المعركة التي دارت في حجرة المراقبة. وإني لا أستطيع أن أفصح أكان ذلك بسبب قيامي بواجبي أم لأني شهدت بسالته الفائقة، هذا وعلى الرغم من أنه كان ذواقة لبسالة الآخرين، إلَّا أنه كان شديد الإعجاب بشجاعة «ألن برك».

* * *

الفصل الثالِث عشر
فقدُ السّفينـة

كنا في الهزيع الأخير من الليل، والظلام شأنه في مثل هذا الفصل من العام (لا يزال صافيًا بعض الصفاء) حين قرع «هوسيزون» باب حجرة المراقبة برأسه.

وقال: «اخرج وانظر إذا كنت تستطيع أن تقود السفينة».

فسأله «ألن»:

«أهذه إحدى ألاعيبك؟»، فصاح الربان:

«أيبدو هذا عليَّ؟ إن لديَّ من الأمور الأخرى ما يشغل بالي، فالخطر يحدق بسفينتي».

ولكن ما كان يبدو على قسمات وجهه من جزع، بالإضافة إلى نبرات صوته الحادة التي تحدث بها عن سفينته، أوضح لكلينا أنه جاد أشد الجد، فخرجت أنا و«ألن» إلى سطح السفينة غير خائفين من غدره.

كانت السماء صافية، والريح شديدة، والبرد قارسًا، وجزء كبير من النهار يتواني، والقمر الذي كاد أن يكون في تمامه يضيء ساطعًا، والسفينة تغير اتجاهها، فتدور حول الطرف الجنوبي الغربي لجزيرة «مل» التي كانت تلالها (وعلى رأسها جميعها تل «بن مور»، الذي تكسو قمته كومة من الضباب) تقع إلى يسار منحنى السفينة، ومع أنها لم تكن منطقة ملائمة لإبحار «العهد»، إلَّا أنها كانت تمخر عبر الماء بسرعة فائقة، تشقها جاهدة، وتتبعها الأمواج الغربية الهادرة. ومهما يكن من شيء فإنها لم تكن ليلة سيئة لطي البحار، وبدأت أدهش من ذلك الثقل الذي جثم على صدر الربان عندما ارتفعت السفينة فجأة على قمة موجة عالية، فصاح ينادينا أن ننظر، وهناك عند منحنى مقدم السفينة المضادة للريح، ارتفع في البحر المضاء بنور القمر شيء وكأنه النافورة، سمعنا بعده مباشرة صوتًا من الزئير خفيض، فسألنا الربان مكتئبًا:

«ماذا تسمي هذا؟».

فقال ألن: «إن مياه البحر تتحطم على الصخور القريبة من سطح الماء. والآن، أتعرف موقف السفينة؟ وهل ستكون بعد ذلك في حالة أفضل؟».

فقال «هوسيزون»:

«نعم، لو كانت هذه هي المرة الوحيدة».

وبالتأكيد، بعد أن انتهى من كلامه مباشرة، ارتفعت نافورة أخرى جهة الجنوب.

فقال «هوسيزون»: «هناك! إنك ترى بنفسك. لو كنت أعلم بوجود هذه الصخور ولو كان لديَّ خريطة، أو لو أن «شوان» لم يُقتل، ما خاطرت بسفينتي نظير مبلغ ستمائة جنية لا ستين جنيهًا لخوض هذه الساحة الصخرية، ولكن أنت يا سيدي، يا مَن كان يجدر بك أن تتولى قيادة السفينة، أليس لديك ما تقوله؟».

فقال ألن: «هأنذا أفكر، هذه ما يسمونها بصخور توران».

فقال الربان: «هل يوجد الكثير منها؟».

فقال ألن: «إنني لست حقًّا مرشدًا للسفن، ولكن يلتصق بذهني أنها تمتد لعشرة أميال». فنظر الربان والسيد «رياش» كل منهما إلى الآخر، ثم قال الربان:

- «أظن أن هناك طريقًا يشقها».

فقال ألن:

«هذا مما لا ريب فيه، ولكن أين هذا الطريق؟ وعلى كل حال فإنه يجري في ذهني مرة أخرى أن الطريق المحاذي للشاطئ أكثر وضوحًا».

فقال «هوسيزون»:

«كذا؟ إذَنْ فعلينا يا سيد «رياش» أن نغير اتجاه السفينة للريح، وينبغي أن نقترب بها إلى نهاية جزيرة «مل» قدر ما نستطيع، وعند هذا ستحجب الأرض الريح عنا، وتجعل تلك المنطقة الصخرية من خلفنا، وها نحن أولاء في طريقنا إليها الآن، ومن الأفضل أن نواصل المسير».

بذلك أصدر أمره إلى مُوجِّه الدفة، وأرسل «رياش» إلى أعلى مقدم السفينة التي لم يبق على ظهرها سوى خمسة رجال بما فيهم الضباط، وكان هؤلاء هم الصالحون للعمل (أو على الأقل صالحون وراغبون فيه، ولذا، كما أقول، فقد وقع الاختيار على السيد «رياش» لكي يصعد، فصعد، وجلس هناك ليرقب وينبئ من على ظهر السفينة بكل ما يرى، ثم قال «رياش»:

«إن البحر كثيف ناحية الجنوب»، ثم قال بعد لحظة: «إنه يبدو أكثر صفاء بمحاذاة اليابسة». وهنا قال «هوسيزون» «لألن»:

«حسنًا يا سيدي، سنحاول أن نسلك السبيل الذي تراه، ولكني أظن أني كَمَن يثق في ضارب على الكمان كفيف. أدعو الله أن تكون على صواب» فقال «ألن»:

«أدعو الله أن أكون مصيبًا، حسنًا، حسنًا، فليكن ما ينبغي أن يكون».

وعندما اقتربنا من دوران الأرض، بدأت شعاب الصخور تظهر هنا وهناك في طريقنا نفسه، وكان السيد «رياش» يصيح بنا أحيانًا لنغير خط المسير، وفي بعض الأحايين كانت السفينة تقترب حقًّا من إحدى هذه الصخور، وعندما لطمتها مياه البحر تطايرت المويجات الخفيفة وسقطت على ظهر السفينة، وبللتنا وكأنها حبات المطر.

أوضح لنا صفاء الليل تلك المخاطر، ووضوحها بالنهار الذي كان من المحتمل أن يكون أكثر إنذارًا بالخطر، ورأيت على ضوء الليل الصافي وجه الربان وهو واقف بجوار موجه الدفة على إحدى قدميه حينًا، وعلى الثانية حينًا آخر، وكان أحيانًا ينفخ في يديه، ولكنه لا يزال يسمع ويرى ثابتًا كالفولاذ. لم يظهر الربان أو السيد «رياش» براعة في أفانين القتال، ولكني رأيت أنهما يتحليان بالشجاعة في مهنتهما، وازداد إعجابي بهما عندما رأيت «ألن» ممتقع الوجه ويقول:

«يا إلهي! ليس هذا هو نوع الموت الذي أتخليه يا ديفيد».

فصحت به: «ماذا يا «ألن»؟ أخائف أنت؟»

فقال وهو يبلل شفتيه: «كلا، ولكن ينبغي أن تسلم بأنها نهاية فاترة».

في ذلك الوقت كنا بين حين وحين نسير في طريق رأسي من أحد جانبيه إلى الآخر كي نتجنب الشعاب، وكنا لا نزال نحتضن الريح والأرض، ودرنا حول «أيونا» وبدأنا نسير بمحاذاة جزيرة «مل». جرى المد في نهاية الأرض قويًّا فطوح بالسفينة. كان هناك رجلان ممسكان بمقبض السفينة، وكان «هوسيزون» بنفسه يمدهما بمساعدته في بعض الأحايين، وقد كان عجيبًا أن أرى ثلاثة رجال شداد يلقون بأثقال أجسادهم على ذراع الدفة وهي (وكأنها شيء حي) تصارعهم وتدفع بهم إلى الوراء.

من المحتمل أن البحر لم يكن في أشد حالاته خطرًا بعض الوقت لخلوه من العوائق، وإلى جانب هذا فقد كان السيد «رياش» فوق القمة يعلن إلينا أنه رأى أمامه مياهًا صافية.

قال «هوسيزون» «لألن»:

«لقد كنت على صواب يا سيدي فأنقذت السفينة، ولن أنسى لك ذلك عندما تأتي إلى تصفية الحساب». وأعتقد أنه كان يعني ذلك قولًا وعملًا؛ لأن «العهد» كانت تحتل من حبه مكانًا عليًّا.

ولكن هذا لم يكن إلَّا مجرد تكهنات؛ لأن الأمور جرت على عكس ما تنبأ به. وهنا قال السيد «رياش»:

«ابتعد بها قليلًا. إن الصخور فوق الريح».

وفي نفس الوقت أمسك المد بتلابيب السفينة، وطرد الريح من الأشرعة، فدارت حول نفسها كالنحلة، وفي اللحظة التالية اصطدمت بالصخرة صدمة شديدة طرحتنا جميعًا أرضًا منبسطين على ظهر السفينة، وكاد السيد «رياش» أن يهتز في مكانه على السارية.

انتصبت واقفًا على قدمي في لحظات. كانت الصخرة التي ارتطمنا بها ملاصقة للطرف الجنوبي الغربي من جزيرة «مل» التي تبعد قليلًا عن جزيرة يسمونها «إيريد»، وهي تمتد على يسار السفينة واطئة سوداء. كانت الرياح تتكسر فوقنا حينًا، وتدفع بالسفينة البائسة فوق الشعاب حينًا آخر، ولذا فقد استطعنا أن نسمع

الأمواج وهي تحطم نفسها إربًا، ثم إن الجلبة العالية التي أحدثها تصفيق الأشرعة، وصفير الرياح، والرذاذ المتطاير في ثنايا ضوء القمر، والشعور بالخطر، كل هذا جعلني أعتقد أني على وشك أن أفقد رشدي، وقليلًا ما كنت أعي ما أرى.

والآن، لاحظت أن السيد «رياش» والبحارة يعملون حول الزورق، كنت لا أزال في فراغ عقلي، فأسرعت إلى عونهم، وعندما مددت يدي لأعمل معهم عاد إليَّ رشدي، ولكني وجدت أنه ليس بالعمل الهين؛ لأن الزورق كان في وسط السفينة بالنسبة لطولها وعرضها، تقف في سبيله العوائق، ثم إن الأمواج الثقيلة التي تكسرت كانت تقطع الرجاء دائمًا ولكننا كنا جميعًا نعمل كالخيول ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا.

وفي نفس الوقت، كان الجرحى، بقدر طاقتهم على الحركة، يتعلقون ويخرجون من الباب الأمامي وبدأوا يساعدوننا، بينما بقى العاجزون منهم في أسرتهم يدمرون سمعي بصراخهم وضراعاتهم للنجاة.

وقف الربان جامدًا لا يعمل كمَن أصابه البله، ممسكًا بحبال السارية يتحدث إلى نفسه، ويزمجر عاليًا كلما دقت السفينة فوق الصخور. كانت السفينة بالنسبة إليه كزوجة وولد. لقد شاهد سوء المعاملة التي عاناها «رانسوم» المسكين فتألم، ولكن ألمه قد تزايد عندما وقعت تلك المأساة للسفينة.

لم أنس شيئًا واحدًا طوال الوقت الذي كنا نعمل فيه في الزورق، وهو أني أسأل «ألن» وأنا أنظر إلى الشاطئ عن ذلك الإقليم، فأجاب بأنه أسوأ بلاد الدنيا له؛ لأنها كانت أرض قبيلة «كامبل».

كان من بين البحارة رجل جريح نيط به مراقبة البحار، ويصيح بنا منذرًا. حسنًا، كنا على وشك أن ننتهي من العمل في الزورق لإنزاله إلى الماء حين نادى ذلكم الرجل الجريح بصوت جاف قائلًا:

«توقفوا بحق السماء». فعرفنا من نبرات صوته بأن هناك شيئًا غير عادي، وأعقب ذلك موجة عارمة قذفت بالسفينة عاليًا فقلبتها على جنبها ولست أدري، أجاءت الصيحة متأخرة، أم أن قبضة يدي كانت ضعيفة؛ لأن السفينة عندما مالت فجأة ألقت بي على أحد المتاريس، ثم إلى اليم، فغصت فيه، وامتلأ جوفي ماء، ثم طفت على سطحه، ولمحت القمر، ثم غصت مرة أخرى.

يقولون إن الشخص إذا غاص مرة ثالثة، فإنه إنما يغوص إلى الأبد. لا بد وأني أختلف عن باقي الخلق؛ لأني لا أستطيع أن أدون هنا كم مرة غصت في الماء، وكم مرة طفوت فوقه.

كانت المياه طوال الوقت تقذف بي وتلطمني وتسد حلقي، ثم امتلأ جوفي ماء، وكان كل شيء يبعث على الذهول، فلم أشعر من فرطه بالأسى أو الخوف.

الآن وجدت نفسي ممسكًا بعارضة خشبية أعانتني بعض العون، ثم فجأة وجدت نفسي في مياه هادئة، فبدأت أثوب إلى رشدي.

لم تكن العارضة التي تعلقت بها إلا عودًا احتياطيًّا من أعواد الشراع، واستولت عليَّ الدهشة عندما رأيت المسافة الطويلة التي قطعتها بعيدًا عن السفينة. حقًّا لقد ناديتها محييًا، ولكنه كان واضحًا أنها أبعد من أن يصل إليها ندائي. كانت السفينة لا تزال متماسكة، وسواء أكانوا قد أنزلوا الزورق إلى الماء أم لا، فقد كنت في مكان بعيد منخفض بحيث لا أستطيع أن أرى.

بينما كنت أنادي على السفينة أبصرت بمسلك مياه واقع بيني وبينها، خال من الأمواج العاتية، ولكن مياهه كانت مع ذلك تهدر، فتبعث في كل مكان زبدًا أبيض، بدا في ضوء القمر منفوشًا في دوائر وفقاعات. كان المسلك كله أحيانًا يتأرجح إلى جانب واحد، وكأنه ذنب حية تسعى، وأحيانًا تختفي الأمواج لحظة، ثم لا تلبث أن تعود إلى الهدير مرة أخرى.

لم أستطع أن أتكهن بشيء ما عن هذا المسلك، فضاعف ذلك من خوفي، ولكني أعرف الآن أنه كان مجثمًا للطيور، ومجرى للمد الشديد الذي جرفني بعيدًا، وقلبني بقسوة، وأخيرًا طرحني ومعي عود الشراع إلى حافة اليابسة كما لو كان التعب قد أضناه من تلك اللعبة.

إني أرقد الآن هادئًا، وبدأت أشعر أنه من الممكن أن يموت الإنسان من الزمهرير كما يموت من الغرق. كانت شواطئ «إيريد» قريبة جدًّا، حتى إني استطعت أن أرى على ضوء القمر نقاطًا من العشب، وبريق المعادن يتلألأ بين الصخور، فقلت في نفسي: «حسنًا، إذا لم أستطع الوصول إلى هذا المكان، فسيكون ذلك شيئًا عجيبًا». لم أكن ماهرًا في السباحة؛ لأن مياه «أسندن» المجاورة لنا كانت قليلة الغور، ولكني عندما أمسكت بعود الشراع بكلا ذراعي، وركلت الماء بقدمي، بدأت في الحال أرى أنني أتحرك. لقد كان العمل شاقًّا، والبطء قتَّالًا، ولكن بعد أن قضيت حوالي ساعة في ركل الماء والجهاد فيه، وصلت إلى مكان رملي بين شاطئ الخليج تحيط بي الربا المنخفضة.

كان البحر في ذلك المكان هادئًا تمامًا، خاليًا من هدير أمواج الشاطئ الصخري، ونور القمر يسطع، فخيل إليَّ أني لم أرَ في حياتي مكانًا في مثل قفره ووحشته. كانت الأرض جافة، وعندما بدأت المياه تصبح ضحلة، واستطعت أن أترك عود الشراع وأخوض الماء إلى الشاطئ على قدمي، لم أستطع أن أقرر ما إذا كنت متعبًا أو شاكرًا. كنت في كليهما على الأقل. كنت متعبًا كما لم أشعر بالتعب في يوم من أيام حياتي قبل تلك الليلة، وكنت شاكرًا كما هي عادتي دائمًا، ولكن في هذه المرة كان عندي دافع أقوى.

* * *

الفَصل الرابع عشر
الجَزيرة الصغيرة

بدأت أشد مراحل مغامراتي بؤسًا عندما وطأت قدماي أرض الشاطئ. كانت منتصف الواحدة صباحًا، ومع أن الريح قد تكسرت على الأرض، إلَّا أنها كانت ليلة باردة. لم أجرؤ على الجلوس (لأنه خُيِّل إليَّ أني سأتجمد) فخلعت حذائي، وسرت على الرمال ذهابًا وجيئة عاري القدمين، أدق على صدري بملل لا نهاية له.

لم أسمع صوت إنسان أو دابة، ولا صياح ديك رغم أنها كانت ساعة استيقاظها الأولى. لم أسمع إلَّا أمواج الشاطئ على مبعدة مني تتحطم على الصخور، مما أعاد على ذكري الأخطار التي أحدقت بي وبصديقي. إن المسير على شاطئ البحر في تلك الساعة من الصباح وفي مكان مهجور موحش كهذا قد بعث في نفسي نوعًا من الهلع.

ارتديت حذائي بعد خيوط النهار الأولى مباشرة، وصعدت تلًّا لم أعهد وعورة تسلقه، وكنت أتعثر طوال الطريق، إما صاعدًا بين كتل ضخمة من الجرانيت، وإما قافزًا من واحدة إلى أخرى، وعندما وصلت إلى القمة، كان الفجر قد بزغ. لم تكن هناك أي إشارة تدل على وجود السفينة التي لا بد وأن تكون قد رفعت من فوق الشعاب وسقطت في الماء ثم غاصت، وبالتالي لم أرَ الزورق في أي مكان، ولا شراعًا في عرض المحيط، ولم أرَ على مدى البصر فوق الأرض بيتًا ولا رجلًا.

كنت خائفًا من التفكير بما حل برفاقي، وخائفًا أيضًا من أن أطيل النظر إلى ذلك المنظر الخاوي، وبالإضافة إلى ملابسي المبتلة، وسقامي، وأوجاع جوفي من الجوع الذي يلذعني. فقد كان هناك ما آلمني. اتجهت شرقًا على الساحل الجنوبي آملًا أن أجد دارًا ألجأ إليها طلبًا للدفء، وربما حصلت على أخبار أولئك الذين فقدتهم، وكنت أحسب على أسوأ الفروض أن الشمس ستشرق بعد قليل، فتجفف ملابسي، ولكن بعد قليل علق طريقي خور أو خليج صغير، بدا وكأنه يشق الأرض عميقًا، ولما لم تكن لدي الوسائل لأعبره، فقد كان عليَّ أن أغير وجهتي لأدور حول نهايته، وكان المسير لا يزال أشد أنواعه خشونة. كانت الطرق جميعها في الواقع وعرة، لا في «إيريد» وحدها، ولكن في كل الجزء المتاخم لجزيرة «مل» (الذي يطلقون عليها اسم «روس»)، حيث لا ترى هناك إلَّا خليطًا من صخور الجرانيت يتخللها العشب. بدا الخور في نظري ضيقًا عندما رأيته لأول مرة، ولكنه الآن -يا لعجبي- قد بدأ يتسع ثانية. عند هذا عبثت أناملي بشعر رأسي، وكنت لا أزال جاهلًا للحقيقة، حتى وصلت أخيرًا إلى أرض مرتفعة، فاتضح لي فجأة أني ملقى فوق جزيرة صغيرة جدباء، معزولًا عن كل جوانب الدنيا بالبحار الملحة، وبدلًا من أن تطلع الشمس لتجففني، فقد هطل مطر يكتنفه ضباب كثيف وأصبحت يُرثى لحالي.

وقفت في المطر أرتعد وأعجب ماذا أفعل، حتى خطر ببالي أنه ربما كان من المستطاع خوض هذا الخليج، فعدت إلى أضيق مكان وبدأت أخوض، ولم أكد أبتعد عن الشاطئ بأكثر من ثلاث خطوات حتى انقلبت رأسًا على عقب، وإذا كنت قد عدت إلى الحياة بعد ذلك، فإني أعزو هذا إلى فضل الله، لا إلى فطنتي وحذري. ولم أكن أكثر بللًا، (لأن هذا من الصعوبة بمكان)، بل كنت شديد البرودة من جراء هذه البلوى، وعندما فقدت أملًا آخر أصبحت أكثر شقاء.

والآن، وفجأة، تذكرت عود الشراع. إن ذلك الذي حملني في خضم مسرى المد، لا بد وأن يكون عونًا لي على عبور ذلك الخليج الصغير الهادئ في أمان. وبهذا انطلقت غير خائف وعبرتُ قمة الجزيرة لأبحث عنه وأحمله عائدًا به. لقد كانت رحلة على الأقدام مضنية من جميع نواحيها، وإن لم يثلج الأمل صدري، فلا بد لي وأن أبتئس وأستسلم.

كنت أضيق بالظمأ، سواء أكان ذلك بسبب المياه الملحة، أم لأني كنت على وشك أن أُصاب بالحمى، وكان عليَّ أن أتوقف كلما سرت، وأشرب الماء الكدر الذي تخلل صخور الخليج. وأخيرًا وصلت إلى الخليج وأنا أقرب إلى الموت مني إلى الحياة، وأدركت لأول نظرة أن عود الشراع قد ابتعد قليلًا عما تركته. نزلت في الخليج، وللمرة الثالثة أنزل في البحر، وكانت الرمال ثابتة ناعمة تنحدر تدريجيًّا، ولذا فقد استطعت أن أخوض في المياه حتى قاربت عنقي، ورذاذ الأمواج الصغيرة ينتثر على وجهي، ولكن عندما بلغت ذلك العمق، بدأت قدماي تتخليان عني، ولم أستطع المخاطرة إلى أبعد من ذلك. أما عود الشراع؛ فقد رأيته يتأرجح بكل هدوء على مبعدة عشرين قدمًا مني.

لقد تحملت صابرًا حتى تلك اللحظة، ولكن خيبة الأمل التي صدمتني جعلتني أعود إلى الشاطئ وألقي بنفسي على الرمال أبكي.

لا يزال الوقت الذي قضيته على الجزيرة ذكرى مضنية لي كلما طافت بخاطري، وينبغي عليَّ أن أمر بها مرورًا سريعًا. عرفت في كل ما قرأت من الكتب عن أولئك الذين أبعدوا أو ألقي بهم في عرض البحار أنهم كانوا يملؤون جيوبهم بالآلات، أو يلقى معهم على الشاطئ بصندوق فيه أشياء ربما مست الحاجة إليها، ولكن حالتي كانت متباينة كل التباين، فلم يكن في جيبي سوى نقود وزر «ألن» الفضي. ولما كنت قد نشأت في أرض داخلية، فإن المعرفة كانت تنقصني كما تنقصني الوسيلة.

كنت حقيقة أعرف أن الأسماك الصدفية تعتبر صالحة للطعام، ووجدت بين صخور الجزيرة قدرًا وفيرًا من الحيوانات ذوات الأصداف التي كنت في أول الأمر أحركها نادرًا من أماكنها غير مدرك الحاجة إليها، وإلى جانب هذا فقد كانت هناك بعض الأصداف الصغيرة التي كانت تسمى باللغة الإنجليزية «قواقع البحر». من هذين الصنفين صنعت كل غذائي، فالتهمتها كما وجدتها باردة غير ناضجة، وقد بدت لي في أول الأمر شهية المذاق؛ لأن الجوع كان يعتصرني.

ربما كانت في غير موسمها، أو من المحتمل أن تكون في المياه التي تحيط بجزيرتي شيء غير عادي؛ لأني لم أكد أتناول وجبتي الأولى منها حتى تملكني

الدوار والقيء، ثم استلقيت وقتًا طويلًا وأنا لست بأفضل من ميت. كانت المحاولة الثانية من نفس الطعام (الذي لم يكن لدي سواه حقًّا) أكثر صلاحية من سابقتها فدبت الحياة في عزمي، ولكني لم أعرف ماذا أنتظره من جراء تناوله ما دمت على الجزيرة. كان هذا الطعام يطيب لي حينًا، ويُلقي بي في مرض شديد حينًا آخر، ولم أستطع أن أتبين أي نوع من الأسماك أضر بي.

كان المطر يهطل مدرارًا طوال النهار، وأرض الجزيرة هشة كالثريد لا تجد على سطحها بقعة واحدة جافة، وعندما استلقيت في تلك الليلة بين صخرتين كبيرتين مستديرتين صنعتا سقفًا من نوع ما كانت قدماي في مستنقع.

وفي اليوم التالي ذرعت الجزيرة كلها طولًا وعرضًا، فلم أعثر على مكان أفضل من الآخر. كانت صخرية مقفرة لا حياة فيها، اللهم إلَّا طيور الصيد التي كانت تعوزني الأداة لقتلها، وأعداد ضخمة من الطيور البحرية التي ترتاد الصخور البعيدة، ولكن الخليج أو المضيق الذي كان يفصل بين الجزيرة وبين أرض «روس» الرئيسة كان يتصل شمال بأحد الخلجان، وهذا بدوره يتصل بخليج «إيونا» المجاور لذلك المكان الذي اخترته لكي يكون لي موطنًا، مع أني لو فكرت في اسم مثل هذا الموطن وفي بقعة كهذه، فلا بد وأن أنفجر باكيًا.

لقد كان لديَّ من الأسباب المعقولة ما يبرر اختياري، فقد كان هناك كوخ صغير في هذا الجزء من الجزيرة يشبه حظيرة خنزير، اعتاد صيادو السمك أن يناموا فيه إذا ما أتوا للصيد، ولكن سقفه المصنوع من الحشائش كان قد سقط بأكمله في داخله فأصبح غير ذي نفع لي، وأقل إيواء لي من صخوري، وقد كان توافر الأسماك الصدفية التي عشت عليها أكثر أهمية لي؛ لأنه إذا انحسر المد استطعت أن أجمع كمية موفورة منها دفعة واحدة، وكان ذلك بلا شك ملائمًا لي، ولكن السبب الآخر كان أكثر عمقًا.

لقد اعتدت على الوحدة الموحشة في تلك الجزيرة، ولكني كنت لا أفتر على التلفت حولي في كل الجوانب (كرجل مطارد) بين الخوف والرجاء؛ عسى أن أرى إنسانًا مقبلًا. الآن، ومن ارتفاع قليل على جانب التل المطل على الخليج، استطعت أن ألمح الكنيسة العظيمة القديمة، وأسطح دور الناس في «إيونا»، ورأيت من ناحية أخرى الدخان ينبعث صباح مساء من مقاطعة «روس» المنخفضة، كما تنبعث من بيت وما يتبعه من فضاء.

اعتدت أن أرقب ذلك الدخان وأنا مبتل بارد يكاد صوابي أن يطير من الوحدة، وظللت أفكر في الموقد والرفاق حتى احترق قلبي كاللهب الذي ينبعث من أسطح «إيونا».

ومع كل هذا، فإن رؤيتي لمساكن الناس والحياة الناعمة التي يحيونها قد أضافت إلى آلامي مزيدًا، إلَّا أنها أحيت الأمل فيَّ، وساعدتني على أن أكل أسماكه الصدفية النيئة (التي أصبحت أعافها)، وأنقذتني من الشعور بالخوف من وحدتي بين موتى الصخور، والأطيار، والمطر، والمياه الباردة.

أقول إنها أبقت الأمل حيًّا، وحقًا كان يبدو أنه من المحال أن أترك لأموت على شواطئ بلادي، وعلى مرأى من برج الكنيسة، والدخان المنبعث من بيوت الخلق. انقضى اليوم التالي، وما دام نور النهار باقيًا فإني لم أفتر عن ترقب زورق على مياه الخليج، أو رجل يسير على أرض «روس»، ولكن لم تدن مني أي مساعدة. كان المطر لا يزال يهطل، فمضيت لأنام مبتلًّا كالعادة، وحلقي ملتهب جاف، ولكن في شيء من راحة النفس قد يكون مبعثُهُ تحية المساء التي حييت بها جيراني... سكان «إيونا»

كان «شارل الثاني» قد أعلن أن الإنسان يستطيع أن يبقى خارج الدار على مدار العام في مناخ إنجلترا أيامًا أكثر من تلك التي يقضيها خارج الدار في أي بلد آخر. كان ذلك قول ملك، ومن ورائه قصد، يستطيع أن يبدل ملابسه الجافة، ولكن لا بد وأن حظه في فراره من «ورسستر» كان أحسن من حظي على تلك الجزيرة البائسة. كان الصيف في ذروته، ومع ذلك، فقد ظل المطر يهطل أكثر من أربع وعشرون ساعة بلا انقطاع، ولم يعد للجو صفاؤه إلَّا بعد ظهيرة اليوم الثالث.

كان ذلك يوم الأحداث. رأيت في الصباح غزالًا أحمر اللون، ذا قرنين جميلين، واقفًا تحت المطر فوق قمة الجزيرة، ولم يكد يراني أنهض من تحت صخرتي حتى خب على الجانب الآخر. ظننت أنه لا بد وأن يكون قد عبر المضيق سباحة، رغم أن مجيء أي كائن حي إلى «إيريد» كان شيئًا فوق تصوري.

وبعد قليل، عندما كنت أقفز وراء حيوان صدفي، جفلت لمرأى قطعة من ذات الجنية تسقط أمامي على إحدى الصخور، ثم تنحرف وتغوص في الماء، وعندما رد البحارة لي نقودي لم يحتفظوا لأنفسهم بحوالي ثلث مجموع المبلغ فحسب، بل بكيس أبي الجلدي أيضًا، ولذا فقد كنت منذ ذلك اليوم أضع ذهبي سائلًا في جيب ذي زرار. وقد أدركت الآن أنه لا بد وأن يكون به ثقب، وأسرعت أدس يدي في مكان النقود، ولكني كنت كمَن يوصد باب الحظيرة بعد سرقة الجواد. لقد تركت الشاطئ عند «معبر الملكة»، ومعي ما يزيد على الخمسين جنيهًا، وأما الآن فليس معي أكثر من جنيهين ذهبيين وشلن فضي.

في الحق أني التقطت بعد ذلك بقليل جنيهًا ثالثًا ملقى على قطعة من العشب يضوي، وبذلك أصبحت الثروة ثلاثة جنيهات وأربعة شلنات عملة إنجليزية لصبي وارث شرعي لضيعة، والآن يموت جوعًا على جزيرة صغيرة عند الطرف القصي للبلاد الجبلية الإسكتلندية المقفرة.

كانت حالتي تزداد سوءًا، والمأزق الذي وقعت فيه في صبيحة اليوم الثالث يدعو إلى الرثاء حقًّا. بدأت ثيابي تبلى، وخاصة جواربي التي تمزقت تمامًا، حتى كادت ساقاي أن تبدوا عاريتين، ولانت يداي من البلل الذي لا ينقطع، وتقرح حلقي، وخارت قواي كثيرًا، وعافت نفسي تلك الحثالات المنفرة التي حُكم عليَّ بأن آكلها، حتى أصبح مجرد النظر إليها يبعث السقم في جسدي، ومع كل هذا فإن أشد الأحداث لم يأتِ بعد.

كانت هناك صخرة عالية في الشمال الغربي من «إيريد» (بما أن لها قمة مستوية تطل على الخليج)، كنت قد اعتدت التردد عليها كثيرًا؛ لأني ما كنت لأبقى في مكان واحد بعينه إلَّا ساعة نومي فقط. لم يدع بؤسي مجالًا للراحة. حقًّا لقد أبليت نفسي في السير ذهابًا وجيئة تحت المطر إلى غير غاية، ومهما يكن من شيء، فما كادت الشمس تشرق، حتى استلقيت على قمة تلك الصخرة؛ لأجفف نفسي. لقد بعثت أشعة الشمس فيَّ راحة تجل عن الوصف؛ لأنها جعلتني آمل في خلاص بدأت أيأس منه. سرحت الطرف في البحر باهتمام جديد. كان هناك في جنوب صخرتي جزء من الأرض ناتئ في الماء حجب عني المحيط المنبسط، حتى إن زورقًا يستطيع أن يقترب مني أشد الاقتراب دون أن أراه، حسنًا، وفجأة أبصرت زورقًا ذا شراع داكن اللون، وعلى ظهره رجلان من صيَّادي السمك، مسرعًا حول ذلك الركن من الجزيرة، متجهًا نحو «إيونا». صحت بهما مناديًا، ثم جثوت على ركبتي فوق الصخرة ومددت إليهما يدي ضارعًا. كانا من القرب بمقدار يستطيعان سماع ندائي. واستطعت أن أميز حتى لون شعرهما، ولم يكن هناك أدنى شك في أنهما قد رأياني؛ لأنهما صاحا باللغة الإسكتلندية، ثم انفجرا ضاحكين، ولكن الزورق لم يجنح إلى الشاطئ أبدًا، بل أسرع في طريقه إلى «إيونا» أمام عيني.

ما كنت أعتقد بأن هناك أناسًا بمثل هذه الخسة، وظللت أعدو على الشاطئ من صخرة إلى أخرى أناديهما مستعطفًا، وأصيح متوسلًا إليهما وألوح لهما حتى بعد أن أصبحا على غير مسمع مني، وعندما غابا عن ناظري تمامًا خيل إليَّ أن قلبي قد تفجر. لم أبكِ طوال أيام شقوتي إلَّا مرتين، واحدة منها عندما لم أستطع بلوغ عود الشراع، والآن ها هي ذي الثانية عندما أعار الصيادان صياحي آذانًا صماء، ولكني بكيت في هذه المرة مزمجرًا كطفل شرير، أمزق العشب بأظافري، وأمرغ وجهي في التراب. لو كان مجرد التمني يستطيع قتل الناس لما رأى هذان الصيادان نور الصباح أبدًا، وربما كنت قد مت على جزيرتي. وعندما كبحت جماح غضبي قليلًا، كان لا بد لي وأن أتناول طعامي مرة أخرى من تلك الوجبة المنفرة التي استطعت بمشقة أن أمسك عن تناولها، والواقع أنه كان من الأفضل لي أن أصوم؛ لأن أسماكه قد سممتني مرة أخرى.

عادتني آلامي الأولى حتى تقرح حلقي فلم أستطع أن أزدرد من الطعام إلَّا قليلًا، وانتابتني نوبة شديدة من القشعريرة جعلت أسناني تصطك، واعتراني ذلك الإحساس المروع بالمرض الذي ليس له اسم في اللغة الإسكتلندية أو الإنجليزية، حتى خيل إليَّ أني لا محالة ميت، وقلت في نفسي سلام الله عليَّ، وسامحت كل الناس حتى عمي والصيادين، ولم يكد يبلغ بي السوء منتهاه حتى عاد إليَّ صفوي. لاحظت أن الليل قد أرخى سدوله جافًّا، وتكاد ملابسي أن تكون كاملة الجفاف، حقًّا لقد كنت في حالة أفضل منها في أي وقت مضى منذ وطأت قدماي أرض الجزيرة، وأخيرًا استسلمت للنوم، يتردد شكري لله في جنبات عقلي.

وفي اليوم التالي (اليوم الرابع في حياتي المروعة هذه)، وجدت أن قواي البدنية قد اضمحلت كثيرًا، ولكن الشمس ألقت أشعتها على الكون والهواء الرقيق، ولاءمني كثيرًا ما كنت أعددته لطعامي من الأسماك الصدفية موات شجاعتي.

لم أكد أعود إلى صخرتي (أول مكان كنت آوي إليه دائمًا بعد تناول طعامي)، حتى لمحت زورقًا مقبلًا في الخليج، وفي فكري أن مقدمه متجه نحوي، وفجأة بدأ الأمل والخوف عندي يبلغان المدى؛ لأنه خيل إليَّ أن الرجلين قد لذعهما إحساسهما بالقسوة، وأنهما عائدان أدراجهما للأخذ بيدي، ولكن خيبة أمل كتلك التي أصابتني بالأمس كانت فوق احتمالي؛ لأني أدرت ظهري للبحر ولم ألتفت إليه مرة أخرى إلا بعد أن عددت مئات كثيرة. كان الزورق لا يزال متجهًا رأسًا ناحية الجزيرة، وفي المرة الثانية عددت حتى الألف بطيئًا قدر ما استطعت، وبعد ذلك لم يعد هناك شك في أن الزورق كان متجهًا نحو «إيريد» رأسًا.

لم أتمكن من ضبط نفسي إلى أكثر من ذلك، فعدوت قدر طاقتي إلى شاطئ البحر، ثم نزلت إليه وأنا أقفز من صخرة إلى أخرى، وإنها لمعجزة أني لم أغرق؛ إذ إني لم أكد أصل آخر الأمر إلى مكان أقف عليه حتى اهتزت ساقاي من تحتي، وجف حلقي إلى حد أني وجدت نفسي مسوقًا إلى أن أبلله بماء البحر قبل أن أتمكن من الصياح.

كان الزورق طوال هذا الوقت مقبلًا نحوي، والآن استطعت أن أتبين أنه الزورق بذاته، وأنهما رجلا الأمس بنفسيهما. وعرفت هذا من لوني شعرهما. فقد كان شعر أحدهما أصفر براقًا، وشعر الآخر أسود، أما الآن فقد كان في رفقتهما رجل ثالث يبدو أنه من طبقة أعلى. وحالما أصبحوا على مسمع مني، طووا شراعهم وتوقفوا، ولم يقتربوا قيد أنملة رغم ضراعاتي، وأشد ما بعث الفزع في نفسي أن ذلك الرجل الجديد كان يضحك ضحكة قذرة بغير مبالاة وهو يتحدث وينظر إليَّ، ثم انتصب واقفًا في الزورق وخاطبني برهة طويلة، مسرعًا في كلامه وهو يلوح لي بيده كثيرًا، فأخبرته بأنني لا أعرف اللغة الإسكتلندية، وعند هذا استشاط غضبًا، وبدأت أرتاب في أنه كان يعتقد أنه يتكلم الإنجليزية. وعندما أرهفت السمع استطعت أن ألتقط كلمة «مهما يكن»، قالها عدة مرات، أما الباقيات فكانت كلها بالإسكتلندية، وربما كانت بالنسبة لي إغريقية أو عبرية. ولكي أبين له أنني التقطت كلمة «مهما يكن»، فقد رددتها به، وهنا قال:

- «نعم، نعم، نعم». ثم نظر إلى الرجلين الآخرين كمَن يقول لهما «ألم أقل لكما إنني كنت أتكلم باللغة الإنجليزية!»، ثم عاد يتكلم كعادته كلامًا جافًا بالإسكتلندية، وفي هذه المرة التقطت كلمة أخرى هي «المد»، فلاحت لي بارقة أمل لأني تذكرت أنه كان يلوح لي دائمًا بيده ناحية الأرض الرئيسة «لرومس»، فقلت له:

«أتعني عندما ينحسر المد...؟»، ولم أستطع أن أكمل كلامي إذ إنه قال لي:

«نعم نعم. المد».

عند ذلك أوليت زورقهم ظهري (حيث بدأ الرجل الثالث يضحك مرة أخرى ضحكة قذرة فيها سخرية)، وقفلت راجعًا سالكًا نفس الطريق الذي أتيت منه، أقفز من حجر إلى آخر، وظللت أعدو عبر الجزيرة كما لم أَعْدُ من قبل، وفي غضون حوالي نصف الساعة وصلتُ إلى شواطئ الخليج الذي تقلصت مياهه، فأصبحت قطرات صغيرة، فاندفعت فيها فإذا بها لم تتجاوز ركبتي، ثم عبرتها خوضًا حتى وطأت قدماي أرض الجزيرة الرئيسة وأنا أصيح.

ما كان لصبي ترعرع في البحار ليرضى البقاء يومين على «إيريد» تلك التي كانوا يطلقون عليها اسم «جزيرة المد والجزر»، ومع ذلك إذا استثنينا قاع منخفضاتها، فإنه يمكنك الدخول إليها والخروج منها مرتين كل أربع وعشرين ساعة دون أن تبتل قدمك، أو خوضًا على أكثر تقدير. حتى أنا، يا من كانت حركة المد والجزر تجري تحت بصري داخلة في الخليج خارجة منه، وراقبت الجزر لكي أحصل على أسماكي الصدفية، حتى أنا (أقول) لو كنت قد جلست لأعمل الفكر بدلًا من أن أثور على ما صادفني من قدر، لكنت قد عرفت السر وانطلقت حرًّا. لم يكن عجيبًا أن الصيادين لم يفقها قولي، ولكن العجيب أنهما أدركا حالي الذي يدعو إلى الرثاء، فتكبدا المشاق لكي يعودا. لقد قاسيت ألم البرد والجوع على تلك الجزيرة قرابة مائة ساعة، ولولا الصيادان لمت بسبب غبائي. ومهما يكن من شيء فقد دفعت الثمن غاليًا، لا لآلامي الماضية، ولكن لما أنا فيه، فأنا أرتدي ملابس لا تختلف عن ملابس السائلين، لا أقوى على المسير إلَّا لمامًا أحس بألم مبرح في حلقومي الملتهب.

لقد رأيتُ من الناس أشرارهم وبلهاءهم، رأيت الكثير من الصنفين وأعتقد أن كليهما قد دفع الثمن في النهاية، ولكن البلهاء أولًا.

* * *

الفَصل الخامس عشر
الصبي ذو الزرار الفِضي في جزيرة «مل»

كان «روس أف مل» الذي بلغته الآن مكانًا وعرًا غير مطروق كتلك الجزيرة التي تركتها لساعتي، مليئًا بالمستنقعات والصخور الضخمة والأحجار الكبيرة، ومن المحتمل أن تكون هناك مسالك لا يعرفها إلَّا أولئك الذين يلمون بتلك البلاد إلمامًا كبيرًا، أما من ناحيتي فلم يكن لي دليل إلَّا أنفي، ولا علامة للحدود إلَّا «بن مور».

وبقدر استطاعتي، جعلت هدفي ذلك الدخان الذي كنت كثيرًا ما أراه وأنا على الجزيرة، وبكل ما تملكني من الضنى ومن وعورة الطريق، فقد وصلتُ في حوالي الساعة الخامسة أو السادسة مساءً إلى المنزل المقام في قاع أرض مجوفة. كان البيت طويلًا منخفضًا مسقوفًا بالطين، مبنيًّا بأحجار غير صلبة، جلس على رابية أمامه سيد مسن. يدخن غليونه في ضوء الشمس. وبالقشور التي يعرفها من اللغة الإنجليزية فهمت منه أن رفاقي في السفينة قد وصلوا إلى البر سالمين، وأنهم تناولوا طعامهم في الدار نفسها في اليوم التالي، فسألته:

«هل كان من بينهم رجل يرتدي ملابس السادة؟»، فقال: «إن الجميع كانوا يرتدون معاطف خشنة، ولكن أولهم على وجه التحقيق ذلك الذي أتى وحيدًا، كان يرتدي سروالًا قصيرًا وجوربًا، بينما كان الآخرون يرتدون سراويل البحارة»، فقلت:

«نعم ولا بد وأنه كان مرتديًا قبعة ذات ريش؟»، فنفى ذلك، وقال: «إنه كان عاري الرأس مثلي»، فتبادر إلى ذهني أول الأمر أن «ألن» ربما يكون قد فقد قبعته، ثم تذكرت المطر، وفطنت إلى أنه من المحتمل جدًّا أن يكون قد أبعدها عن موطن العطب فوضعها تحت معطفه. جعلني هذا ابتسم لنجاة صديقي من ناحية، ولتفكيري في زهوه بملبسه من ناحية أخرى. ضرب الرجل الفاضل المسن بيده على جبينه وصاح قائلًا بأنني ولا بد وأن أكون الصبي ذا الزرار الفضي، فقلت وبي بعض العجب:

«لماذا؟ نعم!».

فقال: «حسنًا لك عندي رسالة، وهي أنك تتبع صديقك إلى مقاطعته بجوار «توروزاي». ثم سألني كيف سلكت طريقي، فأخبرته بقصتي. إن رجل الأرض المنخفضة لا بد وأن يضحك لسماع هذا، ولكن ذلك السيد المسن (أسميه بهذا الاسم بسبب عادته؛ لأن ملابسه كانت متدلية من فوق ظهره) أصغى إلى قصتي كلها باهتمام وشفقة، وبعد أن انتهيت من تلاوتها، أخذ بيدي وقادني إلى كوخه (ولم يكن هناك أفضل منه)، ثم قدمني إلى زوجته كما لو كانت الملكة وأنا واحد من النبلاء.

وضعت السيدة أمامي خبزًا مصنوعًا من الشوفان، وطائرًا باردًا من طيور القطا، ثم ظلت تربت على كتفي وتبسم لي طوال الوقت؛ لأنها لم تكن تعرف الإنجليزية، أما السيد المسن فقد جلس يخمر لي نوعًا ساخنًا من الشراب؛ حرصًا منه على واجب الضيافة نحوي. كنت طوال الوقت الذي قضيته في تناول طعامي واحتساء ذلك الشراب الحار، لا أكاد أصدق أن السعد قد واتاني، ثم إن الدار -ولو أنها كانت معبأة بدخان كثيف من نار فحم المستنقعات، ومليئة بالثقوب كالمصفاة- فقد بدت أمامي وكأنها أحد القصور.

أسال الشراب مني عرقًا غزيرًا، وألقى بي في نوم عميق، فتركني الناس الطيبون أنام. قاربنا ظهيرة اليوم التالي قبل أن أسلك الطريق وقد أصبح حلقي أكثر راحة، وعاد إلى نفسي مزاجها تمامًا من جراء هون المسير وطيب الأخبار.

رفض السيد المسن أن يأخذ مني نقودًا رغم إلحاحي الشديد، وأعطاني قبعة صغيرة قديمة غطاء لرأسي، وبعد أن أصبحت ملكًا مباحًا لي، فإني لم أكد أبتعد عن مرمى البصر من الدار حتى غسلت هديته هذه بحرارة في نبع على جانب الطريق، وقلت في نفسي:

«لو كان هذا هو خلق سكان جبال إسكتلندا الغلاظ، فلكم وددت أن يكون قومي أشد غلظة».

لم أبدأ رحلتي متأخرًا فحسب، بل لا بد وأن أكون قد ضللت الطريق نصف الوقت تقريبًا. التقيت حقًّا بكثير من الناس يحفرون في حقول صغيرة بائسة لا تقوى على إيواء قطة، أو يقومون على رعي الأبقار الصغيرة التي تقارب الحمير في حجمها. ولما كان لباس سكان الجبال الإسكتلندية محظورًا بحكم القانون منذ قامت الثورة، وكان قد حُكم عليهم بأن يتبعوا عادة أهالي الأراضي المنخفضة التي يكرهونها أشد الكراهية، فقد كان عجيبًا أن ترى اختلاف لباسهم، فبعضهم كانوا يسيرون عراة إلَّا من عباءات أو معاطف مدلاة، يحملون سراويلهم على ظهورهم كأحمال بغير نفع، وصنع بعضهم الآخر قماشًا حاكوا فيه اللباس الصوفي ذا المربعات الملونة وقد رتقوه ببعضه البعض، فأصبح كدثار زوجة شمطاء، وغير أولئك وهؤلاء كانوا لا يزالون يرتدون الملابس الإسكتلندية، ولكنهم أحاكوا ما بين الساقين بوخزات قليلة فأحالوها إلى سراويل كتلك التي يرتديها سكان «هولندا». حُوكم كل أولئك المتحايلون على القانون وعوقبوا؛ لأن القانون كان يطبق بقسوة بغية تحطيم روح القبيلة، ولكن لم يكن في تلك الجزيرة النائية المحاطة بالبحر إلَّا القليلون ممن يقدمون ملاحظاتهم، وأقل منهم ممن يذيعون الأخبار كانوا فقراء أشد الفقر، وكان ذلك بلا شك أمرًا طبيعيًّا. الآن، قُمعت حركة السلب، ولم يعد زعماء القبائل يتركون أبواب بيوتهم مفتوحة، والطرقات (ولو أنها كانت متاهات وفي العراء كذلك الطريق الذي سلكته) قد ابتليت بالمتسولين، وهنا لاحظت للمرة الثانية شيئًا آخر يختلف عما يجري في بلادي؛ ذلك أن المتسولين عندنا في البلاد المنخفضة من لابسي الأردية الطوال، والذين يتسولون بالتراخيص كانت لهم طريقتهم في الخشونة حينًا وفي النفاق حينًا آخر، ولو أعطيتهم قطعة صغيرة من النقود ليستبدلوها، فإنهم يردون لك النصف في أدب وفير، أما أولئك المتسولون من سكان الجبال الإسكتلندية، فإنهم

يقفون وكلهم اعتداد بالنفس ويسألون الصدقات لا لشيء إلا لكي يبتاعوا «سعوطا» (على زعمهم) وتبغًا مسحوقًا ولا يعيدون لك ما تبقى. حقًّا ما كنت لأكترث بشيء من هذا، إلَّا بما كنت ألقاه عرضًا، فيبعث في نفسي السلوى، والأهم من هذا كله وهو ما يمسني مسًّا قويًّا، أن القليلين منهم كانوا ملمين ببعض الإنجليزية، وهؤلاء القلائل (إن لم يكونوا إخوة للمتسولين) فلم يكونوا في شوق شديد إلى أن يضعوا ما يعرفون من اللغة الإنجليزية في خدمتي، كنت أعرف أن «توروزاي» هي غايتي، فأعدتُ عليهم اسمها مرات وأنا أشير نحوها، ولكن بدلًا من أن يجيبوني بإشارة بسيطة فقد كانوا يصرخون في وجهي بلغة إسكتلندية أحسست معها بأني غبي، لذا لم يكن عجيبًا جدًّا أن أضل الطريق قدر ما بقيت عليه.

وأخيرًا، وفي حوالي الساعة الثامنة مساء، وكان التعب قد استبد بي، بلغت منزلًا منعزلًا، فطلبت من أهله أن يأذنوا لي بالدخول، ولكنهم أبوا، وهنا مرت بخاطري قدرة المال في مثل هذا الإقليم الفقير، فأمسكت بأحد جنيهاتي، ورفعته بين إصبعي وإبهامي، وهنا بدأ صاحب البيت فجأة يتكلم اللغة الإنجليزية قدر حاجة التفاهم بها، وكان من قبل يدَّعي بأنه لا يعرفها ويطردني من بابه بالإشارات، وأخيرًا اتفقنا على أن أدفع له خمسة شلنات مقابل إيوائي لتلك الليلة وقيادتي في اليوم التالي إلى «توروزاي».

نمت تلك الليلة قلقًا خشية أن أسرق، وكان من الممكن أن أقتصد على نفسي مشقة التفكير في السرقة لأن مضيفي لم يكن لصًّا، ولكنه كان فقط فقيرًا فقرًا مدقعًا، ومخادعًا أشد الخداع. لم يكن وحيدًا في فقره؛ إذ إنه كان علينا أن نسير في اليوم التالي خمسة أميال لكي نصل إلى منزل من أسماه رجلًا غنيًّا ليستبدل أحد جنيهاتي. من المحتمل أن يكون رجلًا ثريًّا في «مل»، ولكن قلما يعتبر هكذا في الجنوب. لقد قلب المنزل رأسًا على عقب، ودفع كل ما يمتلك، وأوتي بأحد الجيران ليشترك معه قبل أن يتمكن من جمع عشرين شلنًا من الفضة معًا، أما الشلن الباقي فقد احتفظ به لنفسه، مدعيًا بأنه لا يستطيع أن يختزن الجنيه الذهبي وحده دون رفيق، ومع كل هذا فقد كان رجلًا أنيسًا حلو الحديث، جعل كلينا يجلس مع أسرته لتناول طعام العشاء، وخمَّر لنا شرابًا في طاس جميلة من الصيني انتشي منه دليلي إلى حد جعله يرفض مواصلة المسير. ضرعت إلى الرجل الثري (وكان اسمه هيكتور ماكلين) الذي كان شاهدًا على الصفقة التي تمت بيننا وعلى دفعي للشلنات الخمسة لكي يعينني، ولكن «ماكلين» كان مخمورًا أيضًا، وأقسم بأنه ما من سيد يستطيع مبارحة مائدته بعد أن يتخمر الطاس، إذَنْ فلم يكن هناك من بد إلَّا أن أبقى وأسمع أنخاب اليعقوبيين والأغنيات الإسكتلندية حتى انتشى الجميع وترنحوا وذهبوا إلى فراشهم، يتمايلون وهم في طريقهم إلى المخزن الذي اتخذوه مكانًا يخلدون فيه إلى الراحة في ليلتهم هذه.

وفي اليوم التالي (الرابع لأسفاري) استيقظنا من النوم قبل الساعة الخامسة، ولكن دليلي النذل أسرع إلى الزجاجة، فاستنفدت من الوقت ثلاث ساعات قبل أن أجعله يخرج من المنزل، ثم (كما ستسمع) إلى إخفاق أسوأ.

لم نكد ننزل إلى وادٍ مليءٍ بالأعشاب يقع أمام منزل «ماكلين»، حتى جرى كل شيء وفق ما أشتهي، غير أن دليلي كان ينظر من فوق كتفه بلا انقطاع، ولما سألته عن السبب لاذ بالصمت، ولكنه ابتسم ابتسامة مصطنعة.

ولم نكد نعبر ظهر التل، ونبتعد عن مرأى نوافذ المنزل، حتى أخبرني أن «توروزاي» تقع إلى الأمام تمامًا، وأن قمة التل (الذي أشار إليه) لهي أفضل علامة للحدود.

فقلت له: «إني لا أعبأ بهذا إلَّا قليلًا طالما أنك تمضي معي». فقال ذلك الرجل سليط اللسان المخادع باللغة الإسكتلندية إنه لا يعرف الإنجليزية.

فقلت له: «يا رفيقي الرقيق، إني أعرف جيدًا أن اللغة الإنجليزية عندك تأتي وتذهب، فخبرني عن أي شيء يجعلها تأتيك. أتريد مزيدًا من النقود؟».

فقال: «خمسة شلنات أخرى فتأتي اللغة الإنجليزية من تلقاء نفسها». تأملت برهة، ثم عرضت عليه شلنين قبلهما شرهًا، وأصر على أن يأخذهما في يديه فورًا «جلبًا للحظ، كما ادعى، ولكني أعتقد أنهما كانا بالأحرى جلبًا لنحسي».

إن الشلنين لم يجعلاه يقطع أميالًا كثيرة كتلك التي قطعها، ثم جلس في نهاية مرحلتها على جانب الطريق، وانتزع حذاءه الغليظ من قدميه، وكأنه على وشك أن يخلد إلى الراحة. احمر وجهي في ذلك الوقت من فيض الغضب.

فقلت له: «ها! أليس عندك مزيد من اللغة الإنجليزية؟».

فقال بوقاحة: «كلا».

وعند ذلك غلى الدم في عروقي ورفعت يدي لأصفعه، إلَّا أنه استل سكينًا من أسماله، وجلس القرفصاء، وكشر عن أنيابه كقطة برية. نسيت في تلك اللحظة كل شيء إلَّا غضبي، فانقضضت عليه وأنحيت سكينه جانبًا بيدي اليسرى، ولطمت فمه بيدي اليمنى. كنت فتى قويًّا، وغاضبًا أشد الغضب، وأما هو فلم يكن إلَّا رجلًا ضئيل الجسد، فارتمى أمامي على الأرض بكل ثقله، ولحسن حظي أن سكينه طارت من يده عندما سقط.

التقطت السكين وحذاءه الغليظ كليهما، ثم تمنيت له صباحًا ناعمًا، ومضيت في طريقي تاركًا إياه عاري القدمين أعزل. ضحكت فيما بيني وبين نفسي عندما انصرفت وأنا على ثقة من أني قد انتهيت من ذلك المخاتل لأسباب مختلفة: أولًا: أنه عرف أنه لن يستطيع أن يأخذ مني مزيدًا من النقود. وثانيًا: أن هذا الحذاء الغليظ لا يساوي في تلك البلاد إلَّا بنسات قليلة. وأخيرًا: السكين لم تكن في حقيقة الأمر إلَّا خنجرًا، وكان القانون يحظر عليه حمله.

بعد مسيرة حوالي نصف الساعة، أدركت رجلًا يرتدي أسمالًا بالية، يسير مسرعًا نوعًا ما، إلَّا أنه كان يتحسس الطريق أمامه بعصا. كان كفيف البصر، وأخبرني بأنه معلم ديني، مما جعل السكينة تنزل على قلبي، وكان وجهه مقابلًا لي، فرأيته داكن اللون خطيرًا غامضًا. والآن، وعندما بدأنا نسير جنبًا إلى جنب، رأيت كعبًا

من الفولاذ لغدارة مدلاة تحت ذيل جيب سترته، وكان إحراز مثل هذا الشيء معناه غرامة قدرها خمسة عشر جنيهًا إسترلينيًّا كأول جرم، والنفي إلى المستعمرات إذا ضبط المرء بها مرة ثانية. لم أتبين السبب الذي من أجله يسير معلم ديني حاملًا سلاحًا، أو ماذا يستطيع رجل كفيف أن يفعل بغدارة. أمسك خيلائي بتلابيب عقلي فحدثته عن دليلي؛ لأني كنت فخورًا بما فعلت، إلَّا أنه جفل بصوت مرتفع عند ذكر الشلنات الخمسة مما جعلني أعتزم على ألَّا أقول له شيئًا عن الشلنين الآخرين، وكنت مغتبطًا لأنه لم يرَ احمرار وجنتي، وسألته متلعثمًا بعض الشيء:

«هل كان ذلك مبلغًا كبيرًا؟»، فصاح قائلًا:

«كبير جدًّا! لماذا! إني أقودك بنفسي إلى «توروزاي» مقابل كأس من الخمر، ويدخل في هذه الصفقة، تفضلي عليك برفقتي الممتعة (أنا الرجل الملم بالعلم بعض الإلمام)». فقلت إنني لا أرى أن رجلًا كفيفًا يمكن أن يكون دليلًا، وعند هذا ضحك عاليًا، وقال إن عصاه عينان تكفيان نسرًا، ثم أتبع في جزيرة «مل» على الأقل حيث أعرف كل حجر، وأميز شجيرات الأعشاب بلمس قممها، ثم قال وهو يضرب بعصاه يمنة ويسرة كمن يؤكد زعمه: :هناك إلى أسفل نبع تقوم عند رأسه رابية صغيرة انتصب على قمتها حجر، أما قاعدتها حيث يسير الطريق إلى «توروزاي» فصلبة، والطريق هنا واضح مطروق؛ لأن قطعان السائمة تسلكه، وهو يبدو مكسوًّا بالحشائش وسط الأعشاب».

كان عليَّ أن أقر بأنه على صواب في كل ما وصف، وأخبرته بعجبي، فقال:

«ها. هذا لا شيء. أتصدقني حين أقول إني (عندما كان حمل السلاح غير محظور) كنت أستطيع أن أصيب الهدف بها؟»، ثم صاح بلغة عقيمة: «لو كان معك هنا شيء كغدارة مثلًا لتجرب بها، فإني أريك كيف تعمل»، فقلت له إنني لا أحمل شيئًا من هذا القبيل، ثم باعدت ما بيني وبينه، ولم يكن يدري أن غدارته كانت في ذلك الوقت مدلاة وظاهرة تمامًا خارج جيبه، وأنني استطعت أن أرى ضوء الشمس يتلألأ على فولاذ مؤخرها. لحسن حظي أنه أعتقد بأنها كلها مغطاة يخفيها في الظلام.

بدأ بعد ذلك يسألني في دهاء عن المكان الذي أتيت منه، وعما إذا كنت ثريًّا، وعمَّ إذا كان في استطاعتي أن أستبدل له قطعة من ذات الشلنات الخمسة (التي أعلن أنها في تلك اللحظة موجودة في كيس)، وكان طوال الوقت يحاول أن يحاذيني، وأحاول أن أبتعد عنه. كنا في ذلك الوقت نسير على طريق مخضر تتخذه الماشية مسلكًا لها، يعبر التلال إلى «توروزاي»، وظللنا نتبادل جانبي الطريق مثلنا مثل الراقصين وهم يتمايلون في حلبة الرقص.

كان واضحًا أني كنت سيد الموقف، فارتفعت معنوياتي، وكنت مسرورًا حقًّا من لعبة الغميضاء هذه (استغماية)، ولكن غضب المعلم بدأ يزداد شيئًا فشيئًا، وأخيرًا شرع يقذف سبابًا باللغة الإسكتلندية، ويتحسس بعصاه بحثًا عن ساقي، ثم أكدت له أني أحمل غدارة في جيبي كما يحمل، وأنه إن لم يسر عابرًا التل نحو الجنوب، فسأطيح برأسه.

أصبح في الحال رجلًا مهذبًا جدًّا، وبعد أن حاول جاهدًا أن يهدئ من ثورتي على غير جدوى، فقد لعنني بالإسكتلندية مرة أخرى، ثم ابتعد عني. ورأيته يسرع الخطى بين المستنقعات والحشائش البرية، يدق بعصاه حتى اختفى في التجويف التالي.

استأنفتُ مسيري إلى «توروزاي»، وأنا أشد سرورًا بوحدتي من رفقة ذلك الرجل العالم. كان ذلك اليوم يوم نحس، وكان هذان الاثنان اللذان تخلصت منهما واحدًا بعد الآخر أسوأ رجلين التقيت بهما من أهالي الجبال الإسكتلندية.

عند «توروزاي» على مضيق «مل» المطل على أرض «مورفن» الأصلية، وجدت حانًا يمتلكه رجل من قبيلة «ماكلين»، وهي على ما يبدو لي أسرة عريقة جدًّا؛ لأن امتلاك حان كان يُعتبر أمرًا رفيعًا بين سكان الجبال الإسكتلندية أكثر مما يُعتبر عندنا، وربما كان ذلك في نظرهم مساهمة في كرم الضيافة، أو ربما لأن التجارة كانت كاسدة تترنح. كان يتكلم اللغة الإنجليزية بطلاقة، ولما رأى فيَّ شيئًا يصلح لأن يكون طالب علم، فقد حاول أن يتحدث إليَّ أولًا باللغة الفرنسية حيث تفوق عليَّ بسهولة، ثم باللاتينية ولست أدري أينا كان أكثر إجادة.

وفجأة جعلتنا هذه المناظرة المبهجة صديقين، فجلست وتناولت معه خمرًا (أو بالأحرى جلست أرقبه وهو يحتسيها)، وظل يعبها حتى ترنح، ثم بكى على كتفي.

حاولت أن أستدرجه (كما لو كان الأمر مصادفة) إلى أن يرى زرار «ألن»، ولكنه بدا لي أنه لم يره من قبل أو سمع به، حقًّا لقد كان يحمل شيئًا من الحفيظة على أسرة «آردشيل» وأصدقائه، وقبل أن يثمل قرأ لي هجاء باللغة اللاتينية الفصحى، إلَّا أن معناه كان رديئًا جدًّا، نظمه مرثية لشخص من ذلك البيت.

وعندما حدثته عن دليلي معلمي الديني، هز رأسه وقال لي بأني كنت سعيد الحظ لخلاصي من براثنه، ثم قال: «إنه رجل شديد الخطر، اسمه «دنكان ما كاي»، يستطيع أن يصيب الهدف بالسمع على مبعدة عدة خطوات، ولطالما اتُهم بأنه من اللصوص قاطعي الطرق وقد أدين مرة بالقتل»، فقلت:

«وخلاصة القول إنه ادعى بأنه معلم ديني»، فقال:

«ولماذا لا يكون معلمًا إذا كان هذا هو حاله. إن «ماكلين أوف ديوارت» هو الذي جعل منه معلمًا دينيًّا؛ لأنه أعمى»، ثم استطرد مضيفي قائلًا: «وربما كان شيئًا يدعو إلى الحسرة أنه كان دائمًا على الطريق ينتقل من مكان إلى آخر يسمع الصغار وهم يرتلون القواعد الدينية، ومما لا ريب فيه أن في هذا إغراء شديدًا للرجل المسكين».

وأخيرًا عندما لم يستطع صاحب الحان أن يشرب المزيد، فقد قادني إلى فراش فاستلقيت عليه بنفس مطمئنة؛ لأني بقليل من الجهد قطعت الجزء الأعظم من جزيرة «مل» الكبيرة الملتوية، أي من «إيريد» إلى «توروزاي» وهو ما يبلغ خمسين ميلًا (ومع متاهاتي وكانت تقرب إلى المائة) كما يطير الغراب في أربعة أيام. أؤكد لك أن قلبي وجسدي كانا عند نهاية تلك الرحلة الطويلة في حالة صحية أفضل مما كانا عليه عند بدئها.

* * *

الفصل السادس عشر
الصبي ذو الزرار الفِضي عبر مورفن

كانت الزوارق تقوم بخدمة منتظمة بين «توروزاي» و«كينلو شالين» الواقعة على الأرض الرئيسة، وكان كل أولئك الذين يقيمون على شاطئ الخليج قبيلة «ماكلين» القوية، وكانت الغالبية المطلقة من أولئك الذين عبروا الخليج معي من هذه الجماعة أيضًا، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كان ربان الزورق يُدعى «نيل روي ماكروب»، ولما كان «ماكروب» أحد أسماء أسرة «ألن»، وكان «ألن» نفسه قد بعث بي إلى ذلك المعبر، لذا فقد كنت مشوقًا إلى أن أتحدث إلى «نيل روي» حديثًا خاصًّا. كان من المحال طبعًا أن يتم هذا الحديث في الزورق المزدحم، وكنا نجتاز المعبر ببطء شديد؛ لأن الريح كانت ساكنة. ولما كان الزورق مجهزًا تجهيزًا حقيرًا، فقد كنا نجذف بمجذافين في ناحية، وبمجذاف واحد في الناحية الأخرى، ومع هذا فقد كان الرجال يعملون بعزيمة صادقة، يعاونهم المسافرون بالتناوب، والجميع يقطعون الوقت في أغاني أهازيج الزوارق باللغة الإسكتلندية. وهذه الأغنيات، ومعها مياه البحر، وطبيعة المسافرين والملاحين بروحهم العالية، وصفاء الجو، كل هذا جعل المعبر متعةً للناظرين.

ولكن، كانت هناك ناحية باعثة على الأسى؛ ذلك أننا رأينا في مدخل «بحيرة ألاين» عابرة بحار كبيرة في مرساها، خلتها في أول الأمر واحدة من سفن الملك الطوافة، التي كانت تُرابط على الشاطئ صيفًا وشتاء؛ لكي تقطع على فرنسا الرسائل الصادرة منها والواردة إليها، وعندما قاربناها، اتضح لي أنها سفينة تجارية، ولم يكن سطحها هو الذي جعلني في حيرة فحسب، بل كان السواد يكلل شاطئ البحر كليهما لكثرة ما عليهما من أناس، والزوارق لا تكف عن الغدو والرواح بينهما. وعندما اقتربنا من الشاطئ، ترامى إلى أسماعنا أصوات حزينة صادرة ممن كانوا على ظهر السفينة وممن كانوا على الشاطئ. كانوا يصرخون ويبكون بعضهم للبعض بكاء يكاد يقطع نياط القلوب، وهنا عرفت أنها كانت سفينة للمهاجرين قاصدة إلى المستعمرات الأمريكية، وعندما حاذيناها بزورقنا، اتكأ أولئك المبعدون على المتاريس يبكون، ويمدون أيديهم إلى رفاقي المسافرين، وكان من بينهم بعض خاصة أصدقائهم. لست أدري حتى متى استمر ذلك؛ لأنه كان واضحًا أنهم لا يحسبون للزمن أي حساب، ولكن ربان السفينة الذي كاد أن يُجن أثناء هذا البكاء والاضطراب (ولا عجب في ذلك) قد أتى أخيرًا إلى جانبنا، ورجانا أن نسير فاستجاب «نيل» لرجائه وأبحر، وبدأ المغني الأول في زورقنا يبعث غناء في نغم حزين، ردده المهاجرون وأصدقاؤهم على الشاطئ حتى عَمَّ كل الجنبات وكأنه نواح على الموتى. رأيت الدموع تنهمر على وجنات النساء والرجال حتى عندما كانوا ينحنون على المجاذيف، وقد كان لتلك الظروف وموسيقى الأغنية (المسماة وداعًا يا بحيرة آبير) أبلغ الأثر حتى على نفسي.

وعندما بلغنا «كينلو شالاين»، انتحيت «بنيل روي» جانبًا على الشاطئ، وقلت له إنني واثق من أنه أحد أتباع «آبن».

فقال: «ولِمَ لا؟».

فقلت: «إنني أبحث عن شخص ما، ويراود ظني أنك تعرف أنباء عنه، اسمه «ألن بريك ستيوارت»، وبكل غباء دسست شلنًا في يده بدلًا من أن أُريه الزرار، وعند ذلك تراجع الرجل إلى الوراء.

وقال: «لقد لحقت بي مهانة شديدة، وليس لرجل مهذب أن يتبع هذا السلوك مع الآخرين أبدًا. إن الرجل الذي تسأل عنه موجود في فرنسا، ولكن لو كان في جيبي، وكنت محملًا بالمال، ما مسست شعرة واحدة من جسده بأذى».

رأيت أني سلكت سبيلًا خاطئًا فيما فعلت، ودون أن أضيع الوقت في التماس المعاذير، فقد أريته الزرار في فراغ راحة يدي.

فقال نيل: «لحظة، لحظة. أظن أنك لم تأتِ البيت من بابه، ولو كنت الصبي ذا الزرار الفضي فإن كل شيء سيكون وفق ما تشتهي، وقد أمرت بأن أتدبر أمر نجاتك، ولكن لو أذنت لي بأن أتكلم بوضوح فإن هناك اسمًا لا ينبغي أن يجري على شفتيك ألا وهو اسم «ألن بريك»، وهناك شيء لا يجدر بك أن تفعله أبدًا، وهو ألّا تُقدِّم نقودًا إلى سيد من سكان الجبال الإسكتلندية».

لم يكن من اليسير أن أقدم له عذري عما بدر مني؛ لأني لم أستطع أن أقول له (ما كان صدقًا) بأني ما كنت أحلم بأنه رجل فاضل حتى أنبأني بذلك. كان «نيل» من ناحيته غير راغب في أن يطيل الجدل معي، ولكنه كان يريد فقط أن ينفذ الأوامر الصادرة إليه، وينتهي من القيام بها على الوجه الكامل.

أسرع الرجل في أن يدلني على خط المسير، وقال لي بأن أقضي ليلتي في «كينلو شلاين» في الحانة العامة لأعبر «مورفن» إلى «آردجور» في اليوم التالي حيث أبيت في منزل أحد أفراد قبيلة «كلايمور»، وقد سبق له أن أنبئ باحتمال مجيئي، وأعبر في اليوم الثالث خليجًا واحدًا عند «كوران» وآخر عند «بالاشوليش»، ثم أسأل عن الطريق إلى منزل «جيمس الوديان الصغيرة» عند «أوشارن» في «دورور» التابعة «لآبن».

هناك أماكن كثيرة كان عليَّ أن أجتازها -كما ستسمع- فالبحر في هذا الجزء كله يجري بين الجبال عميقًا، ويلتف بجذورها مما يجعل الإنسان لا يقوى على البقاء فيه، ويكون من العسير عليه أن ينتقل بين أرجائه؛ لأنه مليء بالمرئيات المقفرة.

أسدى إليَّ «نيل» نصيحة اخرى وهي ألَّا أتحدث مع أحد في الطريق، وأن أتجنب أنصار الملك، وآل «كامبل» والجنود الحمر، وأن أتنحى عن الطريق وأختبئ بين الغصون لو أبصرت بواحد من هؤلاء الجنود، ثم قال: «لأنه لن يكون من حسن طالعك أن تلتقي بواحد منهم»، وقصارى القول، كان عليَّ أن أعتبر نفسي كلص أو كواحد من عملاء اليعقوبيين، كما ظنني في أول الأمر.

كان الحان عند «كينلو شالين» أشد الأماكن حقارةَ وبؤسًا لا يصلح إلا لإيواء الخنازير، مليئًا بالدخان والهوام وسكان الجبال الصامتين. لم أكن غير راض عن مأوايَ فحسب، بل عن نفسي أيضًا لأني أسأت معاملة «نيل» في بادئ الأمر، وخُيِّل إليَّ أنه من العسير أن أكون في مكان أشد سوءًا؛ لأني -كما سأرى عما قليل- لم أقضِ في الفندق إلَّا أقل من نصف ساعة (واقفًا بالباب أكثر الوقت لأربح عيني من دخان الفحم) حتى اقتربت منا عاصفة رعدية، وتحطمت الينابيع في الرابية الصغيرة التي قام عليها الحان، وأصبح أحد طرفي المبنى في مياه جارية. في تلك الأيام كانت أماكن اللهو العامة حقيرة في جميع أنحاء إسكتلندا، وكان عجيبًا على نفسي أن أراني مسوقًا إلى الانتقال من جوار النار إلى الفراش الذي نمت فيه خائضًا بحذائي.

وفي صبيحة اليوم التالي لرحلتي، أدركت رجلًا بدينًا وقورًا يمشي على مهل، وأصابع قدميه مرتفعة إلى أعلى، يقرأ في كتاب صغير حينًا ويضع علامة للمكان بإصبعه حينًا آخر، يرتدي في وقار وبساطة ملابس تشبه الملابس الكهنوتية إلى حد ما. وجدت هذا الرجل معلمًا دينيًّا آخر، ولكنه من طراز يختلف عن طراز ذلك الكفيف الذي لقيته في «مل»؛ إذ إنه كان في الحقيقة واحدًا من المبعوثين الذين أرسلتهم «جمعية أدنبرة لنشر العلوم المسيحية» وليبشروا الناس الذين يعيشون في أشد الأماكن تخلفًا في الجبال الإسكتلندية. كان اسمه «هندرلاند»، يتكلم لغة الإقليم المنخفض التي بدأ يأخذني الحنين إلى سماعها، وإلى جانب أننا من وطن مشترك، فإنه سرعان ما وحَّد بيننا رباط خاص من الميول؛ ذلك أن صديقي الطيب قسيس «أسندن» كان قد ترجم في وقت فراغه إلى اللغة الإسكتلندية عديدًا من التسابيح والكتب الدينية، وقد استخدمها «هندرلاند» في عمله، وكان يُقدِّرُها أبلغ تقدير. حقًّا، تلك إحدى الأشياء التي كان يحملها ويقرؤها عندما تلاقينا.

سرعان ما تآلفنا وأصبحنا رفيقَي طريق، فمسالكنا واحدة حتى بحيرة «كنج إير». وعندما سرنا، كان يتوقف ليتحدث مع كل عابري الطريق والعمال الذين قابلناهم أو مررنا بهم، ومع أني بالطبع لا أستطيع أن أقول فيما كانوا يتحدثون، إلَّا أني قضيت بأن السيد «هندرلاند» لا بد وأنه كان محبوبًا في ذلك الإقليم؛ لأني لاحظت أن الكثيرين منهم كانوا يخرجون علب التبغ الناعم (السعوط) من جيوبهم ويشاركون الرجل في استعمال شيء منها (تنشيقة).

تحدثت إليه عن شؤوني في حدود ما اعتقدت أنه معقول، أي أن اسم «ألن» لم يجر على لساني، وقلت له إنني أقصد إلى «بالاشوليش» لأقابل صديقًا؛ لأني فكرت في أن «أوشارن» أو حتى «دورور» قد تكونان مكانين خاصين، ومن المحتمل أن يلحظ شيئًا.

أما من ناحيته، فقد تحدث إليَّ كثيرًا عن عمله، وعن أولئك الذين كان يعمل بينهم، وعن القساوسة المختفين، واليعقوبيين، وقانون نزع السلاح، والملابس، وعن أشياء أخرى عجيبة خاصة بالزمان والمكان. لقد كان معتدلًا في تفكيره، يُلقي باللائمة على البرلمان في بعض النقاط، خاصة وأن أعضاءه قد سنوا قوانين لمعاقبة مَن يرتدون الملابس الإسكتلندية أشد صرامة من تلك التي وضعوها لمعاقبة من

يحملون السلاح. وقد دعاني تفكيره المعتدل إلى أن أقرر أن أسأله عن الثعلب الأحمر وأتباع (آبن) أسئلة -على ما أعتقد- تبدو طبيعية على لسان مسافر إلى ذلك الإقليم، فقال: «إنه لعمل شائن، وإنه لعجيب أن يدبر الأتباع المال وهم على وشك أن يموتوا جوعًا. (ألا تحمل شيئًا كالتبغ المسحوق (نشوق) أتحمل يا سيد «بلفور»؟ كلا؟ حسنًا، إني أكون أطيب حالًا من دونه) ولكن هؤلاء الأتباع (كما كنت أقول، مكرهون على ذلك؛ لأن «جيمس ستيوارت» في «دورور» الذي يسمونه «جيمس الوديان الصغيرة» أخ غير شقيق «لآردشيل» رئيس القبيلة، وهو رجل مرموق أعلى الجميع مرتبة، يعاملهم بقسوة شديدة. ثم هناك شخص يسمونه «ألن بريك»...»، فصحت قائلًا:

«آه، وماذا عنه؟»، فقال «هندرلاند»:

«ماذا عن الريح التي تهب حيث تميل؟ إنه هنا وهناك، تجده هنا اليوم، ولا تجده في الغد، إنه كقطة برية لطيفة. قد يكون الآن محملقًا في كلينا من بين غصون شجرة شائكة، ولا أعجب لذلك! ألا تحمل شيئًا كالتبغ المسحوق «النشوق»، أتحمل؟».

أجبته سلبًا، وقلت إنه سألني عن هذا الشيء نفسه أكثر من مرة، فبعث بزفرة عالية، وقال:

- «هذا شيء محتمل جدًّا، ولكنه يبدو عجيبًا أشد العجب أنك لا تحمله. وعلى كل حال -كما كنت أقول- فإن «ألن بريك» هذا رجل مقدام، وعميل شديد الاندفاع، وقد عرف عنه أنه ساعِد «جيمس» الأيمن، أحل دمه، لا يتردد في عمل أي شيء، ومن المحتمل أنه إذا رأى جسد أحد الأتباع مدلى من جبال المشنقة، فإنه لا يتوانى في أن يطعنه بخنجر في جوفه».

فقلت:

«إنك تقص عنهما أسوأ القصص يا سيد «هندرلاند»، ولو كان أمرهما كله رعبًا هكذا، فإني توٌّاق إلى أن أسمع عنهما مزيدًا»، فقال «هندرلاند»:

«كلا، فهناك إلى جانب هذا حب إنساني، وإنكار للذات يجعل مثلك ومثلي يخجل، وهناك أيضًا ناحية نبيلة لا من الوجهة الدينية فقط، بل من الناحية الإنسانية أيضًا. و «ألن بريك» بكل ما أسمع، طفل يرقى إلى مرتبة الاحترام. قد يكون هناك رجل داهية، شديد الكذب والرياء. يعيش في الكنيسة في منطقتنا هذه من الإقليم، وينظر إليه العالم نظرة إكبار، ولكن من المحتمل أن يكون يا سيد «بلفور» أشد سوءًا من ذلك الرجل الذي أخطأت تقديره، فخلته سفاكًا لدماء البشر. نعم، نعم. قد تأخذ من هذا كله عبرة»، ثم أضاف باسمًا: «قد يتبادر إلى ذهنك أنني أمضيت وقتًا طويلًا مع سكان الجبال هؤلاء؟»، فأجبته بالنفي القاطع؛ لأنني رأيت الكثير مما يدعو إلى الإعجاب بهؤلاء القوم، وما دام الأمر كذلك، فإن السيد «كامبل» نفسه كان واحدًا من سكان الجبال.

فقال: «نعم، هذا صحيح، إنه من دم كريم».

فسألته: «وماذا عن عميل الملك؟»، فقال: «هندرلاند»:

«كولين كامبل؟ إنه واضع يده في خلية النحل»(1).

(1) إنه في خطر.

-فقلت: «هل يطرد المستأجرين غصبًا؟ لقد سمعت بذلك».

قال: «نعم، ولكن «الأمر يتقدم ويتأخر» كما يقول المثل السائر. أولًا ركب «جيمس الوديان الصغيرة» إلى «أدنبرة» وأتى بأحد المحامين (وهو بلا شك من آل «ستيوارت» فهم يدورون معًا كالخفافيش في منارة الكنيسة) ووضع الإجراءات، ثم عاد «كولين كامبل» وكان المجلى أمام بارونات الخزانة، وها هم أولاء يقولون لي الآن إن الفوج الأول من المستأجرين سيطرد غدًا، وسيبدأ ذلك عند «ديورور» تحت نوافذ «جيمس» نفسها، وهذا لا يبدو من الكياسة في شيء من وجهة نظري المتواضعة».

فسألته: «أتظن أنهم سوف يقاتلون؟»، فقال «هندرلاند»:

«حسنًا، إنهم مسلوبو السلاح، أو المفروض أنهم كذلك، ولكن لا تزال هناك كمية وافرة من الأسلحة مخبأة في الأماكن الهادئة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن «كولين كامبل» سيأتيه مدد من الجنود، ومع كل هذا فإني لو كنت زوجته لما ابتهجت حتى يعود إلى الدار مرة أخرى. إن آل «ستيوارت» من «آبن» عملاء فيهم غرابة»، فسألته إذا كانوا أشد سوءًا من جيرانهم؟

قال: «كلا، وهذا أسوأ ما في الأمر؛ لأن «كولين روي» لو استطاع أن ينتهي من مهمته في «آبن»، فإن عليه أن يبدأ ثانية في الإقليم المجاور الذي يسمونه «مامور» وهو أحد أقاليم «الكاميرون». إنه عميل الملك في كليهما، وعليه أن يطرد المستأجرين منهما، وحقًّا يا سيد «بلفور» (لكي أكون صريحًا معك) إني أعتقد أنه لو أفلت من الموت في المنطقة الأولى، فإنه سيلقي حتفه في الثانية».

وعلى هذا المنوال استمر بنا الحديث والمسير اليوم إلَّا أقله، وأخيرًا بعد أن أبدى غبطته من رفقتي، ورضاه عن التقائه بصديق من آل «كامبل»، اقترح عليَّ أن أقوم برحلة قصيرة، وأقضي الليلة في منزله الذي يبعد قليلًا عن بحيرة «كنج إير». أصدقك القول أني طربت لهذا؛ لأني لم أكن شديد الرغبة في لقاء «جون أوف كلايمور»؛ ومنذ أن انتابتني الكارثتان -إحداهما مع الدليل والثانية مع السيد الربان-رادوني بعض الخوف من أي ساكن للجبال غريب. وعلى هذا تعاهدنا على الاتفاق متصافحين، ووصلنا قبل أمسية ذلك اليوم إلى منزل صغير بجوار شاطئ «خليج لينه»، وكانت الشمس قد غربت لساعتها عن جبال «آردجور» الصحراوية في الناحية القريبة، ولكنها كانت لا تزال تضيء جبال «آبن» في الناحية البعيدة. كانت مياه الخليج هادئة، وكأنها بحيرة إلَّا من أصوات الطيور المائية وهي تصيح على جنباته، وبدأ المكان في جملته موحشًا رهيبًا.

لم نكد نصل إلى باب مسكن السيد (هندرلاند) حتى عجبت أشد العجب (لأني قد اعتدت الآن على أدب سكان الجبال) عندما رأيته يندفع بجواري في عنف، ويدلف إلى الحجرة، ويمسك بجرة وملعقة صغيرة مصنوعة من قرن الحيوان، وبدأ يعب

بها التبغ المسحوق (النشوق)، ويلقي به في أنفه بكميات فائقة، ثم استولت عليه نوبة من العطس خرجت من أعماق قلبه، ثم استدار بعينيه نحوي، يبتسم ابتسامة بلهاء، ثم قال:

«إنه وثاق قد أخذته، لقد عاهدت نفسي على ألَّا أحمله، لا شك أن في هذا حرمانًا شديدًا، ولكني عندما أفكر في الشهداء لا فيما يتعلق بالمذهب الإسكتلندي فحسب، بل وفي بعض الشؤون الأخرى التي تتعلق بالمسيحية أيضًا؛ فإني أخجل من التفكير فيه»(2).

(2) النشوق.

ولم نكد ننتهي من تناول طعامنا (وكان ثريدًا ولبنًا، وهما الطعام المفضل عند الرجل)، حتى قطب جبينه وقال إن عليه واجبًا نحو السيد كامبل ينبغي أن ينجزه. وهو أن يبحث في آرائي ومعتقداتي من ناحية الله.

كنت راغبًا في أن أبتسم سخرية منه منذ أن رأيت لهفته على التبغ المسحوق (النشوق)، إلَّا أن صمته قد طال قبل أن يدر من عيني الدموع، كان هناك شيئان لا يملهما الرجل أبدًا: الطيبة والتواضع، هاتان الخلتان اللتان لا يتحلى بهما في هذه الدنيا الخشنة كثير ممن يغلب على طبيعتهم الجمود والكبرياء، ولكن السيد (هندرلاند) كان يتحلى بهما.

ومع أني كنت شديد الخيلاء بلقيا مخاطري واجتيازها بأمان، إلَّا أنه جعلني أجثو على ركبتي بجواره، ذلك الرجل البسيط الفقير المسن، وكنت فخورًا ومبتهجًا بوجودي معه.

قدَّم لي قبل أن نذهب إلى الفراش ستة بنسات لتعينني على أمري في الطريق، أخرجها من خزانة صغيرة كان يحتفظ بها في الحائط المصنوع من الطين، وبهذا بلغ من الطيبة حدًّا فائقًا جعلني لا أدري ماذا أفعل، ولكنه أخيرًا كان جادًّا كل الجد، حتى خُيِّل إليَّ أنه من آداب السلوك ألَّا أرفض له مشيئة، وبهذا تركته أشد فقرًا مني.

* * *

الفصل السَّابع عشر
موت الثعلب الأحمَر

هيأ لي «هندرلاند» في اليوم التالي رجلًا من مريديه يمتلك زورقًا كان سيعبر به خليج «لينه» فيما بعد ظهر ذلك اليوم إلى «آبن» لصيد السمك، وحثه على أن يصطحبني معه، وبهذا اقتصدت على نفسي مسيرة يوم بطوله، وأجر عبور مضيقين عامين كان حتمًا عليَّ أن أعبرهما.

كنا قد قاربنا الظهيرة قبل أن نبحر، وكان يومًا قاتمًا غائمًا، والشمس تلقي أشعتها على رقاع قليلة من الأرض، والبحر في ذلك المكان شديد العمق ساكنًا، يندر أن تجري على سطحه موجة، ولذا كان لزامًا عليَّ أن أتذوق المياه بين شفتي قبل أن أوقن بأنها حقيقة ملحة، كانت الجبال على كلا جانبيه مرتفعة وعرة جدباء، شديدة السواد كئيبة في ظل السحب، ولكن قنوات مياه صغيرة كانت تطوقها جميعًا، بدت كعقود من فضة عندما ألقت الشمس أشعتها عليها.

كان إقليم «آبن» هذا يبدو جافًّا لا يكلف الناس به قدر ما كان «ألن» يأبه له. هناك شيء واحد لا يفوتني أن أشير إليه، ذلك أننا بعد أن أقلعنا بقليل، أضاءت الشمس على قطعة صغيرة قرمزية اللون تتحرك بحذاء الشاطئ متجهة نحو الشمال. كان لونها يشبه إلى حد كبير احمرار سترات الجنود، وكنت أرى بين الفينة والفينة شررًا صغيرًا ووميضًا يسطعان وكأن الشمس تُلقي أشعتها على صلب مصقول.

سألت صاحب الزورق عن هذا، فقال لي بأنه يعتقد أنهم بعض الجنود الحمر آتون من «حصن وليم» إلى «آبن» ليُكرهوا المستأجرين المساكين في ذلك الإقليم على دفع الإيجار. حسنًا، لقد كان منظرًا بعث الأسى في نفسي، وسواء أكان ذلك من جراء تفكيري في «ألن»، أم من أجل سوء أتوقعه في قرارة نفسي، مع أن هذه لم تكن إلَّا المرة الثانية التي أرى فيها جنود الملك «جورج»، فقد كنت لا أحمل لهم في نفسي سلامًا.

وأخيرًا اقتربنا جدًّا من نقطة اليابسة عند مدخل خليج «لفن» فرجوته أن يرسو بي على الشاطئ، كان من بواعث السرور لصاحب الزورق (الذي كان رجلًا أمينًا ذاكرًا بوعده للمعلم) أن يبحر بي حتى أصل إلى «بالاشوليش»، ولكنه لو فعل ذلك، فإنه إنما يأخذني بعيدًا عن غايتي التي أخفيتها، وإزاء إصداري أنزلني أخيرًا أسفل غابة «ليترمور»، (أو ليترفور لأني سمعتهم ينطقونها بهذا أو بذاك) في «آبن» موطن «ألن».

كانت الغابة من أشجار القان، نامية على جانب صخري شديد الانحدار لجبل يطل على الخليج، لها فتحات كثيرة ومداخل بين الأشجار، وطريق أو بالأحرى درب لراكبي الخيل والمشاة، يجري وسطها من الشمال إلى الجنوب. وجدت بجوار

حافتها نبع ماء فجلست لآكل شيئًا من خبز الشوفان الذي زودني به السيد «هندرلاند» وأتدبر أمري.

هنا، لم أضق بأسراب الهوام اللاذعة قدر ضيقي بالظنون التي ساورت ظني. ماذا ينبغي عليَّ أن أفعل؟ ولماذا أربط عجلتي بشخص طريد العدالة وربما كان قاتلًا مثل «ألن»؟ ولماذا أفعل كما يفعل العقلاء وأعود أدراجي رأسًا إلى الإقليم المنخفض، لا يقودني إلَّا قدماي، ولا يرعاني إلَّا إشراف نفسي؟ وماذا يظن بي السيد «كامبل» أو حتى السيد «هندرلاند» إذا علما بحماقتي واندفاعي؟ تلك هي الأفكار التي استبدت بي في ذلك الحين أكثر من أي وقت مضى. وبينما كنت جالسًا على هذا الحال (تعبث بفكري الظنون) ترامى إلى سمعي صوت رجال وجياد في الغابة، وبعد ذلك مباشرة، أبصرت أربعة مسافرين عند منحنى الطريق يسيرون على مرأى مني. بلغ الطريق في ذلك الجزء من الوعورة والضيق حدًّا جعلهم يقبلون فرادى يقودون جيادهم بأعنتها. كان أولهم سيدًا ضخمًا ذا رأس حمراء، ووجه آمر تكسوه حمرة، يحمل قبعته في يده ويروِّح بها على وجهه لجلب الهواء؛ لأنه كان يشعر بحرارة شديدة. والثاني بلباسه الأسود الوقور، وشعره المستعار الأبيض، جعلني أوقن بأنه محام. كان الثالث خادمًا يرتدي ملابس بعضها من الصوف المنقوش بمختلف الألوان، مما دل على أن سيده من إحدى أسر الجبال الإسكتلندية، وأنه إما أن يكون طريد العدالة وإما ذا سمعة طيبة لدى الحاكمين مذ كان ارتداء الصوف المنقوش بالألوان محظورًا بحكم القانون. لو كانت لي دراية بمثل هذه الأمور لعرفت أنه لا بد وأن يكون هذا القماش في لون الصلصال (أو أنه شعار كامبل).

كان مع هذا الخادم حقيبة جلدية كبيرة الحجم موثوقة إلى جواده، وأخرى من الشباك معبأة بالليمون (لتخمير الشراب) ومدلاة في قربوس السرج، كما هي العادة التي غالبًا ما يتخذها المسافرون المترفون في ذلك الجزء من الإقليم. أما رابعهم الذي جاء في المؤخرة، فقد سبق لي أن رأيت شبيهًا له، وعرفت لأول وهلة أنه لا بد وأن يكون ضابط شرطة.

لم أكد أرى هؤلاء الناس مقبلين، حتى قررت (لغير ما سبب أستطيع أن أورده) أن أستمر في مخاطرتي، وعندما حاذاني أولهم نهضت من بين الأعشاب وسألته عن الطريق إلى «أوشارن».

توقف الرجل ونظر إليَّ -كما خيل لي- نظرة فيها شيء من الدهشة، ثم استدار ناحية المحامي وقال:

«يا «منجو»، هناك كثير من الناس يعتقدون أن هذا نذير بالخطر، فهأنذا هنا في طريقي إلى «دورور» من أجل المهمة التي تعرفها، وهاك صبي صغير ينهض من بين الأعشاب ويسألني عمَّ إذا كنت أسلك الطريق إلى أوشارن»، فقال الآخر:

«يا «جلينور» إن ذلك الأمر لا يصلح للمزاح».

مر بي هذان الاثنان ملاصقين لي يحملقان فيَّ، بينما جاء التابعان في المؤخرة يعرجان وعلى مبعدة رمية حجر من سابقيهما، قال لي «كولين روي أوف جلينور» الذي كانوا يطلقون عليه اسم «الثعلب الأحمر» وهو مَن كنت قد أوقفته لأسأله:

«وعمَّ تبحث في «أوشارن»؟».

فقلت: «أبحث عن الرجل الذي يعيش هناك».

فقال «جلينور» وهو يتأملني: «أتعني «جيمس الوديان الصغيرة؟»، ثم إلى المحامي: «أتظن أنه يجمع رجاله؟».

فقال المحامي: «على أي حال، نحسن صنعًا لو انتظرنا حيث نحن، وندع الجنود يلمون شتات الرجال»، فقلت:

«إذا كنت قلقًا من وجودي، فإني لست من رجاله أو رجالك، ولكني أحد رعايا الملك، جورج، الأمناء، لا أخضع لأحد، ولا أرهب أحدًا».

فأجاب العميل: «لماذا، حسنًا قلت، ولكن إذا واتتني الشجاعة فإني أسألك: لماذا يبقى هذا الرجل بعيدًا هكذا عن موطنه؟ ولماذا جاء يبحث عن أخ «آردشيل»؟ يجب أن أخبرك أنني صاحب السلطة هنا، ووكيل الملك على عديد من الضياع، ووراء ظهري اثنا عشر صفًّا من الجنود».

فقلت وبي بعض الغيظ:

- «لقد سمعت كلمة شاعت في البلاد بأنك لست رجلًا سهل القياد، عنيفٌ:

ظل ينظر إليَّ كمن ساورته الشكوك، ثم قال أخيرًا:

«حسنًا، إنك جريء اللسان، ولكني لست عدوًّا للصراحة، ولو كنت سألتني عن الطريق إلى باب «جيمس ستيوارت» في يوم آخر غير هذا لكنت قد دللتك عليه، وتمنيت من الله التوفيق لك. أما اليوم. إه «مانجو»؟» ثم استدار ثانية لينظر إلى المحامي. ولكنه لم يكد يلتفت إليه حتى انطلقت رصاصة من بندقية من أعلى التل، ومع صوتها سقط «جلينور» وصاح عدة مرات:

«أوه، لقد مت».

أمسك به المحامي، ورفعه بين ذراعيه، والخادم واقف وقد تشابكت يداه، فنظر الجريح إلى الرجال واحدًا بعد الآخر بعينين فزعتين واستحال صوته إلى نبرات مست صميم القلب، ثم قال:

«احذروا على أنفسكم السوء، إني سأموت».

حاول أن يفتح ملابسه كمَن يريد أن ينظر إلى الجرح، ولكن أصابعه انزلقت على الأزرار، وعند هذا بعث بزفرة عالية، وسقط رأسه على كتفه، ثم أسلم الروح.

لم يفه المحامي بكلمة، ولكن وجهه كان حادًّا كالقلم، أبيض كوجوه الموتى، وانفجر الخادم يولول ويبكي بصوت عال كطفل، وأنا، من ناحيتي، فقد وقفت أحملق فيهم

بنوع من الهلع، أما ضابط الشرطة فقد جرى إلى الخلف فور سماعه صوت انطلاق الرصاصة ليستحث مجيء الجنود.

وأخيرًا وضع المحامي الرجل الميت في دمه على الطريق، ثم اعتدل في وقفته كمَن يترنح. أعتقد أن هذه الحركة التي قام بها المحامي قد ردتني إلى صوابي، لأنه لم يكد يفعل ذلك، حتى بدأت أتسلق الجبل صائحًا:

«القاتل! القاتل!»

لم ينقضِ من الوقت إلَّا أقله، حتى كنت قد وصلت إلى قمة أول مرتفع، واستطعت أن أرى جزءًا من الجبل المكشوف، والقاتل لا يزال يتحرك غير بعيد. كان رجلًا ضخمًا يرتدي سترة سوداء ذات أزرار معدنية، يحمل بندقية طويلة، فصحت:

«هنا، إني أراه!»

عند ذلك بدت من القاتل لفتة سريعة من فوق كتفه، وبدأ يعدو ثم ضاع في لحظات بين الخمائل، ولكنه ظهر ثانية على الجانب الأعلى حيث استطعت أن أراه يتسلقه كالقردة؛ لأن ذلك الجزء كان شديد الانحدار أيضًا، ثم غاص وراء كتف الجبل ولم أعد أراه.

كنت طوال ذلك الوقت أجري على الجانب الذي كنت فيه، وصعدت مسافة طويلة حين سمعت صوتًا يصيح بي أن أقف. كنت عند حافة الغابة العليا، والآن، عندما توقفت ونظرت خلفي رأيت كل الجزء المكشوف من التل تحتي.

كان المحامي وضابط الشرطة واقفين على الطريق تمامًا. يصيحان ويلوحان لي لكي أعود، وعلى يسارهما ذوو السترات الحمراء، وبنادقهم في أيديهم، يحاولون التسلق فرادى من الغابة السفلى؛ فصحت بهما:

«لماذا أعود؟ أسرعا إليَّ أنتما»، فصاح المحامي قائلًا:

«عشرة جنيهات لو أمسكتم بذلك الصبي. إنه شريك في الإثم. لقد وضعوه هنا ليلهينا بالحديث».

عند هذه الكلمة (التي استطعت أن أسمعها بوضوح تام رغم أنها كانت موجهة للجنود لا إليَّ) قفز قلبي إلى فمي بنوع جديد من الرعب. حقًّا إنه شيء أن تكون في خطر على حياتك، وشيء مختلف تمامًا أن تكون حياتك وسمعتك في خطر. أضف إلى هذا أن ذلك الشيء قد حدث فجأة كما ينقض الرعد من سماء صافية، فتولتني الدهشة وأنا عاجز لا حيلة لي.

بدأ الجنود ينتشرون، بعضهم يجري، وبعضهم الآخر قد رفعوا بنادقهم يحيطون بي، وأنا واقف في مكاني. سمعت صوتًا بجواري يقول:

«اختبئ. هنا بين الأشجار».

حقيقة لم أدر ماذا كان عليَّ أن أفعل، ولكني أطعت، وعندما فعلت ذلك، سمعت انطلاق البنادق وأزيز الرصاص بين الغصون. وفي مكان مختفٍ بين الأشجار

وجدت (ألن بريك) واقفًا ومعه غابة صنارة لصيد السمك لم أتلق منه تحية؛ لأن الوقت لم يكن ملائمًا للمجاملات حقًّا؛ ولكنه قال فقط: «تعال»، ثم انطلق يجري محاذيًا لجانب الجبل ومتجهًا ناحيته (بالاشوليش) وأنا أتبعه كشاة.

كنا حينًا نعدو منحنيين بين الغصون خلف السنام المنخفضة فوق جانب الجبل، وحينًا آخر نزحف على الأربعة بين الأعشاب. كانت خطانا سريعة قتالة، وقلبي يكاد ينفجر بين ضلوعي؛ ولم يكن لديَّ فسحة من الوقت لأفكر؛ أو نفس لأتحدث. لم أذكر شيئًا إلَّا رؤيتي من رؤيا «ألن» ينتصب واقفًا بكامل قامته بين حين وآخر؛ وينظر إلى الخلف. وفي كل مرة يفعل ذلك، كنا نسمع الجنود عن بعد يصيحون صيحات عالية. توقف «ألن» بعد خمس عشرة دقيقة، واستوى على العشب، ثم التفت وقال: «الآن، الأمر جد. من أجل حياتك افعل كما أفعل».

وبنفس السرعة، ولكن بحذر لا نهائي، رجعنا أدراجنا عبر جانب التل. مترسمين نفس الطريق الذي أتينا منه، إلَّا أنه من المحتمل أن يكون أكثر ارتفاعًا، وأخيرًا ألقى «ألن» بنفسه في غابة «ليترمور» العليا؛ ذلك المكان الذي وجدته عنده أولًا، راقدًا ووجهه في العشب يلهث ككلب.

اشتد الألم بجنبي، ورأسي يدور، وتدلى لساني من فمي من شدة القيظ والجفاف، فاستلقيت إلى جواره كشخص ميت.

* * *

الفصل الثامِن عشر
أتحدث مع «ألن» في غابة ليترمور

كان «ألن» أولنا عودةً إلى عافيته، فنهض وذهب إلى حافة الغابة، وسرح الطرف فيما حواليه، ثم عاد وجلس قائلًا:

«تلك كانت مرحلة شاقة مضنية».

لذت بالصمت ولم أرفع وجهي؛ لأني شاهدت جريمة قتل تقع، وسيدًا عظيمًا أشقر الوجه مرحًا انتزعت منه الحياة في لحظة، ولا يزال الألم الذي استولى عليَّ من رؤية هذا المنظر يوجعني. هنا حادث قتل وقع على رجل يمقته «ألن». وهنا يختبئ «ألن» بين الأشجار في دهاء، هاربًا من الجنود، وسواء أكانت يده هي التي أطلقت النار، أم أن رأسه هي التي أمرت، فإن هذا لم يكن ليشغل بالي إلَّا قليلًا، أما من ناحيتي، فإن صديقي الوحيد في تلك البلاد الهمجية كان سفاحًا من الطراز الأول. أمسكت به في رعب، ولكني لم أستطع أن أنظر إلى وجهه، وكنت أؤثر أن أضطجع وحيدًا تحت المطر في جزيرتي الصغيرة الباردة، عن أن أبقى في تلك الغابة الدافئة إلى جوار قاتل.

سألني ثانية: «ألا تزال متعبًا؟».

فقلت له ووجهي لا يزال في العشب: «كلا، كلا. لست الآن متعبًا، وأستطيع أن أتكلم وأقول إننا يجب أن نفترق». ثم قلت: «لقد أحببتك يا «ألن» حبًّا جمًّا، ولكن أساليبك ليست أساليبي ولا أساليب الله، وسواء أطال بنا الجدل أم قصر فلا بد وأن نفترق»، فقال «ألن» باهتمام شديد:

«ليس من الهين أن أفترق عنك دون أن تذكر لهذا سببًا، إذا كنت تعرف شيئًا يلوك سمعتي فدعني أعرف هذا الشيء. وهذا أقل ما تفعله من أجل صداقتنا القديمة. أما إذا كنت قد أحسست بالكراهية من رفقتي، فإنه من الأليق بي أن أقرر ما إذا كانت قد لحقت بي مهانة».

فقلت: «ما معنى هذا يا (ألن)؟ إنك تعرف جيدًا أن رجلًا من (آل كامبل) ملقى على الطريق يتمرغ في دمه».

صمت قليلًا، ثم قال: «ألم يأتك حديث قصة: (الرجل والناس الطيبون)(3)؟».

(3) الملائكة.

فقلت له: «كلا، ولا أريد أن أسمعها».

فقال: «إذا أذنت لي يا سيد (بلفور) فسأقصها عليك مهما يكن من شيء. أحب أن تعرف أن الرجل كان ملقى على صخرة في وسط البحر، كان (الناس الطيبون) قد اعتادوا على الذهاب إليها طلبًا للراحة وهم في طريقهم إلى (إيرلندا). وهذه الصخرة

تَسمَّى (سكيري فور)، وهي لا تبعد كثيرًا عن المكان الذي قاسينا فيه تحطيم السفينة. حسنًا، يبدو أن الرجل قد بكى بكاء مرًّا يطلب رؤية ولديه قبل أن يموت وأخيرًا علم ملك (الناس الطيبين) بأمره، فأخذته به شفقة، وأرسل مَن طار بالوليد داخل حقيبة ووضعها بجوار الرجل في أثناء نومه. وعندما استيقظ، وجد إلى جواره حقيبة وبداخلها شيء يتحرك. حسنًا، كان يبدو أن الرجل من أولئك القوم الذين يسيئون الظن بكل شيء، فطعن الحقيبة بخنجره قبل أن يفتحها أمنًا لحياته، فمات ابنه. إني أرى فيما بيني وبين نفسي يا سيد (بلفور) أنك وذلك الرجل صنوان»، فجلست وصحت به:

«أتعني أنك براء منها؟»، فقال «ألن»:

«قبل كل شيء، سأتحدث إليك يا سيد «بلفور الأشباح» حديث الصديق للصديق. إنني إذا أردتُ أن أقتل سيدًا، فلن يكون ذلك في بلادي؛ حتى لا أجر المتاعب على عشيرتي، وها أنت ترى أني أسير بلا سيف ولا بندقية، ولكني أحمل على ظهري غابة طويلة من غابات صيد السمك».

فقلت: «حسنًا، هذا صحيح».

واستطرد «ألن» قائلًا: «والآن». ثم أخرج خنجره، ووضع يده عليه بطريقة خاصة وقال: «أقسم على هذا «الحديد المقدس» أنني لم أسهم في هذا الجرم لا عملًا ولا فكرًا».

فقلت: «إني أحمد الله على ذلك»، ثم مددت له يدي ويبدو أنه لم يرها.

وقال: «إننا كثيرًا ما نتحدث عن الثعلب الأحمر، ولكني أعرف أن هناك من بين «آل كامبل» كثيرين غيره».

فقلت «إنك على الأقل لا تستطيع أن تلقي عليَّ باللائمة حقًّا؛ لأنك تعرف تمام المعرفة ما قلته لي في السفينة، ولكن التحريض شيء والعمل شيء آخر، وإني أشكر الله على ذلك مرة أخرى. قد نقع جميعًا تحت طائلة الإغراء، ولكنه شيء مروع أن يُقتل شخص بهذه البساطة. ينبغي أن نأخذ هذه الحياة ببرود يا ألن». لم أستطع في تلك اللحظة أن أقول المزيد، ولكني أضفت قائلًا:

«أتعرف من قتله؟ أتعرف الرجل ذا السترة السوداء؟».

فقال «ألن» بدهاء: «إني لا أعرف شيئًا عن سترته، ولكن يلتصق بذهني أنها زرقاء».

فقلت: «زرقاء أم سوداء، هل عرفته؟».

قال «ألن»: «لا أستطيع أن أقسم بحق على أني عرفته. لقد مر بجواري حقًّا، ولكن من المفارقات العجيبة أني كنت في تلك اللحظة أربط حذائي».

فسألته وأنا نصف غاضب أكاد أضحك من مراوغته:

«أتستطيع أن تقسم يا «ألن» على أنك لا تعرفه؟».

فقال: «لا أقسم الآن؛ لأن ذاكرتي قوية في النسيان يا ديفيد».

قلت: «ومع ذلك فقد رأيت شيئًا واضحًا، وهو أنك قد عرضت نفسك وعرضتني معك لأن يرانا الجنود».

فقال «ألن»: «هذا شيء كثير الاحتمال، وهذا ما يفعله كل رجل فاضل، فكلانا بريء من هذا الجرم».

فصحت: «بما أن الشبهات قد حامت حولنا زورًا وبهتانًا، فإن من الخير لنا أن نظهر؛ لأنه مما لا شك فيه أن البريء مفضل عن المذنب، علينا أن نبرئ أنفسنا أولًا، وعليهم بعد ذلك أن يبحثوا عن القاتل».

فقال: «لماذا يا ديفيد؟ إن الفرصة سانحة أمام البريء في ساحة الفضاء، أما فيما يتعلق بالصبي الذي أطلق الرصاصة، فإن أحسن مكان له هو أن يختبئ بين الأعشاب. يجب على أولئك الذين لم يغمسوا أيديهم في أبسط الصعاب أن يفكروا في حالة الآخرين الذين تردوا فيها، وهذه هي المسيحية الحقة، ولو كان الحال قد تبدل، وكان الصبي الذي لم أستطع أن أتبينه بوضح في مكاننا، وكنا في مكانه (كما كان ذلك محتملًا فعلًا)، فأظن أننا كنا نشكره أجذل الشكر لو استطاع أن يلفت نظر الجنود إليه بدلًا منا».

وعندما قال هذا، نفضت يدي منه، ولكن وجهه كان ينطق بالبراءة طوال الوقت. وكانت طهارة الطوية تتجلى بأوضح صورها في كل ما نطق به، وأنه على استعداد لأن يضحي بنفسه في سبيل ما يراه واجبًا عليه، فأمسكت عن الكلام، وتذكرت ما قاله لي السيد «هندرلاند» من أننا ينبغي أن نأخذ العظة عن سكان الجبال الغلاظ. حسنًا، هنا أخذت عبرتي. كانت مبادئ «ألن» في أول الأمر مجرد قول، ولكنه كان على استعداد لأن يضحي بحياته من أجل عشيرته، كما كانوا على استعداد لأن يضحوا بحياتهم من أجله.

قلت له: «يا ألن، لن أقول إنها المسيحية الحقة كما أعرفها، ولكن فيها من الخير شيء كثير، وهنا أمد لك يدي للمرة الثانية».

عند ذلك مد لي كلتا يديه، وقال إنني لا بد وأن أكون قد ألقيت عليه غشاوة من السحر؛ لأنه كان يسامحني في كل شيء، ثم قال جادًّا بأنه ليس لدينا من الوقت فسحة لنضيعها، وأنه ينبغي علينا أن نفر من هذا الإقليم، هو؛ لأنه كان هاربًا من الجندية، وكان البحث جاريًا عنه في جميع أرجاء «آبن» وعلى كل فرد أن يثبت براءته، وأنا، لأنه قد أقحم بي في جريمة القتل، فقلت له آملًا أن ألقنه درسًا صغيرًا:

«أوه، إني لا أخشى العدالة في بلادي».

فقال: «كما لو كانت هذه بلادك، أو كما لو كنت ستحاكم هنا في بلاد آل ستيوارت!».

فقلت: «إنها كلها إسكتلندا».

فقال «ألن»: «إني أحيانًا أعجب من أمرك يا رجل، كان القتيل أحد أمراء «آل كامبل»، وستجرى المحاكمة في «إنفيريرا» الموطن الرئيس لهذه القبيلة حيث تشكل هيئة المحلفين من خمسة عشر رجلًا من «آل كامبل»، وكبيرهم (وهو الدوق) جالس على المنصة. أتتحدث عن العدالة يا «ديفيد»؟ إنها نفس العدالة في الدنيا بأسرها كما عرفها «جلينور» منذ برهة وهو على جانب الطريق».

لا أنكر أني فزعت لهذا بعض الفزع، وقد يتزايد فزعي لو عرفت كيف أن نبوءات «ألن» تكاد تكون صحيحة تمامًا. لا شك في أنه قد بالغ في إحداها، إذ لم تكن هيئة المحلفين مكونة إلَّا من أحد عشر شخصًا من «آل كامبل»، أما الأربعة الآخرون، فقد كانوا تابعين للدوق، ولكن ذلك كان أقل أهمية مما كان يبدو.

كنت لا أزال أقول له أنه لم يكن عادلًا في حكمه على «دوق آرجيل» الذي (مع أنه كان من الموالين للملك) كان نبيلًا حكيمًا أمينًا.

قال «ألن»: «هو. هو. إن الرجل من أنصار الملك لا شك في هذا، ولكني لا أنكر أبدًا أنه كان رئيسًا قديرًا لعشيرته، وماذا تظن العشيرة لو أهدر دم أحد أفراد «كامبل» ولم يشنق أحد في حين أن رئيسهم كبير القضاة! ولكني غالبًا ما لاحظت أنه ليس لديكم يا سكان الإقليم المنخفض فكرة بينة عما هو صواب وما هو خطأ».

وعند هذا ضحكت أخيرًا بصوت عال، ولشد ما دهشت حين شاركني «ألن» في الضحك مسرورًا مثلي.

وقال: «كلا. كلا.. نحن في مناطق الجبال الإسكتلندية يا «ديفيد»، وعندما أقول لك اهرب، فخذها كلمة مني وافعل ما أقوله لك، لا شك أنه أمر شاق أن تختبئ بين الأعشاب، تقاسي مرارة الجوع فيها، ولكنه أكثر مشقة أن يُلقى بك مقيدًا بالأغلال في أحد سجون ذوي الأردية الحمراء».

سألته عن المكان الذي يجب أن نهرب إليه، وعندما قال لي إلى «الإقليم المنخفض»، أحسست بالرغبة في رفقته؛ لأني كنت مشوقًا إلى العودة إلى عمي حيث سأكون سيدًا على الموقف بيني وبينه. إلى جانب هذا فإن «آلن» قد قال لي مؤكدًا إن العدالة لن تأخذ مجراها في هذه الجريمة، مما جعلني أخشى أن يكون على صواب. من كل ألوان الموت أود من صميم القلب ألا أموت على حبل المشنقة، تلك التي مرت بذهني واضحة وضوحًا غريبًا (كما أحسست بها مرة ترسخ في ذهني عند سماعي لمطلع أنشودة «البائع المتجول») واقتلعت من فؤادي حبي لمحاكم العدالة».

فقلت: «سأجرب وأذهب معك يا ألن».

فقال «ألن»: «ولكن لا تنسَ أن الأمر ليس هينًا. ستنام عاريًا على مرقد خشن، وستحتمل ألم الجوع طويلًا، وستتخذ مكان الطيور الجارحة مضجعًا لك، وستصبح حياتك كحياة الظباء المطاردة، وستنام ويدك على سلاحك، نعم يا رجل ستكل قدماك من فرط التعب قبل أن نصل. إني أقول لك هذا عند بدء الرحيل لأني أعرف هذه

الحياة حق المعرفة، ولكن إذا سألتني عن أي مخرج فإني سأخفق في ذلك. إما أن تذهب إلى العشب معي، وإما إلى حبل المشنقة».

فقلت: «إنه أمر يسهل فيه الخيار». ثم تعاهدنا على ذلك متصافحين.

وقال ألن: «والآن، دعنا نلق نظرة أخرى على ذوي السترات الحمراء»، ثم قادني إلى الطرف الشمالي الشرقي للغابة.

عندما نظرنا من بين الأشجار، استطعنا أن نرى جانبًا كبيرًا من الجبل ينحدر جنوبًا في ميل شديد نحو مياه الخليج. لقد كانت منطقة وعرة، كلها أحجار معلقة، وأعشاب، وكتل خشبية كبيرة، ورأينا عند الطرف البعيد ناحية «بالاشوليش» فئة قليلة من الجنود الحمر، يصعدون ويهبطون فوق التل والعشب، ويتضاءلون أمامنا دقيقة بعد أخرى. لم يكن هناك ما يدعو إلى صياحهم؛ لأني أظن أنهم كانوا يستبقون فضلات أنفاسهم لما هو أجدى، ولكنهم لا يزالون يدبون في الطريق؛ لأنه مما لا ريب فيه أنهم كانوا يعتقدون أننا أمامهم مباشرة. نظر إليهم «ألن» وهو يبتسم فيما بينه وبين نفسه.

ثم قال: «آه، سيضنيهم التعب الشديد قبل أن ينتهوا من مهمتهم، وهذا هو الحال معك ومعي يا «ديفيد». نستطيع أن نجلس ونتناول من الطعام مضغة، ونأخذ أنفاسنا، ونشرب قدحًا من زجاجتي، وبعد ذلك نضرب في الأرض إلى «أوشارن»، إلى منزل قريبي «جيمس الوديان الصغيرة»، حيث يجب أن آخذ ملابسي وسلاحي ومالًا يعيننا على الطريق، وبعد ذلك يا «ديفيد» نصيح قائلين: «إلى الأمام. إلى الحظ» ثم نسير بين العشب».

لذا فقد جلسنا مرة أخرى، وأكلنا وشربنا في مكان استطعنا أن نرى منه الشمس غاربة في ساحة ملأى بجبال ضخمة موحشة لا دار فيها كان مقضيًّا عليَّ أن أجوبها مع رفيقي. وكلما جلسنا هكذا، أو بعد ذلك حين كنا في طريقنا إلى «أوشارن»، قص كل منا على صاحبه مغامراته، وسأروي لك هنا عن مخاطرات «ألن» قدر ما يبدو منها عجيبًا، أو ما تدعو الضرورة إليه.

يبدو أنه جرى إلى المتاريس بعد أن انتهت الموجة مباشرة فرآني، ثم افتقدني، ثم رآني مرة أخرى عندما سقطت في مسرى الطيور، وأخيرًا لمحني وأنا متعلق بعود الشراع. كان ذلك ما أحيا فيه بعض الأمل في أن قدماي ستطآن الأرض، وهذا ما حدا به إلى أن يترك لي الإشارات والرسائل التي أتت بي (لسوء حظي) إلى «آبن»، ذلك الإقليم التعس.

في نفس اللحظة أنزل أولئك الذين كانوا لا يزالون على ظهر السفينة الزورق إلى الماء، وكان على سطحها آنئذ رجل أو رجلان، حين انقضت موجة أخرى أشد من الأولى رفعت السفينة من مكانها، ويقينًا كانت ستودي بها إلى قاع اليم، لو لم ترتطم بنتوء في الصخرة.

ارتفع مقدم السفينة عندما ارتطمت أول مرة، ولذا فقد انخفض مؤخرها، أما الآن فقد ارتفع مؤخرها في الهواء وغاص مقدمها تحت الماء، فبدأت المياه تتدفق في ثقبها

كما تتدفق من خزان.

غاض الدم من وجه «ألن» لمجرد ذكر ما أعقب ذلك: لقد كان لا يزال هناك رجلان مستلقيان على فراشيهما في وهن، وعندما رأيا المياه تتدفق في السفينة، خيل إليهما أنها غارقة، فبدآ يصرخان بصوت عال صرخات مدمرة جعلت الآخرين الذين كانوا فوق ظهر السفينة يتدافعون واحدًا إثر آخر إلى الزورق، ثم أمسكوا بالمجاذيف.

كانوا على مبعدة أقل من مائتي متر حين جاءت موجة ثالثة عارمة، اندفعت السفينة عندها فوق الصخور، وامتلأ شراعها ماء للحظات، وبدت وكأنها تلاحقهم، ولكنها شرعت تغوص شيئًا فشيئًا، وكأن يدًا تجتذبها. ثم ابتلع اليم السفينة «العهد ديزارت».

لم يفوهوا بكلمة واحدة في أثناء إبحارهم نحو الشاطئ، وكانوا لا يزالون مأخوذين من هول ذلك الصراخ، ولكنهم لم يكادوا يطؤون أرض الشاطئ، حتى أفاق «هوسيزون» من شرود فكره، وأمرهم بأن يقبضوا على «ألن»، ولكنهم في الحقيقة تقاعسوا لأنهم لم يستسيغوا هذا العمل كثيرًا، ولكن «هوسيزون» كان كالشيطان يصيح بهم قائلًا إن «ألن» وحيد ومعه مال كثير، وإنه كان السبب في فقدان السفينة وغرق كل رفاقهم، وقد حانت ساعة الانتقام والحصول على ثروة معًا، كمَن يصيد عصفورين بحجر واحد. كانوا سبعة مقابل واحد، ولم يكن في ذلك الجزء من الشاطئ صخرة تحمي ظهر «ألن»، وبدأ البحارة ينتشرون ويتعقبونه.

ثم قال «ألن»: «ولكن الرجل الضئيل ذا الرأس الحمراء -لا أذكر اسمه-».

فقلت له: «رياش».

فقال: «نعم «رياش». حسنًا، كان الرجل الوحيد الذي وقف إلى جانبي، وسأل الرجل عمَّ إذا كانوا لا يخشون المحاكمة»، ثم قال لهم: «أنا نفسي سأساند ظهر رجل الجبال الإسكتلندية». ثم قال «ألن»: «إن ذلك الرجل الضئيل الجسد ذا الشعر الأحمر لم يكن شريرًا تمامًا، بل كان على قدر من الكياسة».

فقلت: «حسنًا، لقد كان رحيمًا بي على طريقته».

قال «ألن»: «وكذلك كان مع «ألن»، وأصدقك القول: لقد وجدت أن طريقته هي المثلى، ولعلك ترى يا «ديفيد» أن فقد السفينة، والصيحات التي انبعثت من هؤلاء الصبية المساكين، كان لها أبلغ الأثر في نفس ذلك الرجل، وأعتقد أن ذلك كان السبب في أنه كان رقيقًا معي».

فقلت: «حسنًا، وهذا رأيي أيضًا؛ لأنه كان متعصبًا في أول الأمر كباقي الرجال. ولكن كيف تقبل «هوسيزون» هذا العمل؟».

فقال «ألن»: «يلتصق بذهني أنه قد أخذه أسوأ مأخذ، ولكن الرجل الضئيل صاح بي أن أهرب. حقيقة رأيت في هذا رأيًا ثاقبًا، فانطلقت أعدو، أما هم فقد تجمعوا زمرة على الشاطئ كقوم لم يسد بينهم الوفاق سيادة كاملة، وكان ذلك آخر شيء رأيته».

فسألته: «ماذا تعني بذلك؟».

قال: «حسنًا، كانوا يتبادلون اللكمات، ورأيت أحدهم يسقط على الأرض، ولكني رأيت أنه من الأوفق لي ألا أبقى. لعلك ترى أنه يوجد عديد من «آل كامبل» في نهاية تلك الجزيرة «مل» وهم قوم لا تروق رفقتهم لسيد مثلي، ولو لم يكن الأمر كذلك لانتظرت وفتشت عنك بنفسي، هذا إذا استثنينا مساعدتي للرجل الضئيل رياش».

(لقد كان باعثًا على الضحك أن «ألن» كان يؤكد ضآلة جسد «رياش»، بينما لم يكن أحدهما في الحقيقة أقل حجمًا من الآخر).

واسترسل «ألن» قائلًا: «أطلقت لقدمي العنان، وإذا ما التقيت بأحد صحت به قائلًا إن هناك سفينة قد تحطمت على الشاطئ، فلم يقفوا أيها الرجل ليبعثوا فيَّ ضيقًا. ليتك كنت قد رأيتهم وهم يندفعون نحو الشاطئ، فإذا ما بلغوه، وجدوا أنهم قد استمتعوا بالعدو وهو شيء يغتبط له أي فرد من «آل كامبل». أظن أن القبيلة قد حسبت أن السفينة غرقت جملة ولم تتحطم، ولو كانت قد تحطمت، وأن جزءًا من حطامها قد وصل إلى الشاطئ، لكان ذلك من سوء طالعك؛ لأنهم في تلك الحالة سينقبون عنك في كل مكان، وسرعان ما يعثرون عليك».

* * *

الفصل التاسع عشر
بيت الرعب

جن الليل ونحن سائران، وعادت السحب التي كانت قد تبددت قبل مغرب الشمس، فتلبدت وتكاثفت، مما جعل سواد الليل بهيمًا شأنه في هذا الفصل من العام، وكان الطريق الذي سلكناه يجري على سفوح جبال وعرة، ومع أن «ألن» كان يسير عليه في ثقة ويقين، إلَّا أني لم أعرف بوسيلة أو بأخرى كيف أنه كان مرشدًا لنفسه، وأخيرًا، وفي حوالي منتصف الحادية عشرة، أتينا إلى قمة صخرة، ورأينا الأضواء من تحتنا، وظهر لنا منزل قد فتح بابه، ينبعث منه شعاع نار وأضواء شموع، يتحرك حوله خمسة رجال أو ستة في سرعة دائبة، يحمل كل منهم مشعلًا مضاء.

فقال «ألن»: «لا بد وأن «جيمس» قد فقد عقله، لو كان الجنود الحمر مكاننا لوقع في مأزق، ولكنه من المحتمل أن يكون قد وضع ديدبانًا على الطريق، ثم إنه يعلم حق العلم أن الجنود لن يكتشفوا الطريق الذي أتينا منه». وهنا بعث الصفير ثلاثًا بأسلوب خاص، وكان عجيبًا أن ترى المشاعل المتحركة كلها قد توقفت عند انطلاق أول صوت للصفير، كما لو أن الرعب قد تولى حامليها، وكيف عاد الضجيج إلى حالته الأولى عند انطلاق الصفير الثالث.

وعندما اطمأنت نفوس القوم، نزلنا من فوق الصخرة، فقابلنا عند باب الفناء (لأن ذلك المكان كان أشبه بمزرعة خصبة) رجل فارع القامة، وسيمًا، تجاوز الخمسين من عمره، وصاح في «ألن» بلغة البلاد الأصلية.

فقال «ألن»: «جيمس ستيوارت، سأطلب منك أن تتحدث بالإسكتلندية؛ لأن سيدًا صغيرًا هنا معي لا يعرف سواها». ثم وضع ذراعه في ذراعي وأضاف قائلًا: «سيد صغير من الأراضي المنخفضة، سيد في قوامه أيضًا، وأظن أنه من الأوفق لحياته ألا نذكر اسمه فلنسمه عابر الطريق».

التفت «جيمس الوديان الصغيرة» إليَّ لحظة، ثم حياني بأدب وفير، واستدار في لحظة أخرى نحو «ألن» وصاح:

«لقد كان حادثًا مروعًا، سيجر المتاعب على الإقليم». ثم اعتصر يديه.

فقال «ألن»: «أوه، ينبغي أن تتذوق الحلو والمر معًا يا رجل. لقد مات «كولين روي» فاشكر الله على ذلك».

فقال «جيمس»: «آي، وقسمًا بعهدي لكم وددت لو عاد إلى الحياة مرة أخرى؛ لأنه سيكون جميلًا أن أضرب قبل غيري وأزهو بهذا، أما والآن وقد انتهى كل شيء يا «ألن» فعلى مَن سيقع الوزر يا ترى؟ لقد وقعت الواقعة في «آبن»، تذكر ذلك يا «ألن»، واعلم أن «آبن» هي التي ستدفع الثمن وأنا رجل عائل».

كنت أنظر حوالي إلى الخدم عندما كان هذا الحديث يدور، فرأيت بعضهم على السلم ينقبون في سقف البيت المصنوع من القش، أو في مباني المزرعة، ويخرجون منها البنادق والأسياف وأسلحة القتال المختلفة، ويحملها بعضهم الآخر بعيدًا، وأيقنت من صوت ضربات المعول في مكان قصي بأسفل الصخرة أنهم يطمرونها، ورغمًا عن أن الجميع كانوا جادين في عملهم، إلَّا أنهم كانوا يعملون بغير نظام. كان الرجال يتدافعون لحمل بندقية واحدة. ويتداخلون في بعضهم البعض حاملين مشاعلهم، و«جيمس» لا يكف عن الالتفات إليهم في أثناء الحديث مع «ألن»، ويصرخ فيهم مصدرًا إليهم أوامر كان جليًّا أنهم لم يفهموها. كانت الوجوه في أضواء المشاعل كوجوه رجال قهرتهم السرعة، وسيطر عليهم الهلع، ومع أنه لم يرتفع صوت واحد منهم عن أنفاسه، إلَّا أنه كان في حديثهم رنين الجزع والغضب معًا.

في أثناء ذلك، خرجت من المنزل صبية تحمل لفافة أو حزمة. ظننت أن غريزة «ألن» قد استيقظت عند مرآها، مما جعلني أبتسم أكثر الوقت.

فسأل «ألن»: «ماذا تحمل الصبية؟»، فقال «جيمس» بأسلوبه الذي فاض جزعًا، وفيه شيء من الهوان:

«إننا نرتب المنزل يا «ألن»؛ لأنهم سيفتشون كل شبر في «آبن» على أضواء الشموع، ويجب أن يكون كل شيء هنا سليمًا لا غبار عليه. إننا كما ترى ندس بنادقنا الصغيرة وسيوفنا في الطحلب، وهذه على ما أظن ملابسك الفرنسية، وأعتقد أننا ينبغي أن نطمرها أيضًا».

فصاح «ألن»: «تطمرون ملابسي الفرنسية! أقسم ألا!». ثم أمسك باللفافة، وعاد إلى المخزن ليبدل ملابسه وهو يوصي قريبه بي.

وعلى ذلك اصطحبني «جيمس» إلى المطبخ، وجلس معي إلى المائدة، وكان أول الأمر يبتسم لي مبالغًا في حسن الوفادة، ولكن سرعان ما عادت إليه كآبته. فجلس مقطب الجبين، يعض أصابعه، إلَّا أنه كان يتذكرني بين الفينة والفينة، ولا يكاد يتحدث إليَّ كلمة أو اثنتين ويبتسم إليَّ ابتسامة باهتة، حتى يعود إلى فزعه.

جلست زوجته إلى جوار النار، ثم انبعثت تبكي ووجهها بين يديها، بينما كان ابنه الأكبر جاثمًا على الأرض، يجري فوق كومة كبيرة من الأوراق، وكان بين حين وآخر يشعل النار في ورقة ويحرقها حتى نهايتها المرة.

كنت طوال الوقت أرى خادمة في ميعة الصبا، حمراء الوجه، تفتش في أرجاء الغرفة في سرعة عمياء من فرط الخوف، وعند انصرافها بعثت نحيبًا خفيضًا، وكان أحد الرجال يأتي بين لحظة وأخرى، ويدس وجهه في الفناء في طلب الأوامر.

وأخيرًا لم يستطع «جيمس» الاستقرار في مقعده أكثر من ذلك، والتمس لنفسه المعاذير في عدم مراعاته لآداب السلوك؛ لأنه لم يجلس معي.

ثم قال: «إن رفقتي لا تسرك؛ لأنه لا يشغل عليَّ فكري إلا ذلك الحادث المروع، وتلك المتاعب التي يحتمل أن يجرها على قوم أبرياء كل البراءة».

وبعد قليل لاحظ أن ابنه يحرق ورقة كان الأب يظن أنها غير معرضة للتلف، وعند هذا أخذت منه الثورة مأخذًا شديدًا آلم مَن شهدها، فظل يضرب ابنه ضربًا متواصلًا، ثم صاح:

«هل جننت؟ أتريد أن يُشنق أبوك؟»، ثم حمل على الصبي طويلًا بلغة البلاد الأصلية ناسيًا وجودي، والفتى لا يجيب، ولكن زوجته ألقت بميدعتها على وجهها، وبكت بصوت أعلى من ذي قبل عندما ذكر الرجل لفظ الشنق.

كان ذلك شيئًا كريهًا ليحدث أمام رجل غريب مثلي فيسمعه ويراه، وكنت مسرورًا حقًّا عندما عاد «ألن» ولم يتغير مظهره بالثياب الفرنسية الجميلة، مع أنها حقيقة قد عبث بها البلى أشد العبث، وذبلت حتى أصبحت لا تستحق صفة الجمال. جاء دوري فأخذني ابن آخر من أبنائه، وأعطاني ملابس طالما تاقت نفسي إليها عوضًا عما كنت أرتديه، وحذاء ثقيلًا مما ينتعله سكان الجبال الإسكتلندية، مصنوعًا من جلد الغزال. ورغم أنه كان غريبًا عليَّ في بادئ الأمر، إلَّا أني وجدته مريحًا لقدمي بعد أن زاولت المسير به حينًا.

مما لا شك فيه أن «ألن» قد روى لهم قصته في أثناء غيبتي؛ لأنه كان يبدو عليهم أنهم عرفوا أني سأهرب معه، وكانوا جميعًا دائبين على إعداد ما نحن في حاجة إليه. أعطوا كلينا سيفًا وغدارات رغم اعترافي بعجزي عن استعمال السيف. وبهذه الأشياء، وببعض المؤن وبحقيبة من دقيق الشوفان، وبآنية حديدية، وبزجاجة من الكونياك الفرنسي الحقيقي، أصبحنا على استعداد للرحيل بين العشب، كان المال ينقصنا حقًّا، فلا يزال باقيًا معي ما يقرب من الجنيهين، أما حزام «ألن» فقد تلقفته يد أخرى، ولم يعد هذا الرسول الأمين يمتلك أكثر من سبعة عشر بنسًا هي كل ثروته، أما «جيمس» فيبدو أن الرحلات التي قام بها في «أدنبرة»، والنفقات القضائية التي أنفقها لصالح المستأجرين، جعلته لا يتبقى معه إلَّا ثلاثة شلنات وخمسة بنسات ونصفًا أغلبها من النحاس، قذف بها لنا.

فقال «ألن»: «إن هذا القدر لا يفي».

فقال «جيمس»: «يجب أن تجدا مكانًا آمنًا قريبًا منا بعض الشيء، وابعث إليَّ بكلمة. يجدر بك أن تهرب بسرعة يا «ألن»؛ فليس هذا هو الوقت الذي تبقى فيه انتظارًا لجنيه أو اثنين. ثق بأنهم وراءك، جادون في البحث عنك، ولا يرقى إليك شك في أن الاتهام واقع عليك في حادث اليوم، ولو وقع الوزر عليك، فإنه واقع عليَّ بدوري لأني أقرب أقربائك، ولأني أويتك عندما كنت في إقليمنا، ولو وقع عليَّ...»، ثم توقف عن الحديث يعض أصابعه بوجه شاحب، ثم استطرد قائلًا: «سيكون أمرًا مؤلمًا لأصدقائنا لو شنقت».

فقال «ألن»: «سيكون يوم نحس على آبن».

فقال «جيمس»: «سوف يكون يومًا لن أنساه»، ثم صاح وهو يدق بقبضة يده على الحائط دقات ردد المنزل صداها قائلًا:

«أوه يا رجل، يا رجل، يا رجل، «ألن» يا رجل! لقد تحدث كلانا كالبلهاء».

فقال «ألن»: «حسنًا، هذا صحيح. ثم إن صديقي هذا من ساكني الإقليم المنخفض، الموجود معنا الآن (ثم أومأ إليَّ) قد أسدى إليَّ النصح في هذا الشأن، ليتني أصغيت إليه».

قال «جيمس» وقد عاد إلى حالته الأولى:

«ولكن، انظر هنا. لو قبضوا عليَّ يا «ألن»، فستصبح في حاجة إلى مال».

وبعد أن قلبنا الأمر على جميع وجوهه، رأينا أن النظرة إلينا ستصبح كلها شكًّا وريبة. أترى ذلك؟ «حسنًا، اتبعني وأرجو أن تقرني على أني سأعد بنفسي اتهامًا في ورقة ضدك، أعلن فيه أني سأقدم جائزة لمن يقبض عليك. نعم، هل أفعل! إنه لشيء مر أن يحدث هذا بين صديقين مقربين مثلنا، وإذا وقع الاتهام عليَّ في ذلك الحادث المروع، فإني مضطر إلى الدفاع عن نفسي يا رجل. أترى ذلك؟».

قال هذا جادًّا في توسله، ممسكًا «بألن» من صدر سترته.

فقال «ألن»: «نعم إني أراه».

قال «جيمس»: «ويجدر بك أن ترحل عن البلاد يا «ألن»، نعم وعن إسكتلندا بأسرها ومعك صديقك مواطن البلاد المنخفضة؛ لأني مضطر إلى أن أتهمه بدوره. لعلك ترى ذلك. قل يا «ألن» إنك تراه!».

خيل إليَّ أن وجه «ألن» قد احمر قليلًا، وألقى برأسه إلى الوراء وقال:

«إنه ليحز في نفسي أني أتيت به هنا «يا جيمس»، فإن هذا يضعني موضع الخائن».

فصاح «جيمس»:

«الآن، يجب أن تواجه الأمور على حقائقها يا «ألن»! أيها الرجل إنه سيُتهم على كل حال: يقينًا سيتهمه «مانجو»، فماذا يضيره لو اتهمته أيضًا؟ ثم إني رب أسرة يا ألن». ثم توقف قليلًا وتلفت يمنة ويسرة واستطرد قائلًا: «وستكون هيئة المحلفين يا «ألن» مُشكَّلَة من آل كامبل».

فقال «ألن»: «هناك شيء واحد، وهو أنه ما من أحد يعرف اسمه».

فقال جيمس: «ولن يعرفوه يا «ألن»، وهأنذا أمد يدي عهدًا على ذلك». قال هذا وكأنه قد عرف اسمي حقًّا وأنه لن يبوح به أبدًا، ثم اتبع قائلًا «أما ثيابه التي كان يرتديها، وهيئته، وسنه إلى غير هذا، فإني لن أستطيع أن أغفلها». قال «ألن» عابسًا:

«إني لأعجب من ابن أبيك، أتريد أن تبيع الصبي بهدية؟ أتبدل له ملابسه ثم تخونه؟».

فقال «جيمس»: «لا، لا يا «ألن»، لا، لا، لقد رآه «مانجو» بتلك الملابس التي خلعها»، خيل إليَّ أنه بدأ ذليلًا، وكان حقًّا يتعلق بأي قشة، ومن المحتمل أنه كان طوال الوقت يتخيل وجوه أعدائه بالوراثة على المنصة، وفي ساحة القضاء والمشانق من ورائهم». قال «ألن» وهو يلتفت إلي: «حسنًا يا سيدي، ماذا ترى في ذلك؟ إنك هنا في حمى شرفي، ومن واجبي ألا أرى شيئًا لا يبعث على الرضى في نفسك».

فقلت: «ليس لديَّ ما أقوله إلَّا كلمة واحدة. أراني بعد كل ما ثار من جدل بينكما أني لست إلَّا رجلًا غريبًا تمامًا، ولكن أبسط قواعد الإدراك والمنطق تحتم بأن يوضع الوزر في نصابه، أي أنه يقع على الرجل الذي أطلق النار، انشروا عنه وطاردوه، ودعوا الأمناء الأبرياء يظهرون وجوههم في أمن وسلام».

عند هذا صاح «ألن» و «جيمس» كلاهما صيحة فزعة، وأمراني بأن أمسك عن ذكر هذا؛ لأنه أمر لم يكن ليجري التفكير فيه، وسألاني ماذا يظن «آل كاميرون»؟ (وقد أثبت لي هذا أن القاتل أحد «آل كاميرون» من «مامور») وسألاني عمَّ إذا كنت لا أعرف أن الصبي قد قبض عليه؟ ثم قالا ببراءة جادة حتى إن يدي قد تدلتا إلى جانبي، وتملكني اليأس من الجدل: «بلا شك إنك لم تفكر في ذلك».

فقلت: «حسنًا جدًّا. اتهموني إذا شئتم، اتهموا «ألن»، اتهموا الملك «جورج» فثلاثتنا أبرياء، وهذا ما يبدو لي أنكم راغبون فيه».

ثم قلت «لجيمس» بعد أن أفقت من نوبة غضبي:

«إني يا سيدي على الأقل صديق «لألن»، ولو كان في مكنتي أن أمد يد العون لأصدقائه، فإني لن أتردد في المخاطرة من أجل ذلك».

وهنا رأيت أنه من الأفضل أن يبدو الرضى على وجهي؛ لأني أبصرت «ألن» وقد غمره قلق وهمٌّ (وقلت لنفسي): «إنهم سيتهمونني حالما أدير لهم ظهري رضيت أم لم أرضَ»، ولكني رأيت أنني كنت مخطئًا في تفكيري هذا؛ لأني لم أكد أفرغ من كلماتي حتى قفزت «السيدة ستيوارت» من مقعدها، وأقبلت تعدو نحونا، وبكت أولًا على عنقي، ثم على عنق «ألن»، حامدة الله على حسن صنيعنا لأسرتها، قائلة:

«إنك يا «ألن» لم تفعل إلَّا ما اقتضاه واجبك، أما هذا الصبي الذي وفد علينا هنا ورآنا ونحن في أسوأ حالاتنا، ورأى زوجي الرجل الطيب يتذلل كخطيب (وكان ينبغي بماله من حقوق مشروعة أن يصدر أوامره كأي ملك) وإني يا ولدي لست مصرةً من قلبي على أن أعرف اسمك، ولكني لن أنسى وجهك، وسأذكره وأباركه ما دام قلبي يخفق بين جوانحي».

وعند هذا قبَّلتني، ثم انفجرت تبكي مرة أخرى حتى تولاني الخجل. كان «ألن» ينظر نظرة بلهاء جدًّا حين قال:

«هُوْ، هُوْ. إن النهار لا يطول بقاؤه في ذلك الشهر، شهر يوليه، وسيكون هناك في «آبن» أشياء كثيرة جسام: انتشار جنود الفرسان، وصياح «الكرواشان»(4)، والهرب من ذوي الأردية الحمراء، ويجدر بكلينا أن يسرع في الرحيل بقدر ما يستطيع».

(4) اسم المزاح لآل كامبل.

وبهذا ودعناهم وانطلقنا ثانية منحرفين قليلًا ناحية الشرق في ليلة ليست موحشة الظلام، وفي نفس الإقليم المحطم كما كنا نسير من قبل.

* * *

الفصل العشرون
الهَرب في العشب: الصخور

كنا حينًا نسير، وحينًا نجري. ولكن عندما شاب غراب الليل، كنا نعدو أكثر مما نخطو، ومع أن الإقليم كان صحراويًّا في مظهره، إلَّا أنه كانت هناك أكواخ الناس ودورهم، ولا بد وأن نكون قد مررنا بأكثر من عشرين منها مخبأة في أماكن هادئة بين الوهاد، وعندما أتينا إلى واحد من هذه الدور، تركني «ألن» على الطريق، وذهب وحده يدق جانبه، ويتحدث برهة عبر النافذة إلى بعض مَن استيقظوا من النيام. لقد فعل ذلك لينقل إليهم الأخبار، وكان ذلك واجبًا من أقدس الواجبات التي كان «ألن» منوطًا بالقيام بها في هذا الإقليم، وكان ينبغي عليه أن يبطئ لإبلاغها، حتى ولو كان ذلك في أثناء هربه منجاةً لحياته، وكان الآخرون يصغون إليه في لهفة، حتى إن أكثر مَن كانوا في نصف الدور التي زرناها قد عرفوا بحادث القتل، أما مَن كانوا في الدور الأخرى -على قدر ما استطعت أن أفهم (وأنا واقف إلى الخلف عن بعد أسمع لهجة غريبة)- فقد استقبلوا الأخبار بذعر يفوق الدهشة.

ومع كل سرعتنا هذه، بدأ الصبح ينبلج ونحن لا نزال في منأى عن أي مأوى. وجدنا نفسينا في وادٍ مترامي الأطراف، تنتثر على سطحه الصخور يجري فيه نهر يرغي ويزبد، انتصبت حوله جبال وعرة، ولم يُنْمُ فيه عشب أو شجرة. بدأ يثبت في ذهني منذ ذلك الحين أنه الوادي الذي يطلقون عليه اسم «وادي جلينكو»، حيث كانت تقام المجازر إبان عهد «الملك وليام».

ولكي أتلو عليك قصة سفرتنا مسهبة، أقول إن طريقنا كان في ذلك الحين يقع بين مسالك مختصرة آنًا، ويلف في دورات كبيرة آنًا آخر. كانت خطواتنا سريعة، ومسيرنا ليلًا، وعندما سألت عن تلك الأماكن أجابوني باللهجة الإسكتلندية المحلية، مما جعلني أنسى أسماءها بسهولة، وعندما أطلَّتْ علينا خيوط الصباح الأولى، أوضحت لنا المكان المروع، واستطعت أن أرى «ألن» مقطب الجبين. وقال:

«إن هذا المكان لا يصلح لك ولا لي، لأنهم لا بد وأن يراقبوه». وعند هذا جرى بأعنف من أي وقت مضى، هابطًا إلى مكان على شاطئ المياه، انشق النهر عنده نصفين بين ثلاث صخور، كان النهر يجري بينها كالرعد القاصف مما جعل أحشائي تهتز. وهناك تعلق فوق مسقط المياه ضباب قليل من رذاذها.

لم ينظر «ألن» يمنة أو يسرة، بل قفز دون تردد إلى الصخرة الوسطى، وسقط عليها مستندًا إلى يديه وركبتيه ليحتفظ بتوازنه؛ لأنها كانت صغيرة، ولكيلا يسقط على الجانب البعيد قفزت وراءه، ولم يكن عندي من الوقت ما يفي بقياس المسافة أو تبيان الخطر قبل أن أتبعه، فأمسك بي وأوقفني.

وبهذا وقفنا هناك جنبًا إلى جنب على صخرة بللها الرذاذ فانزلق وجهها، كان علينا أن نقفز مرة أخرى قفزة أكثر اتساعًا، والنهر صاخب يلطم كل جنباته، وعندما

أبصرت بالمكان الذي أصبحت فيه، تولاني ألم من الدوار مميت من أثر الخوف، فخبأت عيني بيدي، وعند هذا أمسك بي «ألن» وهزني، فنظرت إليه فإذا به يتكلم، إلَّا أن زئير مساقط المياه، واضطراب عقلي قد أصما سمعي، ولكني رأيت وجهه فقط وقد احمر من فرط الغضب، وأبصرت به يدق بقدمه فوق الصخرة، وبهذه النظرة نفسها رأيت المياه ثائرة، والضباب معلقًا في الهواء، فقد أخفيت عيني مرة أخرى وارتعدت.

وفي اللحظة التي أعقبت ذلك، وضع «ألن» فوهة زجاجة الخمر بين شفتي، وأكرهني على أن أشرب منها كيلا مما جعل الدم ينبعث إلى رأسي مرة أخرى، ثم وضع يديه على فمه، وفمه إلى أذني وصاح. قائلًا:

«إما أن تقفز، وإما أن تغرق». ثم أدار ظهره لي وقفز إلى حافة المجرى البعيدة، ووطأ الأرض سالمًا».

كنت في ذلك الوقت على الصخرة وحدي مما أفسح لي مكانًا، والخمر تطن في أذني، وكان ذلك المثل المجسم حيًّا أمامي، وبلغت من الفطنة حدًّا جعلني أدرك أنني إما أن أقفز فورًا، وإما لن أقفز أبدًا. انحنيت إلى مستوى ركبتي ودفعت بنفسي إلى الأمام بنوع غضبة اليأس تلك التي وقفت إلى جانبي عوضًا عن الشجاعة في بعض الأحايين. حقيقة وصلت يداي وحدهما إلى شاطئ المياه. ولكنهما انزلقتا، ثم عادتا فأمسكتا مرة أخرى، ثم انزلقنا ثانية فارتددت في الماء، وعند ذلك أمسك بي «ألن» أول الأمر من شعري، ثم من رقبة سترتي، وبعد جهد جهيد جذبني إلى الشاطئ سالمًا.

لم ينبس ببنت شفة، ولكنه انطلق يعدو مرة أخرى أمنًا لحياته، وكان حتمًا عليَّ أن أترنح على قدمي وأتبعه عدوًا، لقد كنت قبل الآن متعبًا، أما الآن فقد أصبحت مريضًا مكدومًا، ثملًا بعض الشيء من أثر الشراب وظللت أتعثر وأنا أعدو، وقد تسيدتني وخزة آلمتني، وعندما توقف «ألن» آخر الأمر تحت صخرة هائلة قامت بين عديد من مثيلاتها كانت اللحظة المناسبة لوصول «ديفيد بلفور» قد حانت، قلت إنها صخرة هائلة، ولكنها لم تكن في حقيقة الأمر إلَّا صخرتين مالتا على بعضهما البعض فتلاقتا عند قمتيهما، ترتفع كلتاهما حوالي عشرين قدمًا، بدتا في أول الأمر منيعتين، حتى إن «ألن» (مع أنك تستطيع أن تقول إنه كمَن له أربع أيد) قد أخفق مرتين في محاولة تسلقهما، ولكنه وُفِّق في المرة الثالثة فقط عندما وقف على كتفي وقفز بقوة قفزة خلت معها أن عظام عنقي لا بد وأن تكون تحطمت، وبذلك استطاع أن يجد لنا مكانًا نأوي إليه، وحالما وصل، أدلى إليَّ بحزامه المصنوع من الجلد، وبمساعدته مع وجود موطئي قدم قليلي الغور في الصخرة، استطعت أن أتسلق إلى جواره.

عند هذا عرفت السبب الذي من أجله أتينا إلى هذا المكان، ذلك أن كلتا الصخرتين كانتا مجوفتين بعض الشيء عند قمتيهما، فأصبحتا كنوع من الأطباق، مما جعل المكان صالحًا لثلاثة رجال أو أربعة؛ لكي يتخذوا منه مخبأ.

مرت تلك اللحظة كلها دون أن يفوه «ألن» بكلمة واحدة، بل كان يجري ويتسلق بتلك السرعة الوحشية المشوبة بالغيظ المكبوت، وقد جعلني هذا أعرف أنه كان يخشى بعض الإخفاق خشية قاتلة، وحتى الآن ونحن على الصخرة، فقد ظل صامتًا ولم تهدأ مسحة العبوس التي كست وجهه، ثم انبسط بعد ذلك على الأرض، وقد ركز عينًا واحدة فقط على حافة المكان الذي اتخذنا منه ملجأ، فكشف عن كل المحيط الذي يلفنا. وأقبل الفجر صافيًا كل الصفاء، واستطعنا أن نرى كل جوانب الوادي الصخرية وقاعه الذي انتثرت عليه الصخور، والنهر الذي كان يجري من جانب إلى آخر فولّد اندفاعه مساقط مياه بيضاء، ولكننا لم نرَ في أي مكان دخانًا ينبعث من دار، ولا كائنًا حيًّا، اللهم إلَّا بعض النسور تصرخ حول صخرة شاهقة. وأخيرًا ابتسم «ألن» وقال:

«نعم، أمامنا الآن فرصة مواتية». ثم نظر إليَّ وأردف في شيء من الدعابة: «إنك لست خفيف الحركة في القفز».

عند هذا خيل إليَّ أن لوني قد تبدل لما اعتراني من خجل؛ لأنه أتبع قائلًا:

«إن شيئًا من اللائمة واقع عليك! إذا خشى المرء شيئًا ثم فعله رغم تلك الخشية، فإن ذلك يجعله يرقى إلى مرتبة أسمى من طراز الرجال. ثم إن هناك ماء وهو شيء رهيب حتى لي. كلا، كلا، إن اللائمة ليست واقعة عليك بل عليَّ»، فسألته لماذا؟ قال:

«لقد أثبت لي في هذه الليلة أنني أبله، أولًا! لقد سلكت طريقًا خاطئًا في موطني «آبن»، ولذا فقد طلع علينا النهار في مكان ما كان ينبغي أن نبقى فيه، وشكرًا لله على ذلك؛ لأننا نقاسي الآن تعبًا مضنيًا وخطرًا يحدق بنا، وثانيًا (وهو أسوأ الأمرين لرجل مثلي عاش طويلًا بين الأعشاب) أني جئت وليس معي زجاجة ماء، وها نحن أولاء نضطجع يوم صيف طويل وليس معنا إلَّا كحول خالص. قد تظن ذلك أمرًا هينًا، ولكن قبل أن يأتي المساء يا «ديفيد»، ستتبين أهمية وجودها». كنت مشوقًا إلى أن أدافع عن كياني ففرضت عليه أن أنزل مسرعًا لأملأ الزجاجة من ماء النهر إذا ما أفرغها مما بها من خمر، فقال:

«لقد كان هذا الكحول الطيب صديقًا وفيًّا لك في تلك الليلة، أو في رأيي المتواضع، لولاه لكنت حتى الآن ملقى على ذلك الحجر، وأكثر من هذا، أنك ربما تكون قد لاحظت (وأنت الرجل الفطن) أن «ألن بريك ستيوارت»، كان يسير بأسرع مما اعتاد أن يسير». فصحت قائلًا:

«أنت! لقد كنت تجري بحالة كدت معها أن تتفجر». فقال:

«هل كنت أفعل ذلك؟ حسنًا، لعلك تثق بأنه ليس لدينا من الوقت ما نضيعه عبثًا، والآن، أما وقد تحدثنا بما فيه الكفاية، فاذهب ونم أيها الصبي، وسأبقى قائمًا على الحراسة».

وعلى ذلك استلقيت لأنام، فاتخذت مضجعي بين القمة وبين الصخرتين فوق كومة من المواد النباتية ومن بعض شجيرات الخنشار، وكان صراخ النسور آخر شيء

سمعته.

من المحتمل أنها كانت حوالي الساعة التاسعة صباحًا حينما أيقظني «ألن» بجفوة، ووجدت يده تضغط على فمي، ثم همس قائلًا:

«صه. لقد كنت تغط في نومك». فدهشت عندما رأيت وجهه قائمًا قلقًا، وقلت:

«ولِمَ لا؟».

فظهر على حافة الصخرة، وأشار إليَّ بأن أفعل مثل ما يفعل، كان النهار آنئذ في ضحاه، والسماء صافية لا يشوبها سحاب، والجو شديد القيظ، والوادي صاف كأنه مرسوم على لوحة. وعلى مبعدة نحو نصف ميل من الماء، رأينا مضرب خيام لذوي السترات الحمراء، ونارًا وهاجة تأججت في وسطه، وعندها جماعة يطهون. ووقف بالقرب منهم على قمة صخرة تكاد تكون في مثل ارتفاع صخرتنا ديدبان وضوء الشمس يتلألأ على أسلحته. كان كل الطريق الممتد على طول جانب النهر مليئًا بمراكز الحراس الآخرين، هنا متقاربون، وهناك منتثرون على مسافات أكثر اتساعًا، وبعضهم ثابت كالأول في أماكن القيادة، وبعضهم الآخر يسيرون ثم يرجعون ليتلاقوا في منتصف الطريق. وهناك فوق الوادي الصغير حيث كانت الأرض أكثر اتساعًا، كانت سلسلة المراكز متصلة بواسطة الخيالة الذين استطعنا أن نراهم يروحون ويغدون. وهناك إلى أسفل كان المشاة دائبي المسير، ولكن عندما فاضت مياه المجرى فجأة بسبب التقائه بمجرى آخر كبير، وقفوا في أماكن أكثر بعدًا عن بعضها البعض، لا يفعلون شيئًا إلّا أن يراقبوا المخاضات والمواطئ الحجرية.

لم أنظر إليهم إلَّا مرة واحدة، ثم غصت ثانية في مكاني. لقد كان عجيبًا حقًّا أن ترى ذلك الوادي وقد رقد وحيدًا ساعة الفجر، يعج بالسلاح، ترصعه السترات الحمراء والسراويل. قال «ألن»:

«أترى؟ هذا ما كنت أخشاه «يا ديفي». إنهم سيراقبون جانب المجرى. لقد بدؤوا يفدون منذ ساعتين. إنك نوَّامة يا رجل! نحن في مأزق، ولو صعدوا جوانب التل لاستطاعوا أن يرونا بالمنظار في غير عسر، أما لو بقوا في قاع الوادي فستكون هناك أمامنا فرصة للهرب. إن مراكز الجنود عند الماء أكثر تقاربًا، فإذا ما سجى الليل فسنحاول أن نمر بجوارها».

فسألته: «وماذا سنفعل حتى يأتي المساء؟».

قال: «نستلقي هنا ونحتسي الخمر». (قال هذه الكلمات بلغة إسكتلندية سليمة).

أمضينا اليوم بطوله مستلقيين نشرب الخمر. يجب ألا تنسى أننا نرقد على قمة صخرة عارية، وكأننا فطيرتان على المشواة تضربنا الشمس بقسوة، وازدادت حرارة الصخرة حتى ليتعذر على المرء أن يلمسها، وما كانت رقعة الأرض الصغيرة والشجيرات التي ظلت رطبة لتتسع إلَّا لشخص واحد في وقت واحد، فتناوبنا الرقاد على الصخرة العارية، وكنا حقًّا في حالة لا تختلف عن حالة تلك القديسة التي استشهدت على منصة الحريق، وجرى في ذهني العجب من أني في

نفس المناخ، وعلى مسيرة أيام قليلة فقط، كنت أعاني قسوة شديدة من البرد هناك في جزيرتي، ومن القيظ هنا على تلك الصخرة.

لم يكن لدينا ماء طوال الوقت، اللهم إلَّا خمرًا رديئًا أسوأ من لا شيء، ولكننا احتفظنا بالزجاجة باردة قدر استطاعتنا؛ لأننا كنا نطمرها في الأرض، ونسري عن نفسينا وغسل صدرينا وصفحات وجهينا بالماء.

كان الجنود طوال النهار في حركة دائبة في بطن الوادي، يتبادلون الحراسة حينًا، ويشكلون الدوريات لتفتش بين الصخور حينًا آخر. كانوا يطوقون الوادي، ومن الكثرة بحيث إذا أردت أن تستبين رجلًا من بينهم، كنت كمَن ينقب عن إبرة في كومة من القش، ولما كان الحراس قد فقدوا الأمل في الوصول إلى نتيجة، فإنهم لم يكترثوا بعملهم، ومع ذلك استطعنا أن نرى الجنود يغرسون رماحهم في العشب مما بعث بهزة باردة في أحشائي، وكانوا في بعض الأحايين يتسلقون نحو صخرتنا، فلم نجرؤ على اجتذاب أنفاسنا إلَّا هونًا.

كانت هذه أول مرة أسمع فيها اللغة الإنجليزية الصحيحة، فإن أحدهم مر بالصخرة، فارتطمت يده بوجهها الذي تلقي الشمس أشعتها عليه، والذي كنا مستلقيين فوقه، فجذبها ثانية وهو يقذف بالسباب ويقول:

«أقول لكم إنها ساخنة».

ودهشت من العبارات المبتورة، والتكرار المستهجن الباعث على الملل اللذين تحدث بهما، وازدادت دهشتي من تلك اللهجة العجيبة عندما حذف حرف «الهاء» من كلماته. حقًّا لقد سمعت لهجة «رانسوم»، ولكنه أخذ أساليبه عن كل ألوان الناس، وكان ينطق كلمات تنقصها بعض الأحرف إلَّا أني عزوت هذا إلى طفولته، واشتد عجبي عند سماع ذلك الرجل يتحدث بهذه الطريقة، على حين أنه رجل قد اكتمل نموه. حقًّا لم أعتد عليها أبدًا، ولا كانت تَمُتُّ إلى قواعد اللغة الإنجليزية بصلة. كنت كعين نقَّادة تبحث هنا وهناك عن كل شيء، حتى في أثناء تفكيري في تلك الذكريات.

كان ملل تلك الساعات التي قضيناها على الصخرة وألمها يتزايدان كلما مضى بنا النهار، فالصخرة لا يزال يقوى لهيبها، والشمس تزداد قسوة، وأحسست بدوار، ومرض، وألم كالروماتيزم لا يطاق، وهنا تذكرت، وما زلت أذكر منذ ذلك الحين، تلك السطور في إحدى تسابيح لغتنا الإسكتلندية التي تقول:

«إن القمر في المساء لن يضر بك

ولا الشمس في أثناء النهار».

كان من نعم الله علينا حقًّا أن أحدًا منا لم يصب بضربة شمس، وأخيرًا وفي حوالي الساعة الثانية، كان الحال فوق احتمال الرجال، إلَّا أنه كان هناك ما يدعو إلى الإغراء على المقاومة واحتمال الألم؛ إذ إن الشمس قد مالت قليلًا نحو مغربها، فأحدثت رقعة من الظل على الجانب الشرقي من صخرتنا الذي كان محتجبًا عن أعين الجنود. قال «ألن»:

«تنوعت الأسباب والموت واحد».

ثم انزلق فوق الحافة وسقط على الأرض في الجانب الظليل. وتبعته على الفور، فسقطت على مدى طولي وبي وهن شديد، مصابًا بدوار قاس من طول تعرضي للشمس.

رقدنا هنا ساعة أو اثنتين يستبد بنا الألم من قمة الرأس إلى أخمص القدم، واهنين كالماء، مضطجعين في وضوح تام لعين أي جندي قد يتجول في ذلك الطريق، ولكن أحدًا منهم لم يأتِ، بل كانوا جميعًا يمرون بنا من الناحية الأخرى، ولذا فقد لبثت صخرتنا غمدًا لنا حتى في ذلك المقر الجديد.

الآن، بدأنا نسترد بعض قوانا، ولما كان الجنود آنئذٍ مرابطين بالقرب من جانب النهر، فقد رأى «ألن» أن نحاول الرحيل، وما كنت في تلك اللحظة أرهب أي شيء في الدنيا إلَّا أن أعود ثانية فوق تلك الصخرة، وكنت أرحب بأي شيء آخر، لذا فقد بدأنا على الفور نسير، وشرعنا ننزلق من صخرة إلى صخرة، واحدًا تلو صاحبه، نزحف على بطوننا في الظل حينًا، ونعدو حينًا آخر لنصل إلى ظل جديد.

وبعد أن فتش الجنود هذا الجانب من الوادي تنفيذًا للأوامر الصادرة إليهم، أصبحوا كالنائمين بسبب الجو الحار المشبع بالرطوبة فيما بعد ظهر ذلك اليوم، وطالت بهم اليقظة، فوقفوا في أماكنهم يغالبون النعاس، أو يركزون أنظارهم على امتداد شاطئ النهر فقط، لهذا نزلنا إلى الوادي واتجهنا ناحية الجبال، مارين في تؤدة بجوارهم، ولكن هذا العمل كان أكثر مشقة من أي عمل آخر ساهمت فيه. كان المرء في حاجة إلى مائة عين في كل جارحة من جوارحه؛ لكي يبقى مختفيًا في ذلك الإقليم الوعر، وفي نطاق صيحات هذه الكثرة من الحراس الذين انتشروا في كل مكان. لم يكن الأمر ليتطلب السرعة وحدها عندما كنا مسوقين إلى عبور منطقة غير مستترة، بل كان ينبغي علينا أن نحكم حكمًا سريعًا لا على وضع الإقليم كله فحسب، بل وعلى صلابة كل حجر كان علينا أن نضع أقدامنا عليه؛ ذلك لأن ما بعد الظهر قد أقبل بالغًا من السكون حدًّا جعل انقلاب حجر صغير يحدث صوتًا وكأنه انطلاق غدارة يتردد صداه بين التلال والصخور العالية.

وعند مغرب الشمس كنا قد قطعنا إحدى المراحل، وكان ديدبان الصخرة حقًّا لا يزال واضحًا أمام ناظرينا؛ لأننا كنا مبطئين في تقدمنا، ولكننا الآن قد وصلنا إلى شيء أزال كل المخاوف عنا، ذلك أن مجرى مياه عميقًا متدفقًا قد تحطم في ذلك المكان ليلتقي بالنهر الضيق، وعند مرأى هذا ألقينا بجسدينا على الأرض، وغمسنا رأسينا وأكتافنا في الماء، ولا أستطيع أن أقرر أي الأمرين كان أكثر بعثًا على البهجة، أهي الهزة القوية من إحساسنا ببرودة المياه فوقنا، أم أنه النهم الذي شربنا به الماء.

هناك استلقينا (لأننا كنا مختفيين خلف الضفاف) وشربنا مرة ومرة، وغسلنا صدرينا، وأهملنا أرساغنا مدلاة في الماء حتى تألمت من البرودة، وأخيرًا عندما تجدد نشاطنا تمامًا أحضرنا حقيبة الطعام وطهينا في الوعاء الحديدي غذاء مكونًا من دقيق الشوفان مخلوطًا بالماء البارد، ومع ذلك فقد كان طعامًا شهيًّا لرجل

يعتصره الجوع. لم تكن هناك وسيلة لإشعال نار، أو (كما في الحالة التي نحن فيها) أنه كان هناك سبب قوي لعدم إشعالها؛ لأنها ستكون العمدة الرئيسة لأن يرانا أولئك الذين رابطوا وسط الأعشاب ليرقبوا.

انطلقنا ثانية عندما أسدل الليل ظلاله، بادئين بنفس الحذر، ثم بمزيد من الإقدام، منتصبين إلى مدى طولينا. سائرين بخطوات أكبر اتساعًا. كان الطريق مفرط التشابك، يقع على سفوح جبال شديدة الانحدار، ومع مغرب الشمس أقبلت السحب على طول جباه الصخور العالية، والليل بهيم بارد، ولذا فقد سرنا دون عناء شديد، ولكن في رعب لا ينقطع؛ خشية السقوط أو الانزلاق من فوق الجبال، وخوفًا من جهلي بالمقر.

وأخيرًا أطل علينا القمر، وكنا لا نزال على الطريق. كان في ربعه الأخير وقد طال احتجابه وراء السحب، ولكنه ظهر بعد ذلك فكشف لي عن كثير من قمم جبال قائمة. وانعكس ضوؤُهُ بعيدًا إلى أسفل على لسان ضيق من الماء داخل في الأرض.

عند مرأى هذا توقف كلانا: أنا؛ لدهشتي من أن أجد نفسي على هذا الارتفاع الشاهق أسير (كما بدا لي) فوق السحب، و «ألن»؛ ليستوثق من أنه لم يخطئ السبيل.

كان «ألن» على ما يبدو مغتبطًا ؛لأنه قد تحقق من أننا أصبحنا بعيدين عن مسمع أعدائنا جميعًا، وكان في أثناء ما تبقى من مسيرة ليلتنا يقطع الطريق بالصفير أنغامًا كثيرة، منها ما هو حماسي، ومنها ما هو باعث على البهجة، ومنها ما هو حزين. كانت الأنغام تتمايل فجعلت أقدامنا تجد في المسير؛ ثم إن أنغام موطني في الإقليم المنخفض جعلتني أهفو إلى عودتي إلى البيت بعد مغامراتي. لقد كانت كل هذه الأنغام على الجبال الشاهقة الداكنة المهجورة رفاق الطريق.

* * *

الفصل الحادي والعشرون
الفرار في الأعشاب: هيو أف كوريناكيه

على الرغم من انبلاج الصبح مبكرًا في شهر يوليه فقد كانت الظلمة لا تزال باقية حين وصلنا إلى مقصدنا، إنه أخدود في قمة جبل شاهق، تسعى في وسطه مياه جارية، وعلى أحد جانبيه كهف قليل الغور في صخرة، وهناك نمت الأشجار في غابة جميلة قليلة الكثافة، ما لبثت حين تعمقنا المسير أن أصبحت غابة من الصنوبر. كان المجرى مليئًا بالأسماك الصغيرة، والغابة تعج بالحمام البري، وعلى الجانب الظاهر من الجبل، عاشت صقور لا تكف عن الصفير، وطيور مائية كثيرة. أطللنا من فوهة الأخدود على جزء من «مامور». وعلى خليج يفصل ذلك الإقليم عن «آبن»، وكنت إذا ما جلست ونظرت من ذلك الارتفاع الشاهق إلى تلك الأشياء، أخذتني دهشة وبهجة لا تنقطعان.

كان الأخدود يُسمَّى «هيو أف كوريناكيه»، ورغمًا عن ارتفاعه وقربه من سطح البحر إلَّا أن السحب كانت تلتف به دائمًا، ومع ذلك فقد كان على وجه عام مكانًا يدعو إلى البهجة، وعشنا الأيام الخمسة التي قضيناها به في سعادة.

كنا ننام في الكهف، نفترش شجيرات الأعشاب التي قطعناها لهذا الغرض، ونلتحف معطف «ألن». كان هناك في منحنى الوادي الصغير مكان منخفض مختبئ، أوتينا من الشجاعة ما جعلنا نشعل فيه نارًا، وبذلك استطعنا أن ندفئ نفسينا إذا ما حل الغمام، ونطهي الثريد الساخن، ونشوي الأسماك الصغيرة التي أمسكناها بأيدينا من تحت الأحجار، ومن ضفاف المجرى البارزة في الماء. كان في ذلك بهجة لنا وعمل. إننا لم نفعل ذلك لندخر وجبة من الطعام ضد أسوأ الأوقات فحسب، بل لنقيم منافسة بعثت في نفسينا كثيرًا من السلوى. كنا نقطع الجزء الأكبر من أيامنا عند الضفاف عاريين إلى وسطينا نتسكع أو (كما يقولون) نصيد السمك. كانت أكبر سمكة حصلنا عليها تزن ربع رطل تقريبًا، ولكن الأسماك كانت شهية المذاق والرائحة، وعندما شويناها على الفحم كان ينقصها قليل من الملح لتصبح لذيذة المذاق.

في كل وقت مر بنا، كان على «ألن» أن يعلمني كيف استعمل سيفي؛ لأن جهلي به كان يحزنه كثيرًا، وإلى جانب هذا فإني أعتقد أن تفوقي عليه في صيد السمك أحيانًا جعله يميل إلى ممارسة السيف التي كان يبزني فيها كثيرًا. لقد جعل من جهلي بفنون السيف أمرًا مؤلمًا أكثر مما يستحق؛ إذ إنه كان يثور عليَّ أثناء تلقيني الدروس، ويزجرني أعنف الزجر، وكان يقترب مني أشد الاقتراب إلى حد أني كنت أعتقد أنه سيطعنني في جسدي، وكانت كثيرًا ما تراودني نفسي على الفرار من وجهه، ولكني كنت أرسخ في مكاني لأحصل على بعض الفائدة من تلك الدروس، وأقف حذرًا بوجه ثابت، وهذا كل ما كانت تدعو الضرورة إليه غالبًا، ومع أني لم أستطع مطلقًا أن أبعث الرضى في نفس معلمي، إلَّا أني بوجه عام لم أكن برمًا بنفسي، وفي

الوقت ذاته لا ينبغي أن يجول بخاطرك أننا أهملنا مهمتنا الأساسية، وهي أن نبتعد عن ذلك المكان، ففي صبيحة اليوم الأول، قال «ألن»:

«ستنقضي أيام كثيرة طوال قبل أن يفكر ذوو السترات الحمراء في تفتيش «كورياكيه»، ولذا فجدير بنا الآن أن نبعث بكلمة إلى «جيمس» وعليه أن يرسل إلينا مالًا».

فقلت: «وكيف سنبعث بها؟ نحن هنا في مكان مهجور لا نجرؤ على أن نبرحه، وإن لم تجعل من طيور السماء رسلًا لك، فإني لا أتصور ماذا تستطيع أن تفعله».

قال «ألن»: «نعم، إنك رجل قليل الخبرة يا ديفيد».

عند هذا سبح فكره ونظر إلى جذوة نار، ثم أسرع فأمسك بقطعة من الخشب وصاغ منها صليبًا غمس أطرافه في الفحم فأمست سوداء، ثم نظر إليَّ في شيء من الخجل. وقال:

«أتستطيع أن تقرضني الزرار الذي أعطيته لك؟ قد يبدو غريبًا أن يسترد إنسان شيئًا سبق له أن أهداه، ولكن لك مني الوعد بأني سأقطع لك زرارًا آخر».

أعطيته الزرار، فحاكه على قطعة صغيرة من معطفه كان قد استعملها في ربط الصليب، وبعد أن ثبت شعبة صغير من نوع من الأشجار وأخرى من أشجار الموسكي، نظر إلى ما صنعه وقد استراحت نفسه، ثم قال:

«والآن، هنا مزرعة صغيرة (تسمونها باللغة الإنجليزية قرية صغيرة) لا تبعد كثيرًا عن «كوراناكيه» اسمها «كواليز ناكون» هناك. هناك يعيش أصدقاء كثيرون أستطيع أن أأتمنهم على حياتي، وقليلون لا أثق بهم ثقة مطلقة. إنك ترى يا «ديفيد» أنهم قد رصدوا المال ثمنًا لرأسينا، وقد فعل «جيمس» نفسه مثل ما فعلوا، أما «آل كامبل» فلن يضنوا بالمال طالما أن ذلك سيلحق الأذى بأي شخص من «آل ستيوارت»، ولو كان الأمر خلاف ما ذكرت، لهبطت ذاهبًا إلى «كواليز ناكون» مطمئنًا على حياتي بين أيدي هؤلاء الناس غير حافل بشيء، كما أأتمن شخصًا آخر على قفازي».

فقلت: «أما والأمر كذلك، فماذا سنفعل إذَنْ؟».

قال ألن: «في هذه الحال، أدعو الله ألا يروني، يوجد قوم سوء في كل مكان، وأسوأ من هذا وجود المستضعفين، لذا، إذا ما عاد الظلام فسأنزل خلسة إلى المزرعة، وأترك ذلك الصليب في نافذة صديق حميم لي اسمه «جون برك ماكول» وهو أحد المستأجرين(5) لأرض آبن». فقلت من أعماق قلبي:

(5) نوع من المستأجرين يأخذ قطعة أرض من المالك، ويساهم معه في الربح.

«وماذا يظن إذا وجده؟».

فقال «ألن»: «حسنًا لكم وددت أن يكون على جانب وفير من الفطنة، وهأنذا أقسم على أني خائف من أنه لن يفعل به إلّا قليلًا، وإني لأفسر لك ما عمدت إليه: إن

الصليب يعني شيئًا ما في مدلول الصليب المشتعل، وهذه إشارة التجمع في عشائرنا، ومع ذلك فإنه سيعلم تمامًا أن العشيرة لا ينبغي أن تثور؛ لأن الصليب سيكون في النافذة ولا كلمة معه، لذا فإنه سيقول لنفسه: «لا ينبغي على العشيرة أن تثور، ولكن هناك شيء ما». ثم إنه سيرى زراري الذي كان زرار «دنكان ستيوارت»، فيقول لنفسه إن ابن «دنكان» في العشب وهو في حاجة إليَّ».

فقلت: «حسنًا، قد يكون ذلك، ولكن إذا سلمنا بهذا فإن هناك كثيرًا من العشب بين مكاننا وبين الخليج».

فقال: «لقد قلت صدقًا، ولكن «جون بريك» سيرى شعبة الشجر وشعبة الصنوبر، فيقول لنفسه: (لو كان به ذرة من الذكاء وهذا ما لا تأخذني به ريبة) إن «ألن» مختبئ في غابة فيها أشجار صغيرة وأشجار الصنوبر، ثم يقدح زناد فكره ويقول لنفسه: «إن هذا المكان ليس ببعيد عني» فيأتي ليرانا في كوريناكيه، وإن لم يفعل يا «ديفيد» فليأخذه الشيطان؛ لأنه في هذه الحال لن يساوي قدر الملح الذي يوضع في ثريده».

فقلت في شيء من الدعابة: «إه يا رجل، إنك مفرط الذكاء، ولكن أليس من الأسهل لك أن تسطر له بضع كلمات؟».

فقال «ألن» مداعبًا: «إنها ملاحظة لها وزنها يا سيد «بلفور». من اليسير عليَّ أن أكتب، ولكن القراءة مهمة شاقة على «جون بريك»؛ لأنه يجب أن يذهب إلى المدرسة سنتين أو ثلاثًا، ومن المحتمل أن يضنينا انتظاره».

وعلى ذلك، حمل «ألن» صليبه المشتعل، ونزل به ثم وضعه في نافذة المستأجر. وعندما عاد، كان الفزع يبدو عليه؛ لأن الكلاب قد نبحت، وخرج الناس من دورهم مسرعين، وخيل إليه أنه سمع صلصلة الأسلحة، ورأى أحد ذوي السترات الحمراء يأتي إلى أحد الأبواب. وعلى أي حال فقد أمضينا اليوم التالي بطوله عند حافة الغابة وظللنا نراقب، فإذا كان القادم «جون بريك» فسنكون على استعداد لأن ندله على الطريق، أما إذا كان القادم أحد ذوي السترات الحمراء، فسيكون لدينا فسحة من الوقت لنولي الأدبار.

رأينا عند الظهيرة رجلًا يجد في المسير تحت الشمس على الجانب المكشوف من الجبل، يتلفت حوله أثناء قدومه، وقد وضع يده فوق عينه اتقاء الشمس. لم يكد «ألن» يراه حتى بعث صفيرًا، فاستدار الرجل وتقدم نحونا قليلًا، وكان على «ألن» أن يختلس النظر مرة أخرى، والرجل لا يزال يقترب وقد اقتاده صوت الصفير إلى حيث كنا.

كان الرجل على الفطرة، ملتحيًا، يرتدي أسمالًا بالية، في حوالي الأربعين من عمره، مشوه الوجه إلى درجة كبيرة من أثر الجدري، يبدو شرسًا غبيًّا، ومع أن لغته الإنجليزية كانت شديدة السوء محطمة، فقد أكرهه «ألن» (طبقًا لأسلوبه الرقيق طوال أيامي معه) على ألا يتكلم الإسكتلندية المحلية. من المحتمل أن تكون لغته

الغريبة قد جعلته يبدو متخلفًا عن حقيقته، ولكنه خيل إليَّ أنه كان شديد الرغبة في خدمتنا، وأن ما بدا عليه لم يكن إلَّا وليد الفزع.

كان «ألن» يريد أن يحمله رسالة شفوية إلى «جيمس»، ولكن المستأجر رفض ذلك قائلًا بصوته الصارخ:

«سوف أنساها. وإنه إما أن يأخذ خطابًا، وإما أن ينفض يده». ظننت أن الحيرة ستأخذ «ألن»؛ لأنه لم يكن لدينا وسائل للكتابة في تلك الصحراء، ولكنه كان أكثر دهاء مما ظننته، فظل يفتش في الغابة حتى عثر على ريشة حمامة برية فصاغ منها قلمًا، وصنع نوعًا من المداد من وعاء باروده الذي يشبه القرن، ومزجه بماء من الغدير الجاري، وبعد أن مزق قطعة من شرائطه العسكرية الفرنسية (التي كان يحملها في جيبه كطلسم يصونه من حبال المشانق، جلس وكتب ما يلي:

«قريبي العزيز،

أرجو أن ترسل النقود مع حامل هذا إلى المكان الذي يعرفه.

ابن عمك المحب

أ.س».

ثم أعطى الرسالة للرجل الذي وعد بأن يذهب بها بأسرع ما يستطيع، فحملها ونزل بها من فوق التل.

مضى على رحيله ثلاثة أيام كاملة، وفي حوالي الخامسة من مساء اليوم الثالث، سمعنا صفيرًا في الغابة ردده «ألن»، فأتى الرجل مسرعًا إلى شاطئ المياه يتلفت يمنة ويسرة في البحث عنا، وقد بدا أقل عبوسًا عن ذي قبل، وكان بلا شك مبتهجًا أشد البهجة لقيامه بهذه المهمة الخطيرة، قص علينا الرجل أخبار الإقليم قائلًا بأنه ممتلئ بالحركة والحياة لوجود ذوي السترات الحمراء، وعثورهم على الأسلحة، وأن الناس المقيمين قد أصبحوا في تعاسة مقيمة، وأن «جيمس» وبعض خدمه قد زُجَّ بهم في غياهب السجن عند «حصن وليام» متهمين باشتراكهم في الجريمة. يبدو أنه قد ذاع في جميع الأرجاء أن «ألن» هو الذي أطلق الرصاص، وأن بيانًا قد صدر بمنح مكافأة قدرها مائة جنيه لمن يقبض عليه وعليَّ.

كان هذا أسوأ ما يمكن أن يكون، ثم إن تلك الرسالة المقتضبة التي حملها إلينا المستأجر من «السيدة ستيوارت» كانت تطوي بين سطورها حزنًا موجعًا، فيها ضراعة «لألن» بألا يدعهم يقبضون عليه، مؤكدة له بأنه إذا وقع في أيدي الجنود، فإنه ومعه «جيمس» لن يكونا أفضل من الموتى، وأن المال الذي بعثت به إليه هو كل ما استطاعت أن تستجديه أو تقترضه، وأنها تضرع إلى الله أن يفي بحاجتنا، وقالت أخيرًا إنها تبعث رفق رسالتها بإحدى النشرات التي تتضمن أوصافنا.

قرأنا هذه النشرة فأخذتنا دهشة شديدة، وشيء من الهلع غير قليل؛ لأننا كنا من ناحية كمَن ينظر إلى مرآة، ومن ناحية أخرى كمَن ينظر في فوهة بندقية أحد الأعداء ليقرر ما إذا كانت مصوبة نحوه حقًّا. أعلن عن «ألن» بما يأتي: «رجل

ضئيل الجسد، تنتثر على جلده بثرات، نشيط، في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره، يرتدي قبعة ذات رياش، وسترة فرنسية زرقاء ذات أزرار من فضة، شريطها شديد التلوث، وصدرية حمراء، وسروالًا ذا وبرة مشعثة سوداء». وأما أنا «فصبي طويل القامة، قوي، في حوالي الثامنة عشرة من عمره، يرتدي سترة زرقاء عتيقة شديدة البلى، وقبعة قديمة على طراز قبعات سكان الجبال، وصدرية طويلة من نسيج منزلي خشن، وسروالًا أزرق، عاري الساقين؛ حذاؤه كأحذية سكان الإقليم المنخفض؛ تبرز أصابعه منه؛ يتكلم لغة أهالي الأراضي المنخفضة، وغير ملتحٍ».

ابتهج «ألن» بهجة شديدة حين رأى أنهم لا يزالون يذكرون كامل حليته وأنهم أحصوها، إلَّا أنه نظر إلى شريط سترته بشيء من المذلة عندما جاء إلى كلمة «ملوث». أما فيما يتعلق بي؛ فقد رأيت أنني قد احتللت من النشرة مظهرًا زريًّا، ومع ذلك فقد كنت مسرورًا أيضًا لأني منذ أن بدلت تلك الأسمال، أصبح الوصف غير ذي خطر، بل وباعثًا على نجاتي.

فقلت: «ينبغي أن تبدل ملابسك يا ألن».

فقال: «كلا، فليس عندي حقًّا سواها. سيصبح منظري لطيفًا لو عدت إلى فرنسا بقبعة صغيرة!».

لقد بعث هذا أمرًا آخر اختمر في عقلي، وهو أني لو افترقت عن ألن وملابسه الواشية فإني سآمن القبض عليَّ، وربما انطلقت في جهر إلى مهمتي. لم يكن هذا هو كل ما في الأمر، فإنهم لو قبضوا عليَّ وأنا وحدي، فليس هناك من الأدلة القوية ما يدينني، أما لو فُرض وقبضوا عليَّ وأنا برفقة القاتل المعروف، فسأصبح في موقف خطير. وجدت أنه من النخوة ألا أبوح «لألن» بما يتردد في خاطري، ومع ذلك فقد كنت غير قادر على أن أطرده من خيالي.

فكرت في هذا الأمر على نطاق أوسع عندما أحضر المستأجر كيسًا أخضر به أربعة جنيهات ذهبية، وما يقرب من جنيه قطعًا صغيرة. حقيقة كان ذلك القدر أكثر مما معي، ولكن «ألن» يجب أن يذهب إلى فرنسا في حين أنه لا يمتلك إلَّا أقل من خمسة جنيهات، وعلي أن أصل معه إلى «معبر الملكة»، وهو مكان ليس ببعيد، ولا أمتلك إلَّا أقل من جنيهين، ولذا، فإذا أخذنا الأشياء بنسبتها، فإن رفقة «ألن» ليست خطرًا على حياتي فحسب، بل عبئًا على جيبي أيضًا.

إن شيئًا مما راود فكري لم يدر بالخلد الأمين لصاحبي. كان يعتقد أنه يخدمني، ويعينني على أمري، ويحميني، ولكن ماذا أستطيع أن أفعل إلَّا أن أتمسك بالهدوء. وأكظم الغيظ وأرضى بقضائي؟ قال «ألن» وهو يضع النقود في جيبه:

«إنه مبلغ ضئيل، ولكنه يفي بالغرض، والآن يا «جون بريك»، إذا أعطيتني زراري، فإن هذا السيد وأنا سنبدأ المسير».

ولكن المستأجر بعد أن تحسسه في كيسه المصنوع من الشعر، والذي تدلى أمامه كعادة سكان الجبال، (رغم أنه كان يرتدي ملابس أهل الأراضي المنخفضة مع

سروال بحري) بدأ يدير عينيه على نحو غريب، وقال أخيرًا:

«أظن أنه قد فُقد مني»، فصاح به «ألن»:

«ماذا! أتفقد زراري الذي كان ملكًا لأبي من قبلي؟ الآن، سأخبرك بما يدور بخلدي يا «جون بريك»: يلوح لي أن هذا أسوأ عمل قمت به منذ أن رأت عيناك نور الحياة».

كان «ألن» يضع يديه على ركبتيه عندما تكلم، وينظر إلى المستأجر بفم باسم، ويتراقص في عينيه نور يهدف إلى الأذى بأعدائه. قد يكون المستأجر صادقًا إلى حد ما، ومن المحتمل أن يكون قد عمد إلى الخديعة، وبعد ذلك عندما وجد نفسه وحيدًا بيننا في مكان خاوٍ، رأى أن العودة إلى الأمانة قد تكون أكثر صونًا لحياته على الأقل، وفجأة، بدا وكأنه قد عثر على ذلك الزرار، فأعطاه «لألن» الذي قال له:

«حسنًا، إنه لشيء مجيد يتلاءم وشرف «آل ماكول»، ثم لي. ها هو زراري أعيده إليك، وأشكرك على المساهمة به. إنه قطعة من كل ما تحمله لي من صداقات».

ثم ودع المستأجر عند رحيله أحر وداع قائلًا له:

«سأمنحك دائمًا لقب «الرجل الطيب»؛ لأنك أحسنت معاملتي أيما إحسان، وزججت بنفسك في مخاطرة من أجلي».

وأخيرًا اتخذ المستأجر لنفسه طريقًا، وأما أنا و«ألن» (وقد حزمنا متاعنا) فقد سلكنا طريقًا آخر لنستأنف فرارنا.

* * *

الفصل الثاني والعشرون
الهَرب في العشب: البراري

قضينا حوالي سبع ساعات متواليات في مسيرة شاقة، أتت بنا في الصباح الباكر إلى نهاية سلسلة جبال، واضطجعت أمامنا رقعة من الأرض منخفضة محطمة خاوية كان علينا أن نعبرها آنئذ. لم تكن الشمس قد ارتفعت كثيرًا، وكانت مسلطة على أعيننا، وارتفع قليل من ضباب كالدخان على سطح أرض تكتنفها البراري والمستنقعات، ولذا (كما قال «ألن») فإنه من المحتمل أن يكون هناك عشرون فصيلة من الفرسان ولسنا على بينة من ذلك.

وعلى هذا جلسنا في مكان أجوف بسفح إحدى الربى حتى يرتفع الضباب ويتبدد، وصنعنا لنفسينا طبقًا من الثريد، وعقدنا مجلس حرب، ثم قال «ألن»:

«يا ديفيد، إننا لم نقطع من الطريق إلَّا أقله، فهل سنبقى هنا حتى يُرخي الليل أستاره، أن نخاطر ونشق الطريق إلى الأمام؟»، فقلت:

- «حسنًا، إني متعب حقًّا ولكني أستطيع أن أقطع من المرحلة مثل ما قطعت لو كان هذا كل ما تبقى أمامنا»، فقال «ألن»:

«كلا، ليس الأمر كما تظن فإننا لم نقطع إلَّا أقل من نصف الطريق. ثم ها هو ذا موقفنا فتبصر: إن «آل آبن» يتمنون الموت المحقق لكلينا، ولن نفكر في الجنوب؛ لأنه يعج «بآل كامبل»، وإذا اتجهنا ناحية الشمال فليس وراء هذا من نفع نرتجيه، لا لك يا مَن يبغى الوصول إلى «معبر الملكة»، ولا لي يا من يريد الذهاب إلى فرنسا. حسنًا. إذَنْ لا بد وأن نتجه شرقًا». فقلت مغتبطًا كل الغبطة ولكني كنت أفكر فيما بيني وبين نفسي:

«فليكن شرقًا، ولو استطعت يا رجل أن تسلك طريقًا يبدأ من هذا المكان، وتدعني أتخذ أي طريق آخر، فإن هذا سيكون أجدى على كل منا».

فقال «ألن»:

«حسنًا، إذَنْ فإلى الشرق، ولكن لعلك ترى أننا سنسير وسط أرض تكتنفها المستنقعات، وحالما نصل إليها فلن يكون الأمر إلَّا مجرد مخاطرة؛ إما أن يصيبنا التوفيق وإما الإخفاق. هناك عن بعد توجد أرض مستوية عارية صلعاء، فإلى أي مكان يستطيع الإنسان أن يأوي؟ إذا اعتلى ذوو السترات الحمراء التل، فإنهم يستطيعون أن يروك على مبعدة أميال، وسنشعر بالأسى إذا ما لحقت بنا جيادهم، فإنهم سرعان ما يمتطون صهواتها وينطلقون نحوك. إنه ليس مكانًا صالحًا يا «ديفيد»، وإني لعلى ثقة من أن المسير في هذا المكان في وضح النهار أسوأ منه في الظلام»، فقلت:

«استمع إلى رأيي، إن الموت في «آبن» يتربص بنا، ونحن لا نملك مالًا كثيرًا حتى ولا طعامًا، وكلما طال بهم البحث عنا اقتربوا من التكهن بمكاننا. إن في الأمر مخاطرة من جميع نواحيه، وإني أعدك بأني سأجد في المسير على الطريق حتى نسقط». فابتهج «ألن» وقال:

«هناك فترات تكون فيها شديد الحذر، وراديكاليًّا متطرفًا بحيث لا تصلح لأن تكون برفقة سيد مثلي، ولكن تمر بك فترات أخرى تبدو فيها وفيك بارقة من النخوة، وفي هذه الحالة، أحبك كأخ يا ديفيد».

تصاعد الضباب وتلاشى، فظهر لنا الإقليم منبسطًا خاويًا كالبحر لا أرى على سطحه إلَّا طيور الماء صارخة ورأينا بعيدًا هناك ناحية الشرق قطيعًا من الظباء يتحرك كالنقاط، وكانت الغالبية العظمى من تلك الأرض مكسوة بالأعشاب الضاربة إلى الحمرة، وأكثر الباقي تكتنفه المستنقعات والأوحال، وبرك من مواد نباتية متحجرة أحرق بعضها بنار حامية فأمست سوداء، وكان هناك في مكان آخر غابة أشجارها من خشب الموسكي، منتصبة كالهياكل. لم ترَ عين إنسان مكانًا أشد من هذا قفرًا، ولكنه كان على الأقل خاليًا من الجنود، وهذا ما كنا نصبو إليه، وبذا نزلنا إلى الخلاء وبدأنا متاعبنا ومسيرنا المعوج ناحية الحافة الشرقية. كانت قمم الجبال تحيط بنا من جميع النواحي (لعلك تذكر)، ومن المحتمل أن يرونا في أي لحظة، لذا كان لزامًا علينا أن نختفي في الأماكن المجوفة من تلك البراري، فإذا ما انتحت تلك الأماكن جانبًا عن مقصدنا سرنا على وجه الأرض العارية بحذر لا نهائي. كنا أحيانًا، ولمدة نصف ساعة بأكمله، نزحف من شجيرة عشب إلى أخرى كالصيادين حين يشددون النكير على الظباء. عاد النهار إلى صفائه بشمسه الساطعة، وفرغت الزجاجة من مائها، وبالجملة لو كنت قد عرفت مقدار التعب من جراء الزحف نصف الوقت على بطني، والسير معظم الباقي منحنيًا إلى مستوى ركبتي تقريبًا، لما ترددت في الرجوع عن هذا المشروع القاتل.

وبين التعب والراحة، ثم العودة إلى التعب مرة أخرى أفنينا الصباح، فإذا انتصف النهار أو كاد، لجأنا إلى شجيرات كثيفة من العشب واستلقينا لننام. أخذ «ألن» نوبة المراقبة الأولى، وخيل إليَّ أني لم أغمض عيني إلَّا قليلًا قبل أن يهزني «ألن» لأتولى المراقبة الثانية، ولما لم يكن لدينا ساعة تدلنا على الوقت فقد غرس «ألن» شعبة من فروع الأشجار في الأرض لنستعيض بها عنها، فإذا ما مال الظل بعيدًا ناحية الشرق، فهذا يعني عندي أني أوقظه، ولكن التعب في ذلك الوقت قد بلغ منتهاه، حتى إني كنت أستطيع أن أنام اثنتي عشرة ساعة متصلة. كان مذاق النعاس لا يزال في عيني، ونامت أوصالي حتى في يقظة عقلي، ثم إن رائحة العشب الساخنة وذكر النحل البري كانا بالنسبة لي كلبنٍ حلو ممزوج بخمر أثملني، وكنت بين الحين والحين أجد أن النعاس قد غلبني فأقفز مذعورًا. وعندما استيقظت لآخر مرة كنت كمَن عاد من سفر بعيد، وخيل إليَّ أن الشمس قد قطعت مرحلة طويلة في السماوات. وبين الخوف والخجل أوشك عقلي أن يجنَّ، وعندما نظرت حولي في الخلاء كاد عقلي أن يحتضر في جسدي لأني رأيت حقًّا جماعة من جنود الفرسان

كانوا قد هبطوا أثناء نومي يقتربون منا من ناحية الجنوب الشرقي وقد انتشروا على شكل مروحة، يمتطون جيادهم ويسيرون ذهابًا وجيئة في بقاع العشب العميقة.

عندما أيقظت «ألن»، نظر أولًا إلى الجنود، ثم إلى علامة الظل وموضع الشمس، فقطب جبينه ونظر إليَّ نظرة مفاجئة سريعة بشعة قلقة، وهذا كل ما وقع عليَّ منه من لوم، فسألته:

- ماذا علينا أن نفعله الآن؟

فقال: «ينبغي أن نكون كالأرانب البرية، أترى ذلك الجبل؟»، ثم أشار ناحية السماء الشمالية الشرقية! فقلت له:

«نعم».

فقال: «حسنًا. إذَنْ فلنقصد إليه. اسمه «بن ألدر» إنه جبل وعر موحش مليء بالتلال والجحور، فلو استطعنا أن نبلغه قبل أن ينبلج الصبح، فمن المحتمل أن يكون هناك أمامنا فرصة للنجاة».

فصحت: «ولكن ذلك سيجرنا إلى نفس الطريق الذي سيأتي منه الجنود».

فقال: «إني أعلم ذلك حق العلم، ولكن لو سيق بنا راجعين إلى «آبن» فما لنا إلى الموت، لذا، كن الآن نشطًا يا «ديفيد» أيها الرجل».

بذلك بدأ يعدو منطلقًا إلى الأمام على يديه وركبتيه بسرعة لا يمكن تصديقها، كما لو كان ذلك أسلوبه العادي في المسير، وظل طوال الوقت ينعطف على أجزاء البراري المنخفضة، يدخل إليها حينًا، ويخرج منها حينًا آخر، وكانت أحسن موئل لنا، كان بعضها قد دمرته النار تدميرًا أو أتلفته على الأقل، وهناك ارتفع إلى وجوهنا (التي كادت تلامس الأرض) تراب يعشى، خانق، كالدخان في رقته. كانت زجاجة المياه قد فرغت منذ مدة طويلة، وكانت طريقة الجري هذه على الأيدي والركب تسبب وهنًا وتعبًا شديدين فتألم أوصالك، ويخور معصماك تحت ثقلك.

كنا حقًّا بين الحين والحين نستلقي لحظات حيث نجد مجموعة شجيرات من العشب ونحن نلهث ونزيح أوراق الأشجار جانبًا، وننظر خلفنا نحو جنود الفرسان، إنهم لم يرونا لأنهم سلكوا طريقًا مستقيمًا إلى الأمام، كانوا نصف جيش على ما أعتقد، يغطون من الأرض مساحة قدرها ميلان تقريبًا، يدقون فوقها بأكملها دقًّا قويًّا كلما ساروا. حقًّا لقد استيقظت في الوقت المحدد، ربما كان متأخرًا بعض الشيء، ولكن يخيل إليَّ أننا هربنا أمامهم بدل أن ننتحي جانبًا، وحتى ونحن في هذا الموقف فإن أقل سوء حظ كان يفشي سرنا؛ لأن طيور القطا كانت بين الحين والحين تهب من العشب مصفقة بأجنحتها، فكنا نظل في مكاننا ساكنين كالموتى، نخشى أن نتنفس.

إن ضنى جسدي وضعفه؛ وجهد قلبي، وأوجاع يدي، والألم المبرح في حلقي وعيني من أثر الدخان المستمر المتصاعد من التراب والهشيم، قد تزايدت حتى أصبحت لا تطاق، وخيل إليَّ أني كنت أحس بالسعادة لو أسلمت نفسي.

لم يكن هناك ما نفث فيَّ نوعًا من الشجاعة الزائفة لكي أواصل المسير إلا الخوف من «ألن» أما هو، (ولعلك لا تنس أنه كان مثقلًا بمعطف كبير)، فقد استحال لونه أول الأمر فأصبح قرمزيًّا، ولكن كلما مضى الوقت، بدأت الحمرة تختلط بنقط بيضاء، وكانت أنفاسه في الزفير تصرخ وتصفر، وكان صوته يرن في مسمعي وكأنه ليس شيئًا بشريًّا إذا ما همس في أذني وأدلى إليَّ بملاحظاته في أثناء توقفنا، ومع ذلك فلم يبد بأي حال من الأحوال أن روحه قد تحطمت، أو أن عزيمته قد فترت، لذا، كنت مسوقًا إلى الإعجاب بقوة الرجل على الاحتمال وصلابته.

وأخيرًا، وعندما أقبل غسق الليل، سمعنا صوت نفير، ولما نظرنا خلفنا من بين الأعشاب، أبصرنا بالجنود وقد بدأوا يتجمعون، وبعد قليل أشعلوا نارًا، وأقاموا معسكرًا لتلك الليلة في وسط الأرض المقفرة تقريبًا.

عند هذا رجوته وضرعت إليه أن نستلقي وننام.

فقال «ألن»: «لن يكون هناك الليلة نوم، منذ الآن فصاعدًا سيلتزم أولئك الفرسان المتعبون أعلى مكان في أرض البراري، ولن يبرح «آبن» إلَّا الطيور المجنحة. إننا بمشقة قد اجتزنا الصعاب في الوقت الملائم فهل نخاطر بما ربحنا؟ كلا، كلا عندما يقبل الصباح سيجدك ويجدني في مكان قصي فوق بن آلدر». فقلت:

«إن العزيمة لا تنقصني يا «ألن» ولكن تعوزني القوة، ولو استطعت مواصلة المسير لفعلت، ولكني واثق، ثقتي بأني على قيد الحياة، أني غير قادر».

فقال «ألن»: «حسنًا جدًّا، سأحملك إذَنْ».

نظرت إليه لأرى ما إذا كان مازحًا، ولكنه لم يكن، بل كان الرجل الضئيل في الحقيقة جادًّا وغير هازل، فأخجلني مرأى هذا العزم الشديد.

قلت: «تقدمني وسأتبعك»، فرمقني بنظرة واحدة كمَن يقول «حسنًا فعلت يا ديفيد»، ثم انطلق ثانية بأقصى سرعته.

اشتدت البرودة وازدادت الظلمة قليلًا مع مقدم الليل، وكانت السماء خالية من السحب ونحن لا نزال في أيام شهر يوليو الأولى، وإذا نظرت ناحية الشمال تمامًا، فإنك تكون في حاجة إلى قوة إبصار حادة لتقرأ في أشد أوقات تلك الليلة ظلامًا، ولكنني مع كل هذا كنت كثيرًا ما أرى ظهيرة يوم من أيام الشتاء أشد ظلمة من تلك الليلة.

تساقط الندى ثقيلًا كحبات المطر، فبلل البراري، وقد أنعشني هذا حينًا، وعندما توقفنا لنجتذب أنفاسنا، كان لديَّ من الوقت ما يتيح لي أن أرى كل ما يحيط بي: صفاء الليل ورقته، أشباح التلال كالأشياء النائمة، والنار تتضاءل من خلفنا كنقطة براقة وسط البراري، وقد كان كل هذا مبعث غضبي الذي تلاطم كقصف الرعد؛ لأني كنت مكرهًا إلى أن أجر نفسي (يعصف بي ألم مبرح) وآكل التراب كالهوام. ومن كل ما قرأت في الكتب، أظن أن القليل ممن علقوا أقلامهم بين أناملهم وكتبوا لم يقاسوا الأهوال حقيقة، وإلا لكانوا قد صوروها على نحو أكثر بيانًا.

في تلك اللحظة ما عبأت بحياتي في الماضي أو في المستقبل، وقليلًا ما كنت أتذكر أن شخصًا كالصبي «ديفيد» قد ولد حقًّا. لم أفكر في نفسي، ولكني ظللت أفكر في أن كل خطوة أخطوها ستكون الأخيرة. كنت أفكر يائسًا، كارهًا «لألن» الذي كان سببًا في كل هذا. كان «ألن» جنديًّا بمعناه الصحيح، وميزة الضابط هي أن يجعل الرجال يستمرون في عمل الأشياء، لا يعرفون لماذا ومتى، ولو عرض عليهم حق الخيار، لاستلقوا حيث كانوا ليقتلوا. ربما أكون قد قمت بقسط وافر من عملي كجندي بسيط؛ لأنه في تلك الساعات الأخيرة لم يكن لي أي حق في الخيار، ولكن كان عليَّ أن أرضخ طالما أني قادر، ثم أموت مطيعًا.

بدأ النهار يخطو بعد ليلة خلتها سنينًا، وكنا في ذلك الوقت قد اجتزنا أشد المخاطر خطرًا، واستطعنا أن نسير على أقدامنا كالبشر بدلًا من أن نزحف كالسائمة. ترفق بي يا قلبي.

أي نوع من الرفاق كنا! سرنا معًا زوجًا متلازمين كجدين تقدمت بهما السنون، نتعثر كالولدان، ووجهانا في بياض وجوه الموتى. لم يدر بيننا أي حديث، فقد أغلق كلانا فمه؛ تنظر عيناه إلى الأمام؛ يرفع قدمه ثم يضعها ثانية على الأرض كأولئك الذين يحملون الأثقال في موالد القرى. كنا طوال الوقت نسمع الطيور المائية تصرخ في العشب «بيب»، ونرى نور النهار يحبو من ناحية الشرق أقوى صفاء.

أقول إن «ألن» فعل مثل ما فعلت. عرفت ذلك رغم أني لم أنظر إليه لكثرة ما كان حالي يشغل بالي، ولكن لأنه كان واضحًا أن التعب قد طمس على بصيرته مثلما طمس على بصيرتي، ولم يكن نظر «ألن» ليمتد بعيدًا عنا حيث نسير، وإلا لما وقعنا في مكمن كالعميان، وقد حدث ذلك على الصورة الآتية: كنا نهبط من صخرة نمت عليها مجموعة من العشب، و«ألن» يقودني وأنا أتبعه على مبعدة خطوة أو اثنتين من ورائه، كعازف على الكمان وزوجته. عندما فوجئنا بسماع حفيف بين الأعشاب، ثم قفز ثلاثة أو أربعة رجال يرتدون ملابس رثة، وما هي إلَّا فترة حتى وجدنا نفسينا مستلقيين على الأرض وخنجرًا على رقبة كل منا.

أعتقد أني لم أكترث لهذا؛ لأن الألم من جراء هذا القبض العنيف قد ذاب تمامًا أمام تلك الآلام التي ألمت بجسدي، وكنت سعيدًا كل السعادة لهذا التوقف عن المسير، إلى حد أني لم أحفل بالخنجر.

رقدت أنظر إلى وجه الرجل الذي قبض عليَّ، وإني لأذكر أن وجهه كانت تكسوه سمرة وقد لفحته الشمس. وأن عينيه تشعان بريقًا، ولكني لم أخف منه. سمعت «ألن» وآخر يتهامسان باللغة الإسكتلندية المحلية، ولم أفهم شيئًا من كل ما قالاه، ثم رفعوا الخناجر وانتزعوا منا أسلحتنا وجلسنا بين العشب وجهًا إلى وجه، ثم قال «ألن»:

«إنهم رجال «كلاني»، لم يكن من المستطاع أن نقع في قبضة أفضل. يجب أن ننتظر هنا مع هؤلاء الرجال. وهم حراسه الخارجيون. حتى يحملوا إلى الزعيم نبأ وصولي».

كان «كلاني ماكفرسون» رئيس عشيرة «فوريش» أحد قواد الثورة العظمى منذ ست سنوات، وقد رصدوا لحياته ثمنًا. وكنت أعتقد أنه في فرنسا منذ أمد طويل مع غيره من أقطاب الحزب الثائر، ومع أني كنت أعاني تعبًا شديدًا، إلَّا أن الدهشة مما سمعت قد جعلتني في غير كامل يقظتي، فصحت:

«ماذا؟ هل «كلاني» لا يزال هنا؟».

فقال «ألن»: «نعم، إنه هنا؛ ولا يزال في إقليمه في حمى رجال عشيرته، والملك «جورج» لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك».

أظن أني كنت راغبًا في الاسترسال في الأسئلة، ولكن «ألن» أرجأ ذلك قائلًا:

«إني أحس بأنني متعب بعض الشيء، وإنه ليطيب لي أن أنام». ثم مضى نحو مجموعة من شجيرات العشب دون أن نتحدث إلى أكثر من هذا، ويبدو أنه قد نام على الفور، ولكني لم أستطع أن أفعل مثل ما فعل. هل سمعت حشرة النطاط (الحناديب) وهي تئز في الحشائش إبَّان الصيف؟ حسنًا، لم أكد أغمض عيني حتى بدا جسدي وخاصة رأسي وأحشائي ومعصمي وكأنها قد امتلأت بهذه الحشرات الطنانة، لذا قد رأيت نفسي مضطرًّا إلى أن أفتح عيني ثانية في الحال، وأتمرغ، وأندفع، وأجلس ثم أرقد، وأنظر إلى السماء التي بهرت بصري، وإلى حراس «كلاني» القذرين الغلاظ وهم يرقبون قمة الصخرة، ويتحدثون إلى بعضهم البعض باللغة الإسكتلندية المحلية.

كان هذا هو القسط الذي نلته من راحة حتى عاد الرسول، فإذا استبان لنا أن «كلاني» سيسره لقاؤنا، فلا بد وأن نهب على أقدامنا مرة أخرى ونتقدم.

كان «ألن» يتمتع بروح معنوية عالية، وقد انتعش كثيرًا من نومه، يلذعه الجوع فيرنو إلى كأس من الخمر وإلى طبق من شرائح اللحم الساخنة، ويبدو أن الرسول قد وعده بهما، أما من جهتي فقد كان مجرد سماعي بالطعام يجعلني أعافه. لقد كنت قبل الآن أحس بأنني شديد الثقل، ولكني الآن أشعر بخفة فائقة فأصبحت لا أتألم من المسير، بل كنت أهتز كأزهار يعبث بها النسيم.

بدت الأرض أمامي كالغمام، والتلال وكأنها في وزن الريشة، والهواء تيار كتيار ذلك المجرى المتدفق الذي حملني ذهابًا وجيئة، ورغم كل هذا فقد ران على عقلي نوع من فزع اليأس، حتى كدت أبكي من فرط عجزي.

رأيت «ألن» ينظر نحوي مقطب الجبين فخلته غاضبًا وقد سبب ذلك لي ألم خوف طائش من ذلك النوع الذي يستولي على الطفل.

أذكر أيضًا أنني كنت أبتسم، وحاولت جاهدًا أن أتوقف عن ذلك لأني رأيت أن هذا عمل لا يليق في مثل ذلك الوقت، ولكن رفيقي الطيب لم يكن ليحمل له بين أضالعه غير الحنان، وفي اللحظة التالية، أمسك بي اثنان من الأدلاء، وبدآ يحملاني ويتقدمان بي بسرعة فائقة (أو أنه شُبِّهَ لي، ولو أنه من المحتمل أنهما كانا مبطئين حقًّا) في متاهة من الوديان الموحشة، والتجاويف، والطرق الداخلية في قلب «بن آلدر» ذلك الجبل المظلم.

* * *

الفصل الثالث والعشرون
قفص «كلاني»

وأخيرًا وصلنا إلى طرف غابة شديدة الانحدار تجاوز ميلها المدى، تسلقت سفح تل صخري يتوِّجه جرف شاهق العلة عار، فقال أحد الأدلاء:

«إنه هنا»، فصعدنا التل، وكانت الأشجار عالقة بالمنحدر كما يعلق البحارة بحبال سارية السفينة، وكانت جذوعها كدرجات السلم، فتسلقناه عليها.

وعند القمة تمامًا، وقبل أن يطل الوجه الصخري للصخرة الشاهقة على أوراق النباتات، وجدنا المنزل العجيب الذي كان معروفًا في ذلك الإقليم باسم «قفص كلاني» كانت جذوع بعض الأشجار مجدولة عرضًا، والفواصل مقواة بالأوتاد، والأرض من خلف هذا مستوية مع الثرى فتكونت منها أرض المنزل. وشجرة نبتت بارزة من سفح التل فأصبحت دعامة حية في وسط السقف. لم تكن الجدران إلَّا أسياجًا من أغصان مضفورة. مغطاة بالطحلب، وكاد المنزل في مجموعه أن يكون بيضاوي الشكل، وهو نصف مدلى أو نصف قائم في تلك الغابة النامية على سفح التل شديد الانحدار، وكان كعش زنابير في شجيرة مورقة، أما داخله فكان من السعة بحيث يأوي خمسة أو ستة أشخاص دون أن يضيقوا به، وهناك نتوء في الصخرة العالية قد استخدم بدهاء لكي يكون مدفأة، والدخان يتصاعد على وجه الصخرة، ولما كانا غير مختلفين في اللون، فإن أحدًا لم يكن ليفطن إليها بسرعة من أسفل.

لم يكن هذا القفص سوى أحد الأماكن التي يختفي فيها «كلاني»، وكان إلى جانب هذا يمتلك كهوفًا وحجرات تحت الأرض في أماكن مختلفة من إقليمه، وكان ينتقل من مكان إلى آخر تبعًا لتقارير كشافيه، وطبقًا لتحركات الجنود في اقترابهم وابتعادهم، وبهذا الأسلوب في العيش وبفضل محبة عشيرته له، عاش طوال حياته في أمان، بينما فر كثير من الآخرين، أو قبض عليهم ثم ذبحوا، ولكنه بقي بعد ذلك أربع سنوات أو خمسًا، ولم يذهب إلى فرنسا إلَّا أخيرًا بأمر خاص من سيده، ولم يلبث أن واتته المنية هناك، وإنه لعجيب أن أعتقد أنه ربما يكون قد مات كمدًا على قفصه المقام فوق جبل «بن ألدر».

عندما بلغنا الباب، وجدنا الرجل جالسًا بجوار مدفئته الصخرية يراقب أحد أتباعه يطهي شيئًا من الطعام. كان يرتدي ملابس شديدة البساطة، وغطاء رأس من نسيج يدوي مدلى على أذنيه، يدخن غليونًا قصيرًا قذرًا، ومع كل هذا فقد كان يتحلى بآداب الملوك، وقد تجلى ذلك عندما رأيته ينهض من مكانه ليرحب بنا قائلًا:

«حسنًا، السيد «ستيوارت»، تفضل يا سيدي ومعك صديقك الذي لم أعرف اسمع بعد».

فقال «ألن»: «كيف حالك يا «كلاني»؟ آمل أن تكون دائبًا على نضالك يا سيدي، وإني لفخور بأن أراك، وأن أقدم لك صديقي. إنه السيد ديفيد بلفور».

لم يسبق لألن ونحن وحيدان أن ذكر ضيعتي دون لمزة من السخرية، ولكنه كان أمام الغرباء يبعث الكلمات مدوية وكأنه مناد.

قال «كلاني»: «تقدما كلاكما أيها السيدان. إنكما على الرحب والسعة هنا في داري العجيبة، إنها بلا شك دار غير مصقولة، ولكني استضفت فيها ذات يوم شخصية ملكية، إنك بلا ريب يا سيد «ستيوارت» تعرف تلك الشخصية التي لا تزال صورتها ماثلة أمام عيني. سنشرب الآن كأسًا نخب الحظ، وعندما ينتهي هذا الرجل البطيء من إعداد شرائح اللحم، فإننا نتناول طعامنا، ثم نلعب الورق شأن السادة». ثم قال وهو يفرغ الراح في الأقداح: «إن في حياتي شيئًا من الوحشة، لا أرى من الرفاق إلَّا القلائل، وأجلس وأدير إبهامي، ويسبح فكري في يوم عظيم قد انقضى، متعبًا من أجل يوم عظيم آخر نأمل جميعًا أن نكون في الطريق إليه، وعلى ذلك تعاليا نشرب نخب عودة «آل ستيوارت» إلى العرش» وهنا قرعنا كؤوسنا جميعًا. إني على ثقة من أنني لا أطوي في نفسي ضغنًا للملك «جورج»، ولو كان هو نفسه هناك، لكان من المحتمل أن يشرب النخب مثل ما شربت. لم أكد أنتهي من تناول الشراب، حتى أحسست بأني أفضل كثيرًا من ذي قبل، وأني أستطيع أن أسمع وأرى، ولكن من المحتمل أن يكون في هذا شيء من الإبهام، ولكنه لم يكن مصحوبًا بحيرة العقل، أو مقرونًا بذلك الفزع الذي لا مبرر له.

لقد كان المكان غريبًا حقًّا ومضيفنا عجيبًا أيضًا، جعله طول اختفائه يكلف بأساليب العادات الدقيقة أشد الكلف، كما تتمسك العوانس بعاداتهن. كان له مكان خاص ليس لأحد سواه أن يجلس فيه، ورتب على نسق معين بحيث لا يخل بنظامه أحد، وكانت عملية الطبخ إحدى هواياته المفضلة، بدليل أن لم يحول نظره عن شرائح اللحم في أثناء تحيته لنا.

يبدو أنه كان يقوم أحيانًا ببعض الزيارات، أو يستقبل زوجته وصديقًا أو اثنين من أقربهم إليه تحت ستر الليل، ولكنه قضى أكثر أيامه وحيدًا، ولم يكن على صلة بأحد سوى حراسه وأتباعه الذين يقومون على خدمته في القفص. وكان أول شيء يفعله في الصباح هو أن يستدعي أحد رجاله الذي يعمل حلاقًا، فيأتي ويحلق لحيته ويقص عليه أنباء الإقليم التي كان شديد اللهفة على سماعها. لم يكن لاستفساراته من نهاية وكان يسألها بلهفة الأطفال، ويضحك بصورة خارجة عن حدود النهي عند تلقي بعض الإجابات، وينفجر ضاحكًا مرة أخرى بعد أن ينصرف الحلاق بساعات لمجرد الذكرى.

حقًّا لا بد وأن يكون هناك مأرب يهدف إليه من وراء أسئلته هذه؛ لأنه رغم اختفائه على هذه الصورة، وأنه كباقي السادة من ملاك الأراضي الإسكتلنديين مجرد من السلطات الشرعية بموجب القانون الأخير الذي أصدره البرلمان، فإنه ما زال يمارس عدالة زعيم القبيلة بين أفراد عشيرته. كانت المنازعات تعرض عليه في جحره المختبئ ليتخذ فيها قرارًا، أما رجال إقليمه الذين كانوا يقضمون أصابعهم

عند المحاكمة، فقد طرحوا الانتقام جانبًا، وكانوا يدفعون المال لمجرد كلمة تصدر عن ذلك الرجل المصادر طريد العدالة، وعندما يغضب، وكثيرًا ما كان يغضب، فإنه يصدر أوامره ويصيح منذرًا بالعقاب كأي ملك، ويرتعد خدمه ويفرون من أمامه زاحفين كما يفر الأطفال أمام أب في طبعه حدة، وعندما يدخل فإنه يصافح كلًّا منهم بكلفة، والحراس والخدم كلهم يمسون قبعاتهم في نفس الوقت على صورة عسكرية، وبالجملة فقد واتتني الفرصة لكي أرى بعض ما يدور في داخل إحدى عشائر الجبال الإسكتلندية. رأيت هذا مع زعيم مطرود هارب، هزم إقليمه، تبحث عنه الجنود في كل ناحية وأحيانًا على مبعدة ميل من حيث يقيم، بينما أن أحط رجاله الذين عنفهم وهددهم كانوا يستطيعون أن يحصلوا على ثروة لو أرادوا الغدر به.

وفي ذلك اليوم الأول عندما انتهى الخادم من إعداد اللحم، وضع «كلاني» بيده عليه شيئًا من عصير الليمون (لأنه كان يستمتع بحياة المترفين)، وأمرنا بأن نقترب لتناول الطعام، ثم أشار إلى شرائح اللحم، وقال:

«إنها كتلك التي أعطيتها لسموه الملكي في هذه الدار نفسها ما خلا عصير الليمون؛ لأننا كنا في ذلك الوقت نكتفي بالحصول على اللحم، ولم نكترث بعدم وجود التوابل، حقًّا لقد كان عدد الفرسان في إقليمي سنة ست وأربعين يفوق عدد الليمون.

لا أعرف إن كانت شرائح اللحم شهية حقًّا، ولكن نفسي عافت مرآها، ولم أستطع أن آكل منها إلا النزر اليسير. كان «كلاني» طوال الوقت يبعث في نفسينا السلوى بالحديث عن إقامة الأمير «شارلي» عنده في القفص، مرددًا نفس الكلمات التي قالها المتحدثون، وناهضًا من مقعده ليرينا الأماكن التي كانوا يقفون فيها، وبهذه الأشياء تجمع في ذهني أن الأمير كان صبيًّا جميلًا، مليئًا بالحياة كسليل الملوك المهذبين، ولكنه لم يكن في حكمة سليمان، وتجمع لديَّ أيضًا أنه كان مخمورًا على الدوام طوال إقامته في القفص، حتى إن هذا الخطأ(6) الذي كان سببًا في هزيمته قد بدأ يظهر على صورة واضحة في أثناء تلك الأيام التي قضاها في القفص.

(6) إدمانه على الشراب.

لم نكد ننتهي من طعامنا حتى أحضر «كلاني» أوراق لعب عتيقة قذرة لوثها الدهن كتلك التي تجدها في حان حقير، ولاح في عينه بريق عندما اقترح أن نلعب الورق.

والآن، كان لعب الورق هذا أحد الأشياء التي نُشِّئْتُ على العزوف عنها، وقد لقنني أبي أنه ليس من التدين في شيء، وأنه ليس لرجل فاضل أن يقيم أود عيشه على الآخرين. ويتصيد المال منهم على هذا الأسلوب.

حقًّا لقد تذرعت بتعبي الذي كان كافيًا بالتماس المعاذير عن الاشتراك في اللعب، ولكني ظننت أنه كان يجدر بي أن أكون عليهما شاهدًا. لا بد وأن وجهي قد أصبح شديد الاحمرار، ولكني تكلمت بثبات، وقلت لهما إنني لم أدع لكي أكون حكمًا للآخرين. ومن ناحيتي فإنه أمر لا أجيد معرفته. توقف «كلاني» عن مزج أوراق اللعب. وقال:

«ما هذا باسم الشيطان؟ أي نوع من ذلك الحديث الراديكالي المدعي للتقوى تسوقه في منزل كلاني ماكفرسون؟»، فقال «ألن»:

«أقسم على أن السيد «بلفور» ليس بكاذب. إنه رجل فاضل أمين ذي نخوة، وسأجعلك تعي ما تقول». ثم أتبع وهو يشد على قبعته «إني أحمل اسم ملك، ثم إني ومن معي وهو مَن أعتبره في مرتبة الصديق، نكون رفقة لا تهدف إلّا إلى الخير، ولكن السيد مضنى وينبغي أن ينام، ولو كان غير راغب في اللعب، فإن هذا لا يعوقك ولا يعوقني أبدًا، فأنا مستعد يا سيدي وراغب في أن ألعب أي نوع من اللعب تريده».

فقال «كلاني»:

- «يا سيدي، أحب أن تعرف أن كل سيد يفد على منزلي هذا الحقير لا بد وأن يفعل ما يحلو له. إذا أراد صاحبك أن يقف على رأسه، فعلى السعة والرحب، ولو كان هو أو أنت أو أي رجل آخر لا يرضى تمام الرضى، فإني سأكون فخورًا عندما أخطو خارج الدار معه لأبارزه».

لم أشأ أن أرى هذين الصديقين يقتتلان من أجلي، فقلت:

«يا سيدي، إني متعب أشد التعب كما يقول «ألن»، هذا ومن المحتمل أن يكون لك أبناء، وعلى ذلك فإني أقول لك إنه كان وعدًا مني لأبي»، فقال «كلاني»:

«لا تقل مزيدًا، لا تقل مزيدًا». وأشار إليَّ لأذهب إلى مضجع من العشب في أحد أركان القفص، وقد أخذه استياء شديد، ونظر إليَّ دهشًا غاضبًا، وفي الواقع، يجب أن أقر بأن إحجامي عن مشاركتهما في اللعب، والأسلوب الذي أعلنته به، جعلاه يأتي بحركة من شفتيه تدل على عدم رضاه عن تمسكي الديني بوعدي لأبي، ولم تصادف كلماتي في الوقت ذاته هوى في نفس هذا اليعقوبي الفظ ساكن الجبال الإسكتلندية.

لقد قهرني ثقل عجيب من جراء تناول الخمر ولحم الغزال، ولم أكد أستلقي على فراشي إلّا قليلًا حتى أخذني نوع من غيبة العقل تلك التي لازمتني أكثر الوقت الذي أمضيته في القفص. كنت أحيانًا في يقظة تامة أعرف ما يدور، أحيانًا أسمع الأصوات فقط، أو غطيط الرجال وكأنه صوت ثائر، وأرى النسيج الصوفي ذي الخطوط الملونة يتضاءل ثم يتزايد ثانية وكأنه ظلال ألسنة النار على السقف. لا بد وأني كنت أحيانًا أتكلم أو أصيح؛ لأني أذكر أن الدهشة كانت تأخذني بين آن وآخر عندما أتلقى جوابًا، ومع ذلك فلم أكن واعيًا لأضغاث أحلام بعينها، ولكني كنت أذكر فقط أن هناك رعبًا شاملًا مقيمًا، رعبًا من المكان الذي كنت فيه، ومن مرقدي، ومن النسيج الصوفي على الجدار، ومن الأصوات والنار ونفسي.

نُودي على الحلاق الذي كان يقوم بدور الطبيب أيضًا؛ لكي يفحصني، فلم أفقه كلمة واحدة من رأيه؛ لأنه كان يتكلم اللغة الإسكتلندية المحلية، وكنت بالغًا من الوجيعة حدًّا جعلني لا أقوى على أن أطلب ترجمة ما قال. كل ما استطعت أن أعرفه هو أنني مريض، وكان هذا كل ما عناني.

لم يكن ليشغل بالي شيء وأنا مستلق على هذا الحال من السقم، وأما «ألن» و«كلاني» فكانا يقطعان أكثر الوقت في لعب الورق، وقد وضح لي أن «ألن» لا بد وأن يكون قد بدأ بالربح؛ لأني أذكر أني جلست وأحدقت النظر فيهما، فرأيت على المائدة كومة كبيرة براقة تبلغ الستين أو المائة من الجنيهات الذهبية. كان يبدو أمرًا غريبًا على المرء أن يرى كل هذه الثروة في عش على سفح صخرة عالية، مصنوع من الأشجار النامية المتشابكة لقد خيل إليَّ في ذلك الوقت أن اللعب كان كمياه عميقة لا يقوى «ألن» على عبورها، وأنه لا يمتلك من الجنود ما يدخل به المعركة أكثر من كيس أخضر ومبلغ يقرب من خمسة جنيهات.

يبدو أن الحظ قد تبدل في اليوم التالي. أيقظوني عند الظهيرة على ما هو مألوف عندي لأتناول طعام الغداء، ولكني رفضت أن أتناوله كما دأبت على ذلك، فأعطوني قدحًا من الخمر ممزوجًا بشيء من نقيع مر كان الحلاق قد أشار به. كانت الشمس تلقي أشعتها خلال القفص المفتوح فبهرت بصري، وبعثت الضيق في نفسي. كان «كلاني» جالسًا إلى المائدة يقضم أوراق اللعب عندما انحنى «ألن» على فراشي، واقترب بوجهه من عيني اللتين كانتا متعبتين وكأنهما محمومتان، وبدتا متضخمتين بشكل مفجع، وطلب مني أن أقرضه نقودي، فقلت له:

«لماذا؟»، قال:

«مجرد قرض»، فأعدت القول:

«ولكن لماذا؟ إني لا أرى لذلك سببًا»، فقال:

«أتضن عليَّ بقرض»؟

لو كنت مالكًا لحواسي لضننت عليه، ولكني لم أفكر في تلك اللحظة في أي شيء إلَّا في أن يبعد وجهه عني، فأعطيته نقودي.

في صبيحة اليوم الثالث، وبعد أن مضى علينا في القفص ثمان وأربعون ساعة، استيقظت من النوم وقد هدأت نفسي، ولكني كنت ضعيفًا أشد الضعف، متعبًا حقًّا، إلَّا أني رأيت الأشياء في حجمها العادي. وبمظهرها اليومي الصحيح، ولي رغبة في تناول الطعام، وفوق ذلك فقد نهضت من الطعام بجهدي وحدي، وبعد أن تناولنا طعام الإفطار، خطوت نحو مدخل القفص، وجلست في الخارج على قمة الغابة. كان يومًا غائمًا، بارد الهواء معتدله، وجلست طوال الصباح كمن في حلم، لم يقض راحتي إلَّا مرور كشافي «كلاني» وخدمه وهم يحملون المؤن والتقارير، ولما كان شاطئ البحر واضحًا في ذلك الوقت، فإنك تستطيع أن تقول إنه يعقد المحكمة في العراء.

وعندما عدت، وجدت أنهما قد وضعا أوراق اللعب جانبًا، و«كلاني» يستجوب أحد الأتباع، فاستدار الزعيم وتحدث إليَّ باللغة الإسكتلندية المحلية، فقلت:

«إني لا أعرف هذه اللغة يا سيدي».

أصبح كل ما أقوله وما أفعله باعثا على الضيق في نفس الرجل منذ أن ثار بيننا الجدل بشأن لعب الورق، فقال غاضبًا:

- «إن اسمك يدل على الحكمة أكثر مما تحمل نفسك لأنه اسم إسكتلندي أصيل، ما علينا، إن التقارير التي رفعها إليَّ الكشافون من رجالي تقول بأن الجنوب كله خال من العوائق، وبذا فإني أسألك الآن «هل لديك من العافية ما يجعلك تقوى على الرحيل؟»

رأيت أوراق اللعب على المائدة ولكني لم أر ذهبًا، بل أبصرت فقط بكومة من الوريقات المكتوبة وكلها إلى ناحية «كلاني» وإلى جانب هذا، فقد بدا وجه «ألن» غريبًا وكأنه لرجل غير راض تمام الرضا، فاستبد بي قلق للنفس شديد، فقلت وأنا أنظر إلى «ألن».

- «لست أدري ما إذا كنت في حالة طيبة كما ينبغي أن أكون، ولكن لا يزال أمام ما معنا من نقود قليلة مدى طويل يجعلها تقصر عن عوننا على أمرنا» أخذ «ألن» شفته السفلى في فمه ونظر إلى الأرض، وأخيرًا قال:

- يا «ديفيد». لقد فقدتها، هذه هي الحقيقة العارية.

«ونقودي أيضًا؟»، فقال «ألن»، وفي نبرات صوته أنة حزينة:

«ونقودك أيضًا. ما كان يجدر بك أن تعطيها لي. إن الجنون يركبني عندما ألعب الورق»، فقال «كلاني»:

«هُوْ، هُوْ، هُوْ، هُوْ، لقد كان الأمر كله لهوًا وعبثًا. لا ريب في أنك ستسترد نقودك وضعفها لو رفعت الكلفة بيننا. إنه لشيء غريب أن أحتفظ بها، وأحب ألا يدور بخلدك أني أقف حجر عثرة في وجه سيدين في مثل موقفكما»، ثم صاح «إن ذلك يكون أمرًا شاذًّا». وبدأ يخرج الذهب من جيبه بوجه شديد الاحمرار.

لم يقل «ألن» شيئًا، ولكنه لبث ينظر إلى الأرض مطأطئ الرأس فقلت لكلاني:

- «هل لك أن تخطو معي ناحية الباب يا سيدي»؟. فقال «كلاني» إن ذلك يسره كل السرور، ثم تبعني مسرعًا، ولكن القلق والضجر كانا باديين على وجهه، فقلت:

«الآن يا سيدي ينبغي عليَّ أن أشيد بجودك»، فصاح «كلاني»:

«هذا هراء! هراء! أين هذا الجود؟ إن لعب الورق ليس إلَّا عملًا منكودًا، ولكن ماذا تظنني أن أفعل؟ هل أعبئ نفسي في خلية النحل هذه في قفصي، أم أجلس مع أصدقائي للعب حين أجدهم؟ فإذا ما خسروا، فلا يعقل طبعًا...»، ثم توقف عن الكلام، فقلت:

«نعم، لو خسروا فإنك ترد لهم نقودهم، وإذا ربحوا فإنهم يعبئون نقودك في أكياسهم، لقد سبق لي أن قلت إنه ينبغي عليَّ أن أعترف بجودك ولكنه شيء مؤلم على نفسي أن أوضع في هذا الموقف».

ساد الصمت برهة، كان «كلاني» يبدو خلالها كمن على وشك الحديث، ولكنه لم يقل شيئًا، بل كان وجهه يزداد احمرارًا طوال الوقت فقلت:

«إنني يافع وأطلب منك النصح. وجه النصيحة إليَّ كما توجهها لابنك، لقد خسر صاحبي نقوده بحق بعد أن ربح منك مبلغًا أوفر منها بحق، فهل لي أن أستردها؟ وهل أكون مصيبًا في هذا العمل؟ لعلك ترى أن أي شيء أفعله سيكون شاقًّا على نفس رجل يشعر بشيء من عزة النفس»، فقال «كلاني»:

«وإنه لشاق على نفسي أيضًا يا سيد «بلفور» أن تنظر إليَّ نظرتك إلى رجل يستدرج المساكين إلى ما فيه إيذاؤهم! إني لا أرضى بأن يأتي صحابي إلى دار من دوري ويلحق بهم الهوان»، ثم صاح صيحة مفاجئة تشتعل غضبًا، وقال: «كلا، ولكني لا أحب أن أعطيهم نقودي كذلك». فقلت:

«وهكذا تلحظ يا سيدي أنني من جانبي أراه لزامًا عليَّ أن أقول بأن المقامرة عمل حقير لا يليق بأفاضل الرجال، ومع ذلك فإني لا أزال أنتظر رأيك».

إني واثق من أن «كلاني» لو كان يكره أحدًا من الخلق، فهذا الرجل هو «ديفيد بلفور»، ولذا فقد رمقني بنظرة شاملة، وبعين جريئة، ورأيت التحدي على شفتيه، ولكن من المحتمل أن يكون شبابي قد أفحمه، أو ربما يكون تفكيره الصائب. كان الأمر في جملته باعثًا على الخجل لكل مَن ساهم فيه، ولم يكن «كلاني» أقل منا إحساسًا بهذا الخجل، وكان ذلك لحسن حظنا، فقال:

- يا سيد «بلفور»، أظن أنك رجل مهذب وعلى العهد باق، وأنك تحمل روح رجل فاضل، وإني على وعدي. تستطيع أن تأخذ هذه النقود، ذلك ما كنت أقوله لابني، وهذه يدي أمدها إليك مع النقود.

* * *

الفصل الرابع والعشرون
الهرب في العشب: الشجار

سيق بنا، ألن وأنا، عبر خليج «لو شئت» تحت غمام الليل، ونزلنا من شاطئه الشرقي إلى مخبأ آخر بالقرب من خليج «رانوش» يقودنا أحد خدم القفص. حمل هذا الرفيق عنا كل متاعنا بما فيه معطف «ألن»، يخب تحت الحمل الذي كان أقل من نصفه كافيًا بأن يجعلني أنوء به.

سار الرجل كحصان تل سمين صغير لا يقوى على حمل ريشة، ومع أنه إذا شجر بيننا نزاع فإني أستطيع أن أحطمه على ركبتي، إلَّا أنه كان بلا ريب عونًا لي على أن أسير غير محمل بأثقال، ومن المحتمل أني ما كنت أقوى على المسير أبدًا لو لم تواتني تلك النجدة، ولولا الشعور الناجم عن الحرية والخفة. لم أكن سوى شخص نهض من فراش المرض حديثًا، ولم يكن هناك في طبيعة عملنا ما يشد عزمي لتحمل مثل هذا الجهد، سائرين، كما سبق لنا أن فعلنا، فوق صحراوات إسكتلندية حالكة الظلام، وتحت سماء غائمة بشتات فكر.

طال بنا الوقت ولم يدر بيننا حديث، وكنا نسير جنبًا إلى جنب أو واحدًا وراء الآخر وكلانا جامد المحيا، فأنا غاضب أخذتني عزة النفس، أستمد كل ما فيَّ من قوة من هذين الشعورين العنيفين، أما «ألن» فكان غاضبًا وخجلًا، خجلًا لأنه فقد نقودي، وغاضبًا لأني سأحمل فعلته في نفسي محمل سوء.

كانت فكرة الانفصال عنه تزداد اشتعالًا في رأسي على الدوام، وكلما ازداد استحساني لها تزايد خجلي من هذا التفكير. قد يكون شيئًا نبيلًا يفصح عن كرم الخلق حقًّا لو استدار «ألن» نحوي وقال لي: «اذهب، إن خطرًا شديدًا يحيق بي، ورفقتي لك باعثة على إذكاء الخطر المحدق بك»، ومن ناحيتي فإني ألتفت نحو الصديق الذي أحبني صدقًا وأقول له «إنك في خطر شديد، ولست إلَّا في خطر قليل، إن صداقتك عبء عليَّ فاذهب وخذ مخاطرك معك، وتحمل متاعبك وحدك». كلا، كان ذلك محالًا، ثم إن مجرد التفكير في هذه الخواطر فيما بيني وبين نفسي، وفي غير علانية، قد ألهب وجنتي.

ومع أن «ألن» قد سلك سلوك طفل (والأسوأ من هذا) سلوك طفل غادر؛ لأن الأسلوب الملق الذي اتخذه في الحصول على نقودي حين كنت نصف واع لا يفضل السرقة إلَّا قليلًا، إلَّا أنه كان يدب إلى جانبي دون أن آبه له. وبما استطعت أن أرى، استبان لي أنه كان مبتهجًا لتطفله على النقود التي ساقني إلى الضراعة في طلبها، حقيقة كنت على استعداد إلى أن أتقاسمها معه، ولكن ثقته في استعدادي هذا قد أثارت غضبي، ارتقى هذان الأمران(7) إلى ذروة فكري، فلم أستطع أن أتحدث عنهما بغير تعصب أسود، ولذا فإن ما فعلته بعد ذلك كان أشد سوءًا، فقد ظللت صامتًا، وما نظرت إلى رفيقي، ولم أفعل شيئًا أكثر من هذا إلَّا أني رمقته بطرف

عيني، وأخيرًا عندما كنا نمشي على الجانب الآخر من خليج «إيروشت» فوق مكان أملس منساب حيث كان المسير هينًا لم يستطع «ألن» أن يتحمل خلجات نفسه إلى أكثر من ذلك فاقترب مني وقال:

(7) الانفصال واقتسام النقود.

«يا «ديفيد»، ليس لصديقين أن يكون حالهما هكذا من حدث بسيط. ليس لديَّ ما أقوله إلَّا أنني آسف على ما بدر مني، والآن لو كنت تطوي لي في نفسك شيئًا فأرى أنه من الأفضل أن تجهر به». فقلت:

«أوه، ليس لديَّ شيء».

فبدت عليه حيرة بعثت في نفسي بهجة أحسست معها بالضعة، فقال وفي صوته رعدة:

«كلا، ولكن إذا قلت إني ملوم؟».

فقلت بجمود: «لماذا، بالطبع لقد كان اللوم واقعًا عليك، وأنت تشهد بأني لم ألق عليك باللوم أبدًا». فقال:

«نعم، أبدًا، ولكنك تعلم حق العلم أنك ارتكبت حماقة شديدة، هل يجب أن نفترق؟ لقد قلت ذلك مرة من قبل، فهل ستقوله مرة أخرى؟ هناك تلال وأعشاب كثيرة بين هذا المكان وبين البحرين يا «ديفيد»، وإني أعترف بأني غير راغب في البقاء حيث لا تريدني أن أبقى».

طعنني هذا القول طعنة سيف، وكشف لي عما تطويه نفسي من عدم العرفان بالجميل. فصحت قائلًا:

«ألن بريك»، ثم قلت: «أتظن أني أزورُّ عنك وأنت في محنة؟ إنك لا تجرؤ على أن تجهر بذلك في وجهي، فكل سلوكي معك يكذب هذا، صحيح أني نمت في البراري أثناء قيامي بنوبة الحراسة، ولكن التعب كان مبعث ذلك، وإنك لترتكب شططًا إذا حسبتها عليَّ». فقال «ألن»:

«هذا ما لم أفكر فيه قط»، فاسترسلت قائلًا:

«وإذا طرحنا ذلك جانبًا، فماذا فعلت حتى أنك بمثل هذا الزعم تضعني في مرتبة الكلاب؟ إني حتى هذه الساعة لم أتخلَّ أبدًا عن صديق، وليس من المحتمل أن أبدأ بهذا التخلي معك. هناك أشياء بيننا لا أستطيع أن أنساها حتى لو استطعت أنت». فقال «ألن» بهدوء:

«لن أقول لأحد سواك يا «ديفيد» إني طالما كنت مدينًا لك بحياتي في الماضي، وهأنذا مدين لك بالمال في الحاضر، فاعمل ما في وسعك؛ لكي تخفف هذا العبء عن كاهلي».

كان ينبغي أن يكون لهذا القول أثر في نفسي، وحقيقة كان له بعض الأثر، ولكنه كان على نقيض ما يتفق مع الخلق الكريم. أحسست بأني كنت أسلك سلوكًا سيئًا، ولم

أكن في ذلك الحين غاضبًا على «ألن» وحده، كنت غير راض عن موقفي في هذا الشأن، مما جعلني أشد قسوة على نفسي. فقلت:

«لقد طلبت إليَّ أن أتكلم. حسنًا، سأفعل إذَنْ. إنك نفسك تقر بأنك قد ألحقت بي ضررًا، وكان عليَّ أن أتغاضى عما ألحقت بي من مهانة، ولم ألق عليك باللائمة أبدًا، ولم أذكر مطلقًا بالسوء ما فعلت، والآن أراك تلقي عليَّ باللوم»، ثم صحت قائلًا: «ذلك لأني لا أستطيع أن أضحك وأغني وكأني مغتبط بما لحق بي من مهانة. لم يبق إلَّا أن أجثو على ركبتي، وأشكرك على ذلك، يجدر بك يا «ألن بريك» أن تكون أكثر تفكيرًا من الآخرين، فكلما ازداد تفكيرك فيهم، فمن المحتمل أن يقل حديثك عن نفسك. وإذا ما أحبك صديق لك أشد الحب، وتغاضى عن إساءة دون أن يفوه بكلمة، فإنه يكون من دواعي سرورك أن تدعها تمضي بدلًا من أن تتخذ منها عصا تحطم بها ظهره. وعلى طريقتك الخاصة في هذا الشأن، فإن اللوم واقع عليك، وبالتالي فلست أنت الذي يفتش عن الشجار». فقال «ألن»:

«لحظة. لا تقل مزيدًا».

ثم عدنا إلى سابق صمتنا، وأتينا إلى آخر مرحلتنا، فتناولنا طعام العشاء، واستلقينا لننام دون أن ينبس أحدنا ببنت شفة، وفي غسق اليوم التالي قادنا التابع عبر خليج «رانوش» ودلنا على أفضل الطرق، وذلك بأن نصعد فورًا إلى قمم الجبال، ثم نسلك طريقًا دائريًّا حول وديان «ليون» و«لو شاي» و«دوشار»، ثم نهبط إلى الأراضي المنخفضة بجوار «كيبن» ومياه «الفورث» العليا.

لقد اغتبط «ألن» بعض الشيء بذلك الطريق الذي يسير وسط إقليم يعج بقوم من دم أعدائه من آل «جلينورش كامبل»، ولكنه اعترض بعد ذلك على سلوك هذا الطريق، وتمنى لو عرجنا ناحية الشرق، وهنا فإننا أغلب الظن نصبح فورًا بين عشيرة «آتول ستيوارت» وهي قبيلة تحمل اسمه ونسبته رغم أنها تتبع زعيمًا آخر، ثم ندرك طريقًا غير هذا أكثر سهولة وسرعة إلى المكان الذي نسعى إليه، ولكن كان لدى الدليل الذي هو في حقيقة الأمر رئيس كشافي «كلاني» من الأسباب ما يجعله يقنعنا برأيه، ذاكرًا لنا قوى الجيوش في كل ناحية، وأخيرًا صرح لنا (قدر ما استطعت أن أفهم) بأن المتاعب التي نلقاها في إقليم «آل كامبل» لأقل من أي متاعب تلحق بنا في أي إقليم آخر، وأخيرًا أذعن «ألن» على غير هواه، وقال:

«إنه إقليم من أشد أقاليم إسكتلندا كآبة، أعرف أنه لا يوجد به سوى أعشاب وغربان وآل «كامبل»، ولكني أعلم أنك رجل لك بعض الدراية، فليكن ما يطيب لك».

انطلقنا إلى الأمام طبقًا لما أشار به هذا الدليل، وسرنا معظم الليالي الثلاث على كل الجبال ووسط منابع الأنهار الثائرة، وكثيرًا ما كنا نُدفن في الضباب، والرياح لا تكف عن الهبوب، والأمطار لا تتوقف عن الهطول، ولم ننعم مرة واحدة ببصيص من ضوء الشمس. كنا نهارًا نستلقي وننام على الأعشاب المبتلة، ونتسلق التلال الخطرة ليلًا بلا انقطاع، ونسير بين الصخور الشاهقة. كنا نقضي أكثر الوقت في تجوال نتعثر في الضباب، حيث كنا مسوقين إلى أن نسكن بلا حراك حتى يتبدد وينقشع. لم نفكر أبدًا في إشعال نار، وكان طعامنا الوحيد قطعة من اللحم البارد

الذي سبق وأحضرناه معنا من «القفص»، أما فيما يختص بالماء فيعلم الله أننا لم نكن في حاجة إليه. قضينا وقتًا مروعًا زاده ظلام الجو وطبيعة الإقليم هولًا ما شعرت بالدفء أبدًا، تصطك أسناني في رأسي، وأقاسي التهابًا في حلقي، كذلك الذي كنت أقاسيه على الجزيرة، وآلمتني وخزة في جنبي لم تفارقني أبدًا. وعندما استلقيت على فراشي المبتل والمطر يدق فوقي والوحل ينضح تحتي، أحسست بأني أعيش مرة أخرى في ذكرى أسوأ مراحل مغامراتي، ألا وهي رؤية برج «بيت الأشباح» يضيئه البرق، و«رانسوم» محمول على متون الرجال، و«شوان» ملقى على أرض حجرة المراقبة وقد فارق الحياة، أو «كولين كامبل» وهو قابض على صدر سترته. نهضت في الغسق من مثل هذا النعاس المتقطع لأجلس في نفس مناقع الوحل التي كنت نائمًا فيها، وأكلت الثريد البارد، والأمطار تلطم وجهي بقوة، وتجري منحدرة على ظهري في قطرات متجمدة، الضباب يلفنا وكأننا في حجرة مظلمة، أو ربما ما هبت الرياح، تبدد فجأة فكشف لنا عن هوة في واد كساه الظلام بعض الشيء، تجري فيه المياه مزمجرة هادرة، سمعنا من كل ما حوالينا أصوات عدد لا نهائي من الأنهار، وتوقفت ينابيع المياه بسبب هذا المطر الذي لم ينقطع، وتدفقت المياه من كل واد كأنها الأحواض، وارتفعت في مجاريها كالطوفان فملأت القنوات وفاضت. كان مهيبًا أن نسمع أصواتها من تحتنا في الوديان أثناء تجوالنا ليلًا، تدوي كالرعد حينًا، أو تصرخ غاضبة حينًا آخر، ذكرني هذا بقصة «مياه كلبي» الخرافية، تلك الأسطورة التي تقول بأن الجن لا تكف عن الولولة والزئير عند المخاضة حتى يجيء المسافر الهالك. رأيت «ألن» مصدقًا لهذه الأسطورة أو نصف مصدق لها، وعندما ازداد هدير المياه عن مألوفه، تولاني شيء من الدهشة (ولو أنني كنت بطبيعة الحال لا أزال مأخوذًا بهزة) عندما رأيت «ألن» يرسم الصليب على صدره كما يفعل الكاثوليكيون.

لم يقم بيننا طوال هذا التجوال ود ولا ألفة، وقليلًا ما كان ذلك في الحديث. أصدقك القول إنني سئمت هذا التعب حتى أصبحت مشوقًا إلى الموت ففي ذلك أجمل العزاء، وإلى جانب هذا كان من شيمتي عدم التسامح منذ أن ولدت. كنت بطيئًا في أخذ السوآت، ولكني كنت أكثر بطئًا في نسيانها، والآن فأنا ثائر على رفيقي وعلى نفسي. كان الرجل في أغلب اليومين لا يمل التودد إليَّ، صامتًا حقًّا، ولكنه كان رغم صمته على أهبة الاستعداد لعوني، يأمل دائمًا (كما استطعت أن أرى ذلك في كل حين) أن يزول هذا السخط عني. ولكني كنت طوال الوقت أزكي غضبي بعد أن كظمت غيظي طويلًا، رافضًا خدماته بجفوة، وأنظر إليه نظرة شاملة وكأنه غصن شجرة أو حجر.

وفي الليلة التالية، أو بالأحرى في بصيص اليوم الثالث، وجدنا نفسينا فوق تل غير مستور، فلم نستطع أن ننتهج خطتنا العادية، بل جلسنا في الحال لنأكل وننام. طلع الفجر علينا وما كنا قد وصلنا إلى مأوى نلجأ إليه، والمطر لا يكف عن الهطول، وأخيرًا، عندما ارتفعت السحب، نظر «ألن» إلى وجهي وعليه أمارات الجزع، ثم قال:

«إنه لمن الأفضل أن تدعني آخذ لفافتك». من المحتمل أن يكون قد طلب ذلك للمرة التاسعة منذ أن افترقنا عن كشاف «كلاني» بجوار خليج «رانوش»، فقلت له في برودة الجليد:

«أشكرك، فإني أقوى على حملها».

كست وجه «ألن» حمرة داكنة، وقال:

«لن أعرض عليك هذا العرض مرة أخرى. إني لست رجلًا طويل الأناة يا «ديفيد». فقلت بلهجة جافة حمقاء لا تصدر إلَّا عن غلام في العاشرة من عمره:

«لم أقل أبدًا إنك كنت صبورًا».

في ذلك الوقت لم يجب «ألن»، ولكن سلوكه أفصح عنه، إذ إنه أعتقد عند هذا أنه غفر لنفسه ذلك العمل الذي أتاه عند «كلاني»، فربط قبعته ثانية، ومشى مرحًا، يبعث الصفير أنغامًا، ونظر إليَّ بطرف عينه وعلى ثغره ابتسامة أشعلت الغيظ في نفسي.

كان علينا في الليلة الثالثة أن نمر وسط الطرف الغربي لإقليم «بالكهويدر» وقد أصبح الجو صافيًا باردًا، وفي الهواء وخزة كالصقيع، وهبت رياح شمالية ساقت السحب، فبدت الكواكب اللألاءة. كانت مياه مفعمة بها، ولا تزال الأصوات مدوية بين الروابي، ولاحظت أن «ألن» لم يعد يفكر في جنيه البحر، يتمتع بروح عالية، أما فيما يتعلق بي، فإن تغير الجو قد جاء متأخرًا جدًّا. لقد رقدت في الوحل طويلًا حتى سئمتني ثيابي كما جاء في الإنجيل، كاد التعب يقتلني والمرض يميتني، تستبد بي الآلام والرعدة، تدب في أوصالي قشعريرة الرياح التي كان صوتها يُحيِّر أذني. كان يجدر بي في هذه الحال السيئة أن أحتمل من صاحبي شيئًا خلته اضطهادًا لقد تكلم كثيرًا في هزء وسخرية، وكان يصفني بأنني راديكالي، وكان هذا أفضل ما لديه ليناديني به ويقول: «ها أنت هنا تثور لذكر هذا اللقب أيها الراديكالي. أعرف أنك سريع الغضب»، وهكذا دأب طوال الوقت على التحدث إليَّ بصوت هازئ ووجه ساخر.

عرفت أن هذا كان نتيجة لما فعلته وحدي دون سواي، ولكني كنت بالغًا من الشقوة حدًّا جعلني لم أندم. أحسست بأني عاجز عن أن أجر نفسي إلَّا لمسافة قصيرة، وعما قليل سأراني مكرهًا إلى أن أستلقي على الأرض، ثم أموت فوق تلك الجبال المبتلة كشاة أو ثعلب، وسيتبدل لون عظامي ويصبح أبيض كعظام وحش ضار. ربما كان رأسي غير قادر على التفكير، ولكن خاطر الموت على هذه الصورة قد بدأ يروق لي، وشرعت أزهو بتفكيري في ميتة كهذه، وحيدًا في الفيافي. تلتف بي النسور الجارحة في لحظات حياتي الأخيرة. طاف بفكري أن الندم سيأخذ «ألن» عند ذلك، وإذا ما مت، فإنه سيتذكر كم كان مدينًا لي، وستصبح الذكرى له عذابًا، لذا سرت كتلميذ عليل غبي سيئ الطوية، أغذي غضبي ضد رفيقي، بينما كان من الأفضل لي أن أجثو على ركبتي، ضارعًا إلى الله أن يغفر لي. كنت أهتز طربًا عند كل تقريع يصدر عن «ألن»، وأقول لنفسي: «آه، هناك تعنيف أقوى ينتظرك. عندما أرقد

رقدتي الأبدية، ستشعر بأنها لطمة في وجهك. آه، يا له من انتقام، آه، كم سيأخذك الندم على جحودك وقسوتك». كنت طوال الوقت أزداد سوءًا على سوء، وسقطت ذات مرة على الأرض، وانثنت ساقي تحت جسدي، فصُدم «ألن» في الحال، ولكني أسرعت ناهضًا على قدمي، وانطلقت ثانية بحالة طبيعية، حتى إنه سرعان ما نسي ما حدث. طفا احمرار الحرارة على جسدي، ثم تقلصت عضلاتي من الرعدة، ولم يكن احتمال ألم الوخزة التي في جنبي هينًا، وأخيرًا بدأت أشعر بأني غير قادر على أن أجر نفسي إلى أبعد من هذا، وفي الحال استولت على الرغبة في أن أصفي حسابي مع «ألن»، وأشعل نار غضبي. وأنهى حياتي بموت مفاجئ.

ناداني قائلًا:

«أيها الراديكالي»، فوقفت وقلت بصوت يهتز وكأنه وتر الكمان:

«يا سيد «ستيوارت، إنك أكبر مني سنًّا، ويجدر بك أن تتحلى بآداب السلوك، أتظن أنه من الحكمة أو من الكياسة أن تعيرني بمبدئي السياسي في مواجهتي. أعتقد أن الناس كثيرًا ما يختلفون، ولكن أفاضلهم يختلفون في تهذيب. وإن لم أكن رجلًا فاضلًا لقلت لك إني أستطيع أن أوجه لك تقريعًا أقسى من تقريعك».

وقف «ألن» قبالتي، وربط قبعته، ويداه في جيب سرواله، وقد مالت رأسه إلى ناحية واحدة بعض الميل، يصغي إليَّ وهو يبتسم ابتسامة فيها دهاء على قدر ما استطعت أن أرى على ضوء الكواكب. وعندما انتهيت من كلامي، بدأ يبعث صفيرًا بنغم اليعقوبيين، كان قد وضع سخرية من هزيمة الجنرال «كوب» عند «بريستون بانز» مطلعها:

«أيا جوني كوب، ألم تستيقظ بعد؟

وألم تدق طبولك بعد؟».

هنا طاف بذهني أن «ألن» كان في تلك المعركة يحارب في صفوف الملك عندما كان جنديًّا. فقلت له:

«لماذا اخترت هذا النغم يا سيد «ستيوارت»؟ أذلك لتذكرني بأنك قد هزمت في المعركتين اللتين اشتركت فيهما؟»، فتوقف النغم على شفتيه، وقال:

«ديفيد!!»، ولكنني استرسلت قائلًا:

«لقد آن لك أن تتوقف عن هذا السلوك، وينبغي عليك منذ الآن أن تتحدث في أدب عن ملكي وعن آل «كامبل» أصدقائي الطيبين»، فشرع «ألن» يقول:

«إني من آل ستيوارت».

فقاطعته قائلًا: «أوه، أعرف أنك تحمل اسم ملك، ولكن ينبغي ألا تنسى أني منذ أن وطأت قدماي أرض الجبال الإسكتلندية قد رأيت كثيرًا ممن يحملون هذا الاسم، وأفضل ما أقوله عنهم هو أنهم ليسوا بأقل قذارة من ماء الغسيل»، فقال «ألن» بصوت خفيض جدًّا:

«أتعرف أنك بهذا تلحق بي إهانة؟»، فقلت:

«إني آسف على ذلك، ولكني لم أنتهِ من كلامي بعد. إن كنت قد كرهت العظة التي قلتها لك، فإني أشك في أن الموعظة التالية لن تبعث على البهجة في نفسك كثيرًا. لقد سبق لشباب حزبنا أن لاحقوك في ساحة المعركة، وأرى أنه نوع من الغبطة الدنيئة أن تزدري صبيًّا؛ فإن كلًّا من «آل كامبل» والراديكاليين قد صفعوك ووليت الأدبار أمامهم كأرنب بري، وكان الأجدر بك أن تتحدث عنهم كسادة لك».

وقف «ألن» ثابتًا لا يتحرك، والريح تعبث من خلفه بأذيال معطفه فتصفق. ثم قال:

«إنه لشيء يدعو إلى الحسرة، هناك أشياء تقال لا يمكن للإنسان أن يمر عليها هونًا». فقلت:

«إني لم أطلب منك ذلك، وهأنذا على أهبة الاستعداد مثلك». فقال:

«أمستعد أنت؟»، فأعدت القول:

«نعم مستعد. إني لست مغرورًا ولا مختالًا مثل بعض أولئك الذين أستطيع أن أذكر أسماءهم». ثم قلت: «هيا»، وسللت سيفي ووقفت حذرًا كما علمني «ألن» نفسه، فصاح «ألن»:

«ديفيد! أمجنون أنت؟ أنا لا أستطيع أن أجرد سلاحي من غمده لأقاتلك؛ لأنها لن تكون مبارزة متكافئة، ولكنه سيكون قتلًا عمدًا يدعو إلى النقد»، فقلت:

«لقد كان هذا ما هدفت إليه عندما أهنتني»، فقال «ألن»:

«هذا صحيح!»، ثم وقف لحظات يعتصر فمه في يده كمن في حيرة مرة، ثم قال:

«إنها الحقيقة العارية»، واستل سيفه، ولكن قبل أن يمس سلاحي حسامه، ألقى به أرضًا وارتمى عليه قائلًا:

«لا، لا»، ثم أتبع يقول: «لا، لا. لا أستطيع لا أستطيع».

عند هذا ذابت رواسب غضبي ووجدت نفسي عليلًا حزينًا جامد الفكر، متعجبًا من نفسي، ووددت لو أدفع كل ما أملك لأسترجع كل كلمة صدرت عني، ولكن مَن ذا الذي يستطيع أن يسترد كلمة خرجت من فِيهِ؟ ذكرت نفسي بكل حنان «ألن» وشجاعته في الماشي، وكم مد لي يد العون، وكيف أننا تقاسمنا البهجة واحتمل معي أيام المحن، ثم عادت إلى فكري ذكرى ما ألحقت به من مهانات، فرأيت أني قد فقدت إلى الأبد ذلك الصديق البطل، وفي نفس الوقت تضاعف إحساسي بالمرض، وكان الألم الشديد الذي شعرت به في جنبي كوخزات سيف بتار، وخيل إليَّ أني لا محالة مغشى عليَّ في مكاني.

هداني كل هذا التفكير في أنه ليس هناك من اعتذار يمحو عني ما صدر مني، ولم يكن هناك بي في حاجة إلى التفكير في أحد المعاذير لأنه ما من واحدٍ منها كان كفيلًا بأن يمحو الإثم عني، وبما أن التفكير في ابتداع المعاذير كان عبثًا، فإن نداء العون ربما رد «ألن» إلى جانبي. نفضت عني غلوائي، وقلت:

«يا «ألن»، إذا لم يكن في استطاعتك عوني، فإني هالك لا محالة». فهب جالسًا ونظر إليَّ. فقلت:

«حقيقة إن الألم يعتصرني، أوه. دعني أذهب إلى منزل يأويني، أستطيع أن أموت هناك بسهولة».

لم تكن بي حاجة إلى الادعاء، وسواء أكان لي الخيار أم لا، فقد تكلمت بصوت باكٍ قد يذيب حبات قلب قُدَّ من صخر. فسألني:

«أتقوى على المسير؟»، فقلت:

«كلا. لا أستطيع من دون مساعدة؛ لأن قوى ساقي في تلك الساعة الأخيرة قد خارت من تحتي، والوخزة التي في جنبي كانت كحديد محمي، ولا أستطيع أن أجتذب أنفاسي كما ينبغي. هل تغفر لي إذا مت يا «ألن»؟ لقد أحببتك حبًّا جمًّا من صميم القلب حتى في أشد حالات غضبي». فصاح «ألن»:

«صه! صه! لا تقل ذلك يا «ديفيد» أيها الرجل، إنك تعلم...»، ثم أطبق شفتيه على زفرة، واستطرد قائلًا: «دعني أطوقك بذراعي هذه هي الطريقة، والآن اتكئ عليَّ بقوة. يعلم الله أين نجد دارًا، نحن في «بلهويدر»، ولن تكون بنا حاجة إلى دور، كلا، إنه لا دور لأصدقاء لنا هنا. أتستطيع أن تسير معي على هذا النحو يا «ديفيد»؟». فقلت:

«نعم، إني أستطيع أن أسير على هذا النحو»: وضغطت على ذراعه بيدي، وأوشك على أن يبعث الزفرة مرة أخرى، ثم قال:

«يا ديفي، إني لست رجلًا عادلًا أبدًا، بل أنا رجل مسلوب الشعور والحنان. لم أفكر إلَّا في أنك لست سوى طفل، ولم أستطع أن أراك تموت وأنت على قدميك. يا «ديفيد» اعمل قدر طاقتك لكي تعفو عني». فقلت:

«يا رجل، دعنا لا نقول المزيد من هذا الشأن؛ فليس لأحد منا أن يصلح من أمر صاحبه - هذه هي الحقيقة، ينبغي علينا أن نتحمل وأن نصبر يا «ألن» أيها الرجل، أوه، إن الوخزة التي في جنبي تؤلمني ألمًا مرًّا، ألا توجد دار نأوي إليها؟»، فقال بعزم:

«سأجد لك منزلًا يا «ديفيد» سنتبع المجرى جنوبًا، حيث ولا بد وأن تكون هناك دور، يا رجلي المسكين، ألا تكون أحسن حالًا لو حملتك على ظهري؟»، فقلت:

«أوه يا «ألن»، إنني أطول منك باثنتي عشرة بوصة»، فهب صائحًا:

«لست كذلك. قد تكون أطول مني بوصة أو اثنتين، وليس هذا من الأهمية في شيء، هذا وإني لا أدعي بأنني ما تسميه رجلًا طويل القامة، ومهما يكن من شيء، فربما...»، ثم أضاف بلهجة مضحكة: «الآن عندما أفكر في أني لست طويل القامة، فمن المحتمل أني أعتقد أنك على الصواب، نعم قد يكون قدمًا أو ما يقرب من ذلك. أو حتى أكثر منه».

لقد كان شيقًا باعثًا على الضحك أن أسمع «ألن» يزدرد كلماته خشية أن يشجر بيننا خلاف جديد، كان لي أن أضحك لو لم تؤلمني الوخزة أشد الألم، ولكني لو ضحكت، فلا بد لي وأن أبكي أيضًا وقلت:

«ماذا يجعلك متسامحًا كريمًا معي هكذا؟ وما الذي يدعوك إلى أن تعني برفيق جاحد؟»، فقال:

«لست أدري، ولكنني ظننت حقًّا أني أحببت فيك عدم نزوعك إلى الشجار، ولكن هأنذا الآن أحبك أكثر من ذي قبل، بعد أن قام بيننا شجارٌ».

* * *

الفصل الخامِس والعشرون
في بلكهويدر

طرق «ألن» باب أول دار بلغناها. ولكن ما أقدمنا عليه لم يكن عملًا آمنًا غاية الأمن في مثل هذه البقاع من الأراضي الإسكتلندية كصخور «بلكهويدر».

لم تكن هناك قبيلة عظيمة تقوم على الحكم فيها، بل كانت ملأى بجماعة يقوم فيها صراع بين أسر صغيرة وبقايا محطمة وما يسمونه «قوم ضياع لا زعيم لهم» ساقهم تقدم آل «كامبل» أمامهم إلى الإقليم القفر حول منابع نهري «فورث» و«تيث». كان هنا آل «ستيوارت» وآل «ماكلارين» وكانوا قد أتوا لنفس الغرض؛ إذ إن آل «ماكلارين» قد تبعوا زعيم(8) «ألن» في الحرب وانضموا إلى آل «آبن» وأقاموا عشيرة واحدة. كان هناك أيضًا كثير من جماعة «ماك جريجور» القديمة المطاردة خاملة الذكر المعروفة بجرمها. كانوا دوامًا لا اعتبار لهم ولا وزن، وهم الآن في حال أسوأ منه في أي وقت مضى، لا جاه لهم ولا سلطان في أي ناحية أو طائفة في إسكتلندا بأسرها، وكان زعيمهم «ماك جريجور أف ماك جريجور» في منفاه، وكان «جيمس مور» الابن الأكبر «لروب روي» والقائد المباشر لذلك الجزء من عشيرتهم المستوطن «لبلكهويدر» ملقى في حصن «أدنبره» في انتظار محاكمته. كان هناك عداء قائم بينهم وبين سكان الجبال وأهالي الأراضي المنخفضة، وعشائر «جراهام» و«ماكلارين» و«ستيوارت»، ثم إن «ألن» الذي اعتاد أن يشعل شجارًا مع أي صديق مهما كان بعيدًا، أصبح راغبًا أشد الرغبة في الابتعاد عنهم.

(8) آردشيل.

خدمتنا المصادفة خدمة جليلة؛ لأن صاحب الدار التي وردناها كان من آل «ماكلارين»، فقابل «ألن» بترحاب لا من أجل لقبه فحسب، ولكن لأنه كان رجلًا ذائع الصيت أيضًا. هنا استلقيت في الفراش دون إبطاء، وجاءوني بطبيب قرر أنني في حالة يُرثى لها، ومع هذا فإني لم أبقَ طريح الفراش أكثر من سبعة أيام. ولست أدري أكان ذلك من جراء مهارة الطبيب الفائقة، أم لأنني فتى قوي البنية، ثم أصبحت قادرًا على أن أسلك الطريق مرة أخرى بعزم صادق قبل انقضاء شهر.

لم يشأ «ألن» أن يتركني رغم إلحاحي عليه، والحق أن استخفافه بالمخاطر في بقائه معي كان موضع حديث دار بين الصديقين أو الثلاثة الذين أفضى إليهم بالسر.

كان يختفي نهارًا في جحر بإحدى صخور غابة صغيرة، ويأتي إلى الدار ليلًا ليراني إذا ما خلا الشاطئ. لست في حاجة إلى القول بما إذا كنت أغتبط لرؤياه، ولكن مضيفتنا «السيدة ماكلارين» كانت قد بلغت بها البهجة حدًّا جعلها لا تعرف ماذا تفعل إكرامًا لوفادته بما يتفق ومقامه، وبما أن «دنكان دو» (اسم مضيفنا) كان

يمتلك مزمارين في داره، وكان يحب الموسيقى حبًّا جمًّا، فقد كان يوم شفائي عيدًا، وأحلنا الليل نهارًا -كما يقولون.

تركنا الجنود حيث كنا، على الرغم من أني استطعت أن أرى ذات يوم عبر النافذة وأنا مستلقٍ على الفراش فوجًا من فرقتي مشاة وبعض الفرسان يمرون في قاع الوادي. وزاد من دهشتي أن حاكمًا ما لم يقترب مني، ولم يدر أي استقراء عن موعد مجيئي ولا عن المكان الذي أقصد إليه، وفي أثناء تلك الأحداث لم يجر أي استقصاء عني كما لو كنت ضائعًا في إحدى الفيافي، مع أن مجيئي كان معروفًا عند جميع الناس في «بلكهويدر» والمناطق المتاخمة لها قبل رحيلي عنها، وكان كثير من الناس يأتون لزيارة المنزل، وهؤلاء (كعادة الإقليم) يذيعون الأخبار بين جيرانهم، وطبعت النشرات ووزعت وقد ألصقت واحدة منها بدبوس بالقرب من طرف فراشي، واستطعت أن أقرأ فيها ما يتعلق بي؛ فإذا به يصفني بصورة ليس فيها من المديح شيء، وقد برزت فيها بأحرف كبيرة قيمة مال الدم الذي رصد ثمنًا لحياتي، لم يساور «دنكان دو» والآخرين الذين عرفوا بمقدمي في صحبة «ألن» أي شك فيمن أكون، ولا بد أن يكون هناك آخرون غيرهم قد عبثت بفكرهم الظنون؛ لأني -وإذا كنت قد بدلت من ثيابي- إلَّا أنني لم أستطع أن أبدل من عمري ولا من شخصي، ثم إن الصبية من أهالي الأرض المنخفضة في سن الثامنة عشر -وخاصة في تلك الأيام- لم يكونوا منتشرين في تلك البقاع من العالم، حتى إنهم قد فشلوا في أن يلائموا بين الأشياء بعضها البعض فيربطوا بيني وبين النشرة، وهكذا كان الوضع على أقل تقدير.

هناك قوم يحتفظون بالسر بين صديقين مقربين أو ثلاثة، ومع ذلك فإنه يتسرب بوجه أو بآخر، ولكن السر يقال بين هذه العشائر في جميع جنبات الإقليم ويحتفظون به قرنًا كاملًا من الزمان.

هناك شيء واحد فقط جدير بألا أغفله، وهو تلك الزيارة التي قام بها لي «روبين أويج» أحد أبناء «روب روي» الرجل المعروف باختلال عقله. كانوا يبحثون عنه في كل مكان لاتهامه باختطاف امرأة فتية من «بالفرون» والزواج منها قسرًا (كما أشيع)، ومع ذلك فقد وفد على «بلكهويدر» وكأنه رجل فاضل، متبعًا أسلوبه الخاص في التسلل، وهو الذي أطلق النار على «جيمس ماكلارين» في أثناء وجوده بجوار خشبة المحراث. لم تنتهِ حدة هذه المعركة أبدًا، ومع ذلك فقد سار إلى منزل أعدائه في الدم كما يذهب مسافر إلى فندق عام.

كان لدى «دنكان» من الوقت ما يسر لي فيه عمن يكون هذا الشخص، ونظر كل منا إلى الآخر لهفًا. لعلك تفرق أنه قد آن «لألن» أن يعود، وكان من المحتمل ألا يقوم بين الاثنين وفاق، ولو أرسلنا كلمة أو إشارة، فمما لا ريب فيه أن هذا العمل سيثير الشك في نفس رجل تحت مثل هذا الغمام المظلم مثل «ماك جريجور».

دخل وفي مظهره ما يدل على أدب موفور، ولكنه كان كمن أقبل على قوم أحط منه شأنًا. خلع قبعته تحية للسيدة «ماكلارين»، ولكنه أعادها إلى رأسه ليتحدث إلى

«دنكان»، وعندما وضع نفسه في وضعه الصحيح (على زعمه)، فقد أتى إلى جواري وانحنى. ثم قال:

«لقد تناهى إليَّ يا سيدي أن اسمك «بلفور». فقلت:

«إنهم يسمونني «ديفيد بلفور» في خدمتك». فأجاب:

«وأنا بدوري سأنبئك عن اسمي، إلَّا أنه اسم قد تلوث في الأيام الأخيرة، وقد يكفيني أن أقول لك إنني أخ «لجيمس مور دراموند ماك جريجور» الذي لم تخفق في السماع به»، فقلت وقد تولاني شيء من الجزع:

«كلا يا سيدي لم أسمع به، ولا حتى بأبيك «ماك جريجور - كامبل».

ثم جلست في فراشي، وانحنيتُ لأني رأيت أنه من الأوفق لي أن أسلك معه سلوكًا مهذبًا؛ لأنه فخور بأن أباه طريد العدالة، فانحنى بدوره. وقال:

«ولكني ما أتيت إلى هنا إلَّا لأقول بأن أبي قد حشد في عام خمسة وأربعين(9) كتيبة من آل «جريجارا»، وقاد ست فرق من المشاة ليضرب ضربته من أجل الهدف النبيل، والطبيب الجراح الذي رافق عشيرتنا وعالج ساق أخي عندما كسر بين الغصون في موقعة «برستون بانز» فشفاه، كان سيدًا يحمل نفس الاسم الذي تحمله أنت تمامًا، وكان أخًا «لبلفور أوف بيث»، فلو كانت تصل بينك وبين أحد أفراد أسرة ذلك السيد صلات قرابة معقولة، فإني هنا لأضع نفسي ورجالي تحت إمرتك.

(9) السنة التي اشتعلت فيها نيران الثورة التي قام بها اليعقوبيون ضد الملك جورج الثالث.

لعلك تذكر أني كنت لا أعرف شيئًا عن حسبي أكثر مما يعرفه أي كلب فضولي، ورغمًا عن أن عمي كان ثرثارًا في الحديث عن عراقتنا، إلَّا أنه لم يكن من بينها ما يتصل بالأمور الجارية، ولم يترك لي إلَّا العار المر بامتلاك ما لا أستطيع التحدث عنه.

أخبرني «روبين» باختصار بأنه أجهد نفسه في هذا الشأن، وأدار ظهره لي دون إشارة أو تحية، وعندما اتجه ناحية الباب، استطعت أن أسمعه يقول عني «لدنكان» بأني شخص لا يمت إلى عراقة الحسب بصلة، إلى حد أني لم أعرف أبي، ومع غضبي لما قال وخجلي من جهلي، إلَّا أني لم أستطع أن أفتر عن الابتسامة؛ لأن رجلًا تحت سياط القانون (وقد يشنق بعد ذلك بثلاث سنوات حقًّا) يكون لطيفًا إلى هذا الحد مع سلالة من معارفه.

عند الباب تمامًا، التقى «ألن» داخلًا فتراجع الرجلان، ونظر كل منهما إلى الآخر وكأنهما كلبان غريبان. لم يكن كلاهما رجلًا ضخمًا، ولكنهما كانا يظهران بمظهر يفيض كبرياء. كان كلاهما يتمنطق بحسام، وبحركة من الفخذ دفع كل منهما بمقبض سيفه ليكون على أهبة الاستعداد لشهره فقال «روبين»:

«السيد «ستيوارت على ما أعتقد!». فأجاب «ألن»:

«هذا صحيح يا سيد «ماك جريجور». إنه اسم لا أخجل منه».

فقال «روبين»:

«ما عرفت أنك هنا في بلادي يا سيدي»، فقال «ألن»:

«إنه يلتصق بذهني أنني في بلاد أصدقائي آل ماكلارين». فأجاب الآخر:

«إن هذا أمر قليل الأهمية، وهناك كلمتان تقالان في هذا الشأن، ولكني أظن أني سمعت بأنك رجل سيفك»، فقال «آلن»:

«إذا لم تكن قد ولدت وبك صمم يا سيد «ماك جريجور»، فلا بد وأن تكون قد سمعت بأكثر من ذلك، هذا ولست الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يستل سيفه في «آبن»، وعندما دار حديث بين قريبي وزعيمي «آردشيل» وبين سيد يحمل اسمك من سنين مضت ليست بالكثيرة، فإني لم أسمع قط بأن «ماك جريجور» قد أحسن استعمال سيفه». فقال «روبين»:

«أتعني أبي يا سيدي؟». فقال «ألن»:

«حسنًا، إني لا أعجب لذلك، فالرجل الذي أعنيه كان من عدم اللياقة بحيث إنه أضاف «كامبل» إلى اسمه». فقال «روبين»:

- «كان أبي رجلًا مسنًّا، ولم تكن المباراة متكافئة. أما أنت وأنا فنشكل زوجًا أكثر تكافؤًا». فقال «ألن»:

«ظننت ذلك».

كنت نصف تارك لفراشي، وأما «دنكان» فقد كان متعلقًا بمرفقي هذين الديكين المتحاربين، على أهبة الاستعداد للتدخل بينهما في اللحظة الحاسمة، ولكن عندما قيلت تلك الكلمة، فهو إما أن يتدخل في الحال، وإما لن تكون هناك فرصة للتدخل أبدًا، وهنا أقحم «دنكان» بنفسه بينهما، وقد مال لون وجهه إلى البياض بعض الشيء، وقال:

- «يا سيديَّ، إني على أي حال أفكر في أمر آخر: هناك مزماراي وهنا سيدان يدعيان أنهما يجيدان العزف على المزامير. لقد قام جدل منذ أمد طويل عن أيكما أكثر براعة في ذلك، والآن ستتاح الفرصة لوضع الأمور في نصابها». وظل «ألن» يقول «لروبين» دون أن يحيد بصر كل منهما عن الآخر لحظة:

«لماذا يا سيدي. لماذا يا سيدي؟ أظن أني سمعت شيئًا من هذا القبيل، هل عندك موسيقى كما يقول الناس؟ هل تجيد شيئًا من العزف على المزمار؟»، فصاح «روبين»:

«أستطيع أن أعزف كما يعزف أي شخص من آل ماكريمون»، فقال «ألن»:

«تلك كلمة فيها جرأة شديدة»، فقال «روبين»:

«لقد صدرت عني قبل الآن كلمات أكثر جرأةً ضد خصوم أفضل». فقال «ألن»:

«من السهل أن نحاول ذلك».

أسرع «دنكان دو» ليحضر المزمارين اللذين كانا أثمن ما يملك من متاع، وليضع أمام ضيفيه قطعة من لحم الخنزير وزجاجة من ذلك الشراب الذي يسمونه «وجبة آتول»، وهو خليط من خمر معتق وعسل مصفى وقشدة حلوة قد مزجت ببعضها البعض بنظام دقيق ومقادير معينة. كان الخصمان لا يزالان على وشك أن ينقضا العهد ويبدآ العراك، ولكنهما جلسا وكلاهما في طرف من النار الموقدة بالنباتات الحجرية، والأدب الموفور بادٍ على كليهما. ألح عليهما «ماكلارين» في أن يتذوقا لحم الخنزير والمزيج الذي صنعته زوجته، ذاكرًا لهما أنها قد وفدت من «آتول»، وأن شهرتها قد طبقت الآفاق طولًا وعرضًا في صنع هذا النوع من الحلوى، ولكن «روبين» أزاح من أمامه كل ما قدمه الرجل كدليل على كرم الضيافة متذرعًا بأنه يؤدي حركة التنفس(10). فقال «ألن»:

(10) فلا يستطيع القتال.

«أحب ألا تنسى يا سيدي أنني لم أذق كسرة خبز منذ عشر ساعات، وهذا أكثر إيذاء للتنفس من أي مزيج في إسكتلندا»، فأجاب «روبين»:

«لن أستغل ذلك الموقف(11) يا سيد «ستيوارت». كل واشرب وسأتبعك».

(11) عدم تناوله للطعام.

تناول كل منهما قطعة صغيرة من لحم الخنزير، وشرب كوبًا من مزيج السيدة «ماكلارين». وبعد أن تبادلا كثيرًا من عبارات المجاملة، تناول «روبين» المزمار وعزف مقطوعة بنغم بهيج فيه جلبة كثيرة. فقال «ألن»:

«نعم، إنك تستطيع أن تعزف»، ثم أخذ الآلة من مناظره. وبدأ أول الأمر يعزف نفس اللحن. وبعد ذلك أخذ يتجول أثناء عزفه إلى أنغام مختلفة. ويطعمها بمصنفات متقنة من أصول جميلة يحبها العازفون على المزمار ويسمونها بالتغاريد.

لقد طربت لموسيقى «روبين»، ولكني فتنت بعزف «ألن»، قال المناظر:

«إن موسيقاك ليست رديئة جدًّا يا سيد «ستيوارت»، ولكنك أسأت التصرف في تغاريدك». فقال «ألن» وقد صعد الدم إلى وجهه:

«إني أكذبك». قال «روبين»:

«هل تعترف بهزيمتك في مباراة المزامير، وإذا كان الأمر كذلك فهل لك أن ننتقل إلى مباراة السيوف؟»، فقال «ألن»:

«هذا قول جميل جدًّا يا سيد «ماك جريجور»، وفي الوقت نفسه (وقد ضغط على الكلمة) فإني لن أتخلى عن اتهامي لك بالكذب. وأحتكم إلى دنكان». فقال «روبين»:

«حقًّا. لست في حاجة إلى أن تحتكم إلى أحد؛ لأنك أفضل من أي قاض من آل «ماكلارين» في «بلكهويدر»؛ وذلك لأنك بحق الله عازف من آل «ستيوارت» ممتاز. هات المزامير».

فعل «ألن» ما طلبه. وتقدم «روبين» ليحاكيه ويصحح جزءًا من المصنفات التي عزفها «ألن» والتي كان يجيد معرفتها، فقال «ألن» وقد انتابه شيء من الضيق:

«نعم، إنك تتذوق الموسيقى». فقال «روبين»:

«والآن فلتكن أنت الحكم يا سيد «ستيوارت»»، وبدأ يعزف المصنفات من أولها ويحولها إلى لون جدير بحذق وأحاسيس وخيال غريب وسرعة فائقة في أصول جميلة إلى حد أني دهشت عند سماعها، أما «ألن» فقد أظلم وجهه وأصبح ساخنًا، وجلس يقضم أصابعه كمن لحقت به مهانة شديدة، ثم صاح:

«كفى. إنك تجيد العزف على المزمار إجادة تامة». ثم تحرك كمَن يريد أن ينهض. ولكن «روبين» رفع يده وكأنه يطلب إليه أن يتوقف وانتقل بمصنفاته إلى عزف مقطوعة من موسيقى القرب البطيئة. لقد كانت في ذاتها جميلة. وعزفها رائعًا. ولكنها كانت تبدو -إلى جانب ذلك- مقطوعة خاصة بآل «ستيوارت» في «آبن» ومحببة إلى قلب «ألن» لم يكد «روبين» يعزف النغم الأول، حتى رأينا وجه «ألن» وقد تبدل، وعندما مر الوقت مسرعًا، بدا قلقًا في مقعده. وقبل أن تنتهي المقطوعة بوقت طويل، كانت على وجهه كل أمارات الغضب. وأصبح لا يفكر إلَّا في الموسيقى. وعند انتهائها قال «ألن»:

«أشهد يا «روبين أويج» بأنك عازف بارع على المزمار. وأني لم أبلغ من الحذق حدًّا يجعلني أجاريك في هذا المضمار. يا لله! إن في بردك موسيقى أجمل مما تحمل رأسي. ومع ذلك فإنه لا يزال يلتصق بذهني أنني قادر على أن أريك نوعًا آخر منها بواسطة الصلب البارد. وإني أنذرك قبل كل شيء بأنه لن يكون من العدل في كثير أو قليل أن أمزق رجلًا يستطيع العزف على المزمار مثلك؛ لأن هذا سيكون ضد هواي».

عند هذا انتهى ذلك الشجار. وظلت كؤوس المزيج تدور طوال الليل. ويتبادلان العزف على المزمار. وانبلج الصبح عن يوم صاف، وحل الوئام بين الرجال الثلاثة قبل أن يفكر «روبين» في أن يسلك طريقه.

* * *

الفصل السادس والعشرون
نـهَايـة الفرار: نـعبر نـهر الفورث

لما ينصرم الشهر بعد كما سبق لي أن قلت، ولكن الأيام قد قطعت من شهر أغسطس شوطًا طويلًا، والجو دافئ جميل، وظهرت جميع التباشير لمحصول مبكر وفير، عندما قيل لي إني أصبحت قادرًا على مواصلة مسيري. لقد جرى الآن ما معنا من نقود في منخفض مما جعلنا نفكر أول ما نفكر في أن نسرع؛ لأننا إذا لم نصل على عجل إلى مقر السيد «رانكيلور»، أو إذا ما وصلنا إليه وأخفق في مساعدتي فنحن هالكان جوعًا لا محالة، وإلى جانب ذلك فقد كان من وجهة نظر «ألن» أن الرقابة قد خفضت كثيرًا، وأن الحراسة لم تعد مشددة على طول نهر «فورث» وكوبري «سترلنج» المعبر الرئيس لذلك النهر. وقال:

«إنه مبدأ هام في العمليات الحربية أن تسير حيث لا ينتظر أن تسير. إن متاعبنا ستكون في نهر «فورث»، وأنت تعرف المثل السائر الذي يقول (إن نهر فورث هو العنان الذي يكبح جماح سكان الجبال الإسكتلندية الغلاظ) حسنًا، لو حاولنا أن نزحف لندور حول منبع ذلك النهر، ونهبط محاذيين «لكيبن» أو «بالفرون»، فإنهم بلا ريب سيفكرون في أن يقبضوا علينا هناك، ولكن لو انطلقنا رأسًا نحو كوبري «ستيرلنج» القديم، فإني أراهن بتسليم سلاحي على أنهم سيدعوننا نمضي دون مناهضة.

وتبعًا لذلك دلفنا في أول ليلة إلى منزل أحد آل «ماكلارين» في «ستراذاير» وهو أحد أصدقاء «دنكان»، حيث قضينا ليلة الواحد والعشرين من الشهر، ومن هنا استأنفنا مسيرنا عندما جن الليل لنقطع مرحلة آمنة، وفي اليوم الثاني والعشرين استلقينا بين العشب على سفح تل في «أدام فار»، وعلى مرأى من قطيع الظباء حيث قضينا عشر ساعات لم نقض مثيلًا لها في هناءة من النوم تحت ضوء جميل شيق، وعلى أرض جف ترابها لم أتذوق مثلها من قبل. اصطدمنا في تلك الليلة بنهر «مياه ألن» فتبعناه جنوبًا، وعندما وصلنا إلى حافة التلال رأينا من تحت كوبري «سترلنج» كل امتداد الأرض المنخفضة وكأنها فطيرة منبسطة، ورأينا المدينة والحصن قائمين في وسط أحد التلال، والقمر يسطع على «لينكس أف فورث». قال «ألن»:

«والآن اعلم أنك قد عدت إلى موطنك، لقد اجتزنا حدود الجبال الإسكتلندية في الساعة الأولى، والآن لو استطعنا أن نعبر تلك المياه الملتوية، فإننا سنلقي بقبعتينا في الهواء غبطة وسرورًا».

وجدنا في نهر «مياه ألن» بالقرب من المكان الذي يلتقي فيه بنهر «فورث» جزيرة رملية صغيرة كستها الحشائش الشائكة وأشباهها من النبات القصيرة التي كانت تخفينا بمشقة لو استلقينا منبسطين. هنا ألقينا رحالنا على مرمى البصر من حصن

«سترلنج» الذي رأيناه بوضوح، واستطعنا أن نسمع دقات الطبول به كجزء من عرض عسكري.

كان الحاصدون يعملون اليوم بطوله في حقل على أحد جانبي النهر، واستطعنا أن نسمع صوت انزلاق الأحجار على الأسياخ الحديدية، وأصوات الرجال وحتى كلماتهم وهم يتحدثون كان لزامًا علينا أن نقبع وأن نظل صامتين، ولكن الشمس قد بعثت في رمال الجزيرة الصغيرة دفئًا، وآوت النباتات الخضر رأسينا، وكان لدينا طعام وماء موفوران، يتوج هذا كله أننا أوشكنا على الأمان.

وحالما انتهى الحاصدون من عملهم ورحلوا، وآن للغسق أن يحل، خضنا المياه إلى الشاطئ، وبلغنا كوبري «ستيرلنج» ملتزمين الحقول نسير في حمى أسوارها.

كان الكوبري واقعًا تحت حصن التل عتيقًا مرتفعًا ضيقًا ذا مشارف على طول السور، ولعلك تتخيل مبلغ بهجتي عندما رأيته، لا لأنه مكان شهير في التاريخ فحسب، ولكن لأنه كان باب الخلاص لي «ولألن». وعندما وصلنا لم يكن القمر قد بزغ بعد، ولكننا أبصرنا أضواء قليلة تسطع على طول واجهة الحصن، ورأينا إلى أسفل بعضًا من النوافذ مضاءة في المدينة، ولكن سكونًا مطبقًا كان يخيم على المنطقة كلها، وبدا لنا أن الطريق خلوٌ من الحراس.

كنت مندفعًا إلى الأمام. ولكن «ألن» كان أشد حذرًا مني، فقال:

«إن المكان يبدو هادئًا جدًّا، ولكننا مع هذا سنستلقي هنا خلف أحد الحواجز حذرين لنستوثق».

وعلى هذا بقينا حيث نحن حوالي خمس عشرة دقيقة، حينًا نتحدث في همس، وحينًا آخر نستلقي بلا حراك لا نستمع إلى شيء إلَّا إلى تلاطم المياه بالدعامات. وأخيرًا مرت بنا امرأة عجوز عرجاء تتوكأ على عصا، فتوقفت قليلًا إلى جوارنا أول الأمر تندب نفسها وتنوح من طوال الطريق الذي قطعته، ثم استأنفت مسيرها صاعدة البروز المنحدر لذلك الكوبري. كانت المرأة ضئيلة الجسد، والليل لا يزال بهيمًا، حتى أنها سرعان ما اختفت عن أعيننا، فلم نسمع إلَّا وقع قدميها وصوت عصاها، وكان سعالها الذي أتاها في نوبات يبتعد عنا مبطئًا، فهمست:

«لقد أوشكت على أن تعبر الكوبري الآن»، فقال «ألن»:

«كلا، إن صوت قدميها لا يزال يرن فوقه».

وفي تلك اللحظة صاح صوت يقول:

«مَن هناك؟»، ثم سمعنا مؤخر بندقية يرتطم بالأحجار.

كنت أعتقد أن الديدبان نائم، وأننا لو كنا قد حاولنا العبور لما رآنا أحد، ولكنه كان في الواقع مستيقظًا، فضاعت منا الفرصة. قال «ألن»:

«ليس هذا من صالحنا أبدًا. لن نجني فائدة من وراء ذلك يا ديفيد»، ودون أن ينطق بكلمة أخرى، بدأ يزحف بين الحقول، وبعد قليل، وعندما أصبح بعيدًا عن مرمى

البصر، انتصب على قدميه وسلك طريقًا يتجه ناحية الشرق، لم أستطع أن أتصور ما هو فاعل، وكان اليأس يعصف بي حقًّا، حتى إنه لم يكن هناك ما قد يبعث على الغبطة في نفسي. لم يكن أمامي سوى لحظات، حتى أراني بعدها أقرع باب السيد «رانكيلور» لأطالب بميراثي وكأني بطل في ملحمة، ولكن هأنا هنا الآن مرة أخرى على الجانب الخاطئ من نهر «فورث» ضال شريد مطارد، فقلت:

«حسنًا». فقال «ألن»:

«حسنًا، ماذا تظن؟ إنهم ليسوا بلهاء كما ظننتهم. لا يزال أمامنا نهر «فورث» لنعبره. يا «ديفيد» اللعنة على الأمطار التي غذته، وعلى جوانب التلال التي رسمت طريقه». فقلت:

«ولماذا تتجه ناحية الشرق؟»، قال:

«أوه. لا لشيء إلَّا لنجرب حظنا، فإن لم نستطع أن نعبر النهر فسيكون لزامًا علينا أن نفكر فيما يمكننا عمله إزاء المضيق». قلت:

«هناك مخاضات على النهر، وليس على المضيق واحدة منها». فقال «ألن»:

«حقيقة توجد مخاضات وكوبري إلى جانبها، ولكن ما الجدوى إذا كانت مراقبة؟»، فقلت:

«حسنًا، ولكننا نستطيع عبور النهر سباحة». قال:

«لا يقوى على عبوره إلَّا المهرة في السباحة، ولكني أعرف أن كلينا لا يمارس هذه الرياضة، ومن جهتي فإني أسبح كحجر»، فقلت:

«إني لا أجادلك يا «ألن»، ولكني أرى أننا نزيد الأمر تعقيدًا. إذا كان من العسير أن نعبر نهرًا، فإن المنطق يقول بأن عبور بحر سيكون أشد عسرًا». قال «ألن»:

«ولكن هناك شيء اسمه زورق، أم أنني مخدوع؟». فقلت:

«نعم. ولكن هناك شيئًا اسمه نقود. ونحن لا نمتلك هذا ولا ذاك، وكأنهما بالنسبة لنا شيئان لم يُخترعا بعد». فقال «ألن»:

«أتظن ذلك؟»، قلت:

«نعم». فقال:

«يا ديفيد، إنك رجل قصير النظر قليل الاعتداد بالنفس، فدعني أشحذ زناد فكري، فإن لم أستطع الحصول على زورق استجداء أو اقتراضًا فإني سأصنعه». فقلت:

«أرى أنك تستطيع ذلك وأكثر منه. وعلى فرض أنك عبرت الكوبري فإنك لن تهتدي إلى شيء. ولكننا لو تمكنا من عبور المخاضة، فهناك الزورق على الشاطئ الخاطئ من النهر (لا بد وأن يكون هناك شخص ما قد جاء به) وسيثير هذا الأمر لغطًا في الإقليم كله»، فصاح «ألن»:

«لو صنعت الزورق يا رجل، فسأدبر الشخص الذي سيعود به ثانية، لذا لا تصم أذني بما تقوله من هراء، بل سِرْ (لأن هذا هو ما تستطيع أن تفعله)، ودع «ألن» يفكر من أجلك».

لذا فقد سرنا الليل بطوله في الجانب الشمالي من «الكارس» تحت الخط العلوي من جبال «أوشيل» محاذين «ألوا» و«كلاكمانان» و«كلروس»، ولكننا كنا نتجنبها جميعًا، وفي حوالي الساعة العاشرة صباحًا، كان الجوع يلذعنا، والتعب يضنينا حين بلغنا قرية «ليمكلنز» الصغيرة، وهي مكان يقع بالقرب من شاطئ المياه ويطل على مدينة «معبر الملكة» عبر خليج «الأمل». كان الدخان يتصاعد من القرية والمدينة وسائر القرى والمزارع في المنطقة كلها. كان الفلاحون قد حصدوا محاصيلهم، وهناك سفينتان راسيتان، والزوارق تروح وتغدو فوق خليج «الأمل»، وكانت هذه الأشياء في مجموعها باعثة على البهجة في نفسي، ولكني لم أستطع أن أشبع النظر من هذه الهضاب الرحبة الخضراء المنزرعة، والرجال وهم يعملون في الحقل وعلى البحر.

كان هناك فوق كل هذا منزل السيد «رانكيلور» على الشاطئ الجنوبي حيث لا يراودني شك في أن الثروة تنتظرني في حين أني هنا في الشاطئ الشمالي أرتدي لباسًا حقيرًا من طراز غريب، لا تتجاوز ثروتي كلها ثلاثة شلنات من فضة، وقد رصدوا لرأسي ثمنًا، أما رفيقي الوحيد فكان رجلًا طريد العدالة. قلت:

«أوه يا «ألن». أتتصور هذا؟ هناك، حيث تحوم الطيور وتبحر الزوارق وكل ما يبعث على البهجة، ينتظرني كل ما يتمناه قلبي وأنا هنا وحيد!!».

وفي «ليمكلنز» دخلنا حانًا صغيرًا عرفنا من القضيب الموجود على الباب أنه مكان عام، وابتعنا شيئًا من الخبز والجبن من صبية تعمل به، وضعته في لفافة، ثم حملناها وانصرفنا على زعم أن نجلس لنأكله بين أعشاب غابة على شاطئ البحر، تقع أمامنا على مبعدة حوالي ثلث ميل، كنت في أثناء مسيرنا لا أفتر عن النظر عبر الماء أبعث الزفرات، ولكني لم أُلْقِ بالًا لشرود فكر «ألن»، وأخيرًا وقف في الطريق وقال وهو يدق على لفافة الخبز والجبن:

«هل انتبهت إلى الصبية التي اشترينا منها هذا؟».

فقلت: «إنها صبية مليحة». فقال:

«أتظن ذلك؟ إذَنْ فتلك أنباء طيبة أيها الرجل ديفيد». فقلت:

«أستحلفك بحق كل عجيب أن تقول لي ماذا تعني بهذا وأي خير وراءه؟»، فقال «ألن»، ومظهره يبعث على الضحك:

«حسنًا، كنت أفكر في أن هذا وسيلة للحصول على الزورق». فقلت:

«لو كانت الصبية في مكاننا وكنا في مكانها، لكان ذلك أكثر احتمالًا». فقال:

«هذا هو كل ما ينبغي عليك أن تفكر فيه: يجب أن تعرف أنني لا أريد أن تقع الصبية في حبك، ولكني أريد أن تشفق عليك فقط يا «ديفيد» بحيث لا ينتهي الأمر

بأن تؤخذ بجمالك. دعني أر وجهك (ناظرًا إليَّ نظرة شاملة عجيبة). وددتَ لو كنتَ أكثر اصفرارًا، وأما فيما عدا ذلك فإنك ملائم جدًّا لتنفيذ مأربي؛ لأن مظهرك حقير، وملابسك بالية، وفي وجهك جراح سطحية، تبدو وكأنك قد سرقت سترتك من هيكل الحقل(12). تعال نذهب إلى الحان سعيًا وراء رزقنا». تبعته ضاحكًا فاسترسل قائلًا:

(12) خيال المآتة.

- «إنك يا «ديفيد بلفور» تبدو سيدًا مضحكًا جدًّا بطريقتك هذه، والعمل الذي سوف تقوم به سيكون باعثًا على الضحك لا مراء في هذا. لو كنت تشفق على عنقي (ولا داعي لأن أذكرك بعنقك أيضًا) فمن المحتمل أنك تحمل هذه المهمة عاتقك. سألعب دورًا أساسه خطير خطورة المشنقة لكلينا. لذا فرجائي إليك أن تكون واعيًا وتتدبر الأمر تبعًا لذلك»، فقلت:

«حسنًا. حسنًا، سأقوم به على النحو الذي تريده».

مد إليَّ ذراعه عندما اقتربنا من القرية لأعلق به وكأني شخص لا حول له، وفي تلك اللحظة دفع باب الحان ففتحه وبدوت نصف محمول عليه، فدهشت المرأة أشد الدهشة لعودتنا السريعة ولم يهدر «ألن» الكلمات في الإيضاح لها، بل أعانني على الجلوس على أحد المقاعد، وطلب إليها أن تأتي لي بقدح من الخمر، وصار يعطيه لي رشفة بعد أخرى، وبدأ يطعمني الجبن والخبز كسرة وراء كسرة وكأنه صبية ممرضة، تم كل هذا وعلى محياه حزن وقلق وحب كفيلة بأن تخدع قاضيًا. لم يكن هناك ما يدعو إلى الدهشة في أن الصبية قد أخذت بمظهرنا، فأنا صبي مسكين مريض منهوك القوى، ومعي رفيقي الذي يفيض حنانًا. دنت منا الفتاة حتى قاربتنا، ثم وقفت واتكأت بظهرها على المائدة المجاورة. وأخيرًا قالت:

«ماذا به؟» فاستدار «ألن» نحوها وقد عجبت أشد العجب عندما سمعته يصيح غاضبًا:

«ماذا به؟! لقد قطع على قدميه مئات الأميال تفوق في عددها شعيرات لحيته. كان ينام الليالي في العشب المبتل أكثر مما يقضيها على فراش جاف. حقًّا إن خطبه لشديد». ثم ظل ثائرًا فيما بينه وبين نفسه وكأنه رجل غاضب طالما كان يطعمني. فقالت الفتاة:

«إنه صغير لا قبل له على احتمال هذا»، فقال «ألن» وظهره إليها:

«إنه لصغير جدًّا». فقالت:

«كان من الأفضل له أن يركب». فاستدار «ألن» نحوها وقال لها ونفس الثورة بادية عليه:

«ومن أين أستطيع أن آتي له بجواد؟ أتريدينني أن أسرق؟!».

ظننت أن جفوته ستجعلها ترحل عنا غاضبة خاصة عندما ظلت صامتة، ولكن رفيقي كان يعرف جيدًا ما هو فاعل، ورغم ما كان يعتريه من البساطة في بعض

شؤون الحياة، إلا أنه يتحلى بمدخر من الدهاء في مثل هذه الأمور، فقالت أخيرًا:

«لستما في حاجة إلى أن تخبراني بأنكما من علية القوم»، فقال «ألن» وقد خففت ملاحظتها التي لا تصنع فيها من حدته قليلًا (أعتقد أن ذلك كان على نقيض إرادته):

«حسنًا، وافرضي أننا من علية القوم، فهل سمعتِ يومًا بأنهم يلقون بالمال في جيوب الناس؟».

وعند هذا بعثت بزفرة، وكأنها امرأة عظيمة حرمت من الميراث، وقالت:

«كلا، هذا صحيح حقًّا».

كنت طوال هذه اللحظات ساخطًا على نفسي لأني مثلت هذا الدور، فظللت جالسًا بين الخجل والسرور وقد انعقد لساني عن الكلام، ولكني لم أستطع أن أسترسل في هذا طويلًا، وطلبت من «ألن» أن يتركني؛ لأني أحس بأني أصبحت في حالة أفضل من ذي قبل، والتصق صوتي بحلقي؛ لأني كنت طوال حياتي أمقت الاشتراك في الأكاذيب، ولكن حيرتي الشديدة قد ساعدت على إحكام المؤامرة؛ لأن الصبية لم تشك في أن مرضي ونصبي كانا مبعث اختناق صوتي، فقالت بصوت باكٍ:

«أليس له أصدقاء؟»، فقال «ألن»:

«نعم له أصدقاء أغنياء ذلك لو وصلنا إليهم، وهناك سيجد فراشًا يستلقي عليه، وغذاء ليأكله، وأطباء يقومون على رعايته، أما هنا فهو مسوق إلى أن يتعثر في مناقع الوحل وينام في العشب كشحاذ»، فقالت الصبية:

«ولِمَ هذا؟»، فقال «ألن»:

«يا عزيزتي، لا أستطيع أن أقول لكِ شيئًا وأنا آمن غاية الأمن، ولكني بدلًا من هذا سأنبئك عما سأفعله، سأطلق لكِ شيئًا من النغم صغيرًا».

وعند هذا اتكأ على منضدة بعيدة يبعث ذلك الصفير، وبشعور عجيب أطلق لها جزءًا من مقطوعة «شارلي حبيبي». فقالت:

«صه». ثم نظرت من فوق كتفها نحو الباب فقال «ألن»:

«هذا هو الأمر». فصاحت الفتاة:

«ولكنه فتى صغير جدًّا!»، فقال «ألن»:

«لقد بلغ من السن مرحلة بحيث..»، ثم مس مؤخر عنقه بسبابته، ويعني بذلك أنني قد بلغت من السن قدرًا يمكن معه أن أشنق في سبيل مبدئي الملكي، فصاحت وقد احمر وجهها أشد الاحمرار:

«إنه لعار مشين»، فقال «ألن»:

«وهذا ما سيحدث لو لم ندبر أمرًا أفضل».

وعند هذا استدارت الفتاة، وبرحت المكان مسرعة تاركة إيانا وحيدين. يستمتع «ألن» بروح معنوية عالية لنجاح خطته حتى تلك الساعة، وأما أنا فغاضب أشد الغضب؛ لأنهما كانا يناديانى باليعقوبي ويعاملاني كطفل. فصحت:

«إنني لا أستطيع يا «ألن» أن أسترسل في هذا»، فقال «ألن»:

«لا بد وأن تستمر في هذا الموقف؛ لأنك لو قلبت القدر الآن فمن المحتمل أن تنجو بحياتك من النار، وأما «ألن بريك» فمقضيٌّ عليه بالموت».

كان كل ما قاله صدقًا، حتى إنني لم أفعل شيئًا إلَّا أن أبعث بالأنين الذي أعان «ألن» على خدمة مأربه؛ لأن الفتاة قد سمعته في أثناء عودتها مسرعة تحمل طبقًا فيه بعض الشواء وزجاجة من جعة قوية. فقالت:

- «يا لك من حمل مسكين!».

ولم تكد تضع الطعام أمامنا، حتى مست كتفي مسًّا رقيقًا، وكأني صديق، وهي بذلك توحي إليَّ بأن أمرح، ثم قالت لنا بأن نأكل ولن ندفع الثمن؛ لأن الحان كان ملكًا لها أو على الأقل ملك لأبيها الذي ذهب في ذلك اليوم إلى «بتنيكريف». لم ننتظر دعوة أخرى إلى الطعام؛ لأن الخبز والجبن لم يكونا سوى وجبة خفيفة فيها شيء من الصبر على الجوع، وأما رائحة الشواء فكانت شهية. وعندما جلسنا لنأكل، اتخذت الصبية نفس المكان إلى جانب المائدة المجاورة تنظر إلينا، وتفكر فيما بينها وبين نفسها عابسة الوجه تشد حبل ميدعتها في يدها، وأخيرًا قالت «لألن»:

«إني أفكر في أنك لا تستطيع ضبط لسانك». فقال «ألن»:

«نعم، ولكنك ترين أني أعرف القوم الذين أتحدث إليهم». فقالت:

«إني لن أغدر بكما أبدًا إذا كنت تقصد ذلك». فقال «ألن»:

«كلا، إنك لست من هذا الطراز، ولكني سأقول لكِ عما عليكِ أن تفعليه. إنكِ ستساعدينا.»، فهزت رأسها. وقالت:

«لا أستطيع، كلا إني غير قادرة على ذلك». فقال:

«لا، ولكن ماذا ترين لو استطعت؟»، فلاذت بالصمت. وقال «ألن»:

«أصغي إليَّ يا حبيبتي. يوجد زوارق في مملكة «فايف»؛ لأني رأيت عددًا لا يقل عن اثنين راسيين على الشاطئ عندما كنت مارًّا بمحاذاة طرف مدينتكم، والآن لو استطعنا استخدام أحد الزوارق لنعبر به إلى «لوثيان» في جمح الليل وفي شيء من التكتم، وعلى أن يكون برفقتنا رجل من طراز طيب لا يفشي السر ليعيد هذا الزورق ثانية، فمن المحتمل أن يكون في هذا إنقاذ أكيد لروحين، وإذا لم نستطع الحصول على ذلك الزورق فها هو الأمر أمامك: إننا لا نمتلك في هذه الدنيا الرحبة إلَّا ثلاثة شلنات، فأين نذهب؟ وماذا نعمل؟ وأي مكان آخر يأوينا إلَّا حبال المشنقة؟ ها أنا أقولها لكِ كلمة صريحة عارية، هل سنمضي دون أن تقدمي لنا عونًا أيتها الصبية؟ أتنامين في فراشك الدافئ وتفكرين فينا عندما تنبح الريح في المدخنة،

ويدق المطر فوق السقف؟ هل تجلسين لتناول الطعام بجوار وجنات النار الحمراء وتفكرين في ذلك الغلام المسكين العليل وهو يعض أطراف أصابعه هائمًا في البقاع يلذعه البرد والجوع؟ إنه مسوق إلى أن يرحل سواء أكان مريضًا أم معافى، وأن يجر نفسه على الطريق الطويل تحت المطر وصراع الموت في حلقه، وعندما يلفظ أنفاسه الأخيرة على كومة من الصخور الباردة، فلن يكون هناك إلى جواره من أصدقاء إلَّا أنا والإله فقط».

عند هذا الاستعطاف استطعت أن أرى الصبية في حيرة عقل شديد؛ لأن هذه الاستغاثة قد أغرتها على مساعدتنا رغم أنها كانت تخشى بعض الخشية من أنها ربما تعين شريرين على أمرهما، ولذا فقد اعتزمت أن أتدخل بنفسي في تلك اللحظة وأزيل بعض شكوكها بشيء من الصدق. فقلت لها:

«ألم يسبق أن سمعتِ بالسيد «رانكيلور أوف دي فيري؟»، فقالت:

«رانكيلور الكاتب؟ أظن ذلك». فقلت:

«حسنًا. إني أقصد إلى بابه، ومن هذا تستطيعين أن تقرري إذا كنت رجل سوء أم لا، هذا وسأقول لكِ المزيد: على الرغم من أن حياتي محفوفة بالمخاطر من جراء غلطة مروعة، فليس هناك من صديق للملك «جورج» مَن هو أشد وفاء مني في إسكتلندا بأسرها».

عند هذا استضاء وجهها كثيرًا، بينما كان وجه «ألن» يبدو قاتمًا. وقالت:

«إن ما قلته أكثر مما أطلب. إن «رانكيلور» رجل معروف». ثم أمرتنا بأن ننتهي من تناول طعامنا ونغادر القرية بأسرع ما نستطيع ونستلقي في الغابة الصغيرة الواقعة على شاطئ البحر. ثم قالت: «تستطيعان أن تثقا بي، وسأجد وسيلة لرحيلكما».

عند هذا لم ننتظر إلى أكثر من ذلك، بل صافحناها متفقين بعد أن انتهينا من التهام الطعام على عجل، وانطلقنا ثانية من «لايمكلنز» مسرعين نحو الغابة التي كانت رقعة صغيرة من الأرض تغطيها صفوف من الأعشاب الصغيرة والزعارير وبعض شجيرات قصيرة ليست من الكثافة بحيث تخفينا عن أنظار المارة على الطريق أو الشاطئ، وعلى أي حال فقد كان علينا أن نستلقي في ذلك المكان نستمتع قدر الطاقة بالطقس الدافئ، وبآمالنا العراض في الخلاص، ونخطط بوجه خاص لما تبقى أمامنا لنفعله.

لم يصادفنا في ذلك اليوم بطوله من المتاعب إلَّا شيء واحد، وذلك عندما أقبل عازف على المزمار جائل، وجلس معنا في نفس الغابة بأنفه الأحمر وبصره الأعشى. كان ككلب مخمور يحمل في جيبه زجاجة كبيرة من الخمر. ويقص علينا قصة طويلة عن الأخطاء التي ارتكبها معه كل ألوان الناس، ابتداء من اللورد رئيس محكمة «سيشن» الذي حرمه من حقه إلى أسرة «بيليز أوف إنفر كيثنج» التي أعطته أكثر مما أراد. كان من المحال ألا يتملكه شيء من الشك في رجلين مستلقيين طوال النهار في دغل وليس لديهما من عمل يدعيان القيام به، وكان طوال جلوسه

هناك يجعلنا نتصبب عرقًا من أسئلته التي تنطوي على التلصص وحب الاستطلاع. ولما كان من المحتمل أنه رجل لا يستطيع ضبط لسانه، فقد كنا مسوقين إلى الرحيل بعد أن تركنا وانصرف.

انقضى النهار بنفس صفائه، وجن الليل ساكنًا منيرًا، وانبعثت الأضواء من المنازل والأكواخ، ثم بدأت تنطفئ واحدًا تلو الآخر، ولكن الساعة كانت قد جاوزت الحادية عشرة، وكنا قد طال بنا العذاب من فرط القلق قبل أن نسمع صوت احتكاك المجاذيف بالمسامير، وعند هذا نظرنا، فرأينا الصبية بنفسها في زورق مقبلة تجذف نحونا. إنها لم تأتمن أحدًا على سرنا حتى ولا حبيبها إن كان لها محب، ولكنها غادرت الدار من النافذة بعد أن نام أبوها، وسرقت زورق أحد الجيران، وأقبلت لعوننا وحيدة.

تولاني خجل لم أستطع معه أن أوضح شكري، ولكنها لم تكن أقل خجلًا عند التفكير في سماعه، ورجتنا ألا نضيع الوقت وأن نتمسك بالسكينة قائلة (ما هو حق) إن لب الموضوع كان في الإسراع والصمت، وهكذا أخذتنا إلى شاطئ «لوثيان» الذي لم يكن بعيدًا عن «كاريدين»، ثم صافحتنا، وانطلقت في البحر مرة أخرى مجذفة إلى «ليمكلنز» قبل أن تقال كلمة واحدة عن خدماتها لنا أو شكرنا لها.

وحتى بعد أن ذهبت لم يكن لدينا ما نقوله، والحق أنه لم يكن هناك من الكلمات ما يفي بالشكر على مثل هذا العطف، إلَّا أن «ألن» وقد وقف على الشاطئ يهز رأسه. وقال أخيرًا:

«إنها صبية رقيقة. إنها صبية رقيقة جدًّا يا ديفيد».

وبعد أن مرت بنا ساعة من الزمان، وكنا مستلقيين في كهف على شاطئ البحر، وكنت على وشك النعاس، انطلق «ألن» يمتدح خلقها مرة أخرى، أما أنا فلم أستطع أن أقول شيئًا. لقد كانت مخلوقة بلغت من البساطة حدًّا جعل قلبي يلذعني من وخز الضمير والخوف؛ لأني خشيتُ أن نكون قد أقحمنا بها في مخاطر موقفنا.

* * *

الفصل السابع والعشرون
آتي إلى السيد رانكيلور

وفي اليوم التالي اتفقنا على أن ينطلق «ألن» وحده إلى أن يحين مغرب الشمس، فإذا ما أوشك الظلام على أن يسدل أستاره فعليه أن يستلقي في الحقول إلى جانب الطريق بالقرب من «نيو هولز»، ويسكن ولا يجيب إلَّا عند سماع صفيري.

عرضت عليه أول الأمر أن يكون لحن «بوني هاوس أوف إيرلي» شارة لنا، وكان محببًا إلى قلبي، إلَّا أنه لم يرضَ؛ لأن اللحن كان شائعًا معروفًا، وأن أي فلاح أو حارث قد يجيب على هذا الصفير عن غير عمد، ثم علمني بدلًا منه جزءًا من لحن آخر من ألحان سكان الجبال الإسكتلندية الذي ظل يرن في مسمعي منذ ذلك اليوم حتى الآن، ويخيل إليَّ أني لن أنساه حتى يوم مماتي، وكلما مر هذا اللحن بخاطري عادت إليَّ ذكرى اليوم الأخير من قلقي، عندما كان «ألن» جالسًا في قاع الوادي يبعث الصفير، وينقر بإصبعه على دقات الأنغام، ويمر ظلام الفجر على وجهه.

وصلت إلى الطريق الطويل في «كوينز فري» (مدينة معبر الملكة) قبل مطلع الشمس. كانت المدينة جميلة البناء، وأحجار منازلها مصقولة ملساء، ولم تكن قاعة الاحتفالات من الأبهة بمكان إذا ما قُورنت بقاعة مدينة «بيبلز»، ولم يكن الطريق جميلًا أيضًا، غير أني إذا ما نظرت إلى المدينة في جملتها، شعرتُ بالخجل من أفكاري الخاطئة.

ولما بدأ النهار يحبو، والنار تُوقد في مدافئ المنازل، والنوافذ تفتح، وشرع الناس يظهرون خارج الدور، أخذت مخاوفي وقلقي يزداد سوءًا لقد رأيت الآن أنه ليس هناك من سند أو بينة واضحة تثبت حقوقي وشخصي، ولو كان الأمر كله مشروعًا(13) باطلًا لكنت مخدوعًا حقًّا أمر الخداع وهائمًا في متاهة شائكة، وحتى لو كانت الأمور كما فهمتها فإن تدعيم منازعاتي سيستنفد مني وقتًا طويلًا، وأي وقت لديَّ أضيعه هباء، وليس معي في جيبي سوى ثلاث شلنات، وفي عنقي رجل متهم مطارد ينبغي عليَّ أن أيسر له أمر الإبحار من هذا الإقليم؟ حقًّا لو تحطم أملي معي فنهاية كلينا إلى المشنقة. وعندما سرت ذهابًا وجيئة ورأيت القوم في الطرقات والنوافذ يحدقون النظر بي متسائلين ويكز بعضهم البعض بالمرافق ويتحدثون مبتسمين، بدأت أدرك أنه أمر شاق أن أسأل عن السيد «رانكيلور»، وأن إقناعه بقصتي سيكون أكثر مشقة.

(13) الميراث.

وصونًا لحياتي لم أستطع أن أستجمع شجاعتي لأخاطب واحدًا من ذوي المكانة في المدينة، وخجلت من أن أتحدث إليهم وأنا على هذا المظهر الممزق الرث، ولو سألتهم عن منزل رجل كالسيد «رانكيلور»، فلا بد وأن ينفجروا ضاحكين في وجهي، لذا فقد صرت أذرع الطريق غدوًا ورواحًا ثم قصدت إلى الميناء ككلب فقد

صاحبه، تتمزق أحشائي، وتنتابني بين الحين والحين طعنة يأس، وأخيرًا أضحى النهار وكانت الساعة حوالي التاسعة صباحًا، وقد أضناني ذلك التجوال عندما وقفت مصادفة أمام منزل فاخر في جانب المدينة، زجاج نوافذه جميل نظيف، وعلى قواعدها حلقات من زهور مضفورة، وقد ازدانت جدرانه بطلاء براق، ورأيت كلب صيد قابعًا على الدرج يتثاءب، وكأنه رجل في داره. حسنًا لقد كنت أحسد ذلك الحيوان الأبكم عندما فتح الباب وخرج منه رجل شديد الفطنة أشقر اللون شفوق تكسوه مظاهر الوقار، على عينيه نظارة ويضع شعرًا أبيض مستعارًا. لقد كنتُ في حالة من البؤس جعلت كل مَن يراني أول مرةً مسوقًا إلى أن ينظر إليَّ مرة أخرى، وهذا السيد -كما ثبت لي- قد دُهش لمظهري الذي يدعو إلى الرثاء، إلى حد أنه قصد إليَّ رأسًا وسألني عن أمري، فأخبرته بأني قد أتيت إلى «كوينز فري» (معبر الملكة) لإحدى المهام، واستجمعت كل شجاعتي وسألته أن يدلني على منزل السيد «رانكيلور». فقال:

«لماذا؟ إنه ذلك المنزل الذي خرجت منه لتوي، وللمصادفات العجيبة أنني نفس ذلك الرجل»، فقلت:

«إذَنْ أرجوك يا سيدي أن تتفضل وتأذن لي بالتحدث معك»، فقال:

«إني لا أعرف اسمك، ولم أرَ وجهك قبل اليوم»، فقلت:

«اسمي ديفيد بلفور». فارتفع صوته كمن أخذته الدهشة وردد وهو ينظر إليَّ ساخرًا:

«(ديفيد بلفور؟!) ومن أين أتيت يا سيد (ديفيد)؟»، فقلت:

«لقد أتيت من أماكن كثيرة عجيبة أشد العجب، ولكني أعتقد أنه من الأفضل أن أتحدث إليك عن المكان والوسيلة ونحن على انفراد».

بدا وكأنه قد سبح به الفكر لحظة قابضًا على شفته بيده، ناظرًا إليَّ حينًا وإلى ممر الطريق حينًا آخر. ثم قال:

«نعم، إن هذا سيكون أفضل بلا شك»، وقادني عائدًا بي إلى داره، وصاح بشخص لم أستطع أن أره قائلًا له بأنه سيكون مرتبطًا بعمل طوال الصباح، وأتى بي إلى حجرة صغيرة مغبرة مليئة بالكتب والوثائق. هنا جلس وأمرني بالجلوس رغم ما كان يبدو عليه من ندم على جلوسي بأسمالي الملطخة بالوحل على مقعده النظيف، وقال:

«لو كان لديك أمر، فأرجو ألا تطيل وأسرع إلى لب الموضوع»، ثم قال باللاتينية (لا تسرف في الكلام حتى لا يسأمك السامع)، ثم سألني وهو يرمقني بنظرة فاحصة قائلًا: «أتفهم ذلك؟». فقلت باسمًا:

«سأفعل كما قال (هوراس) وأصل بك إلى جوهر الموضوع رأسًا». فهز رأسه كمَن غمره السرور، وقد كانت تلك الجملة اللاتينية القصيرة في الواقع اختبارًا لي، وعلى الرغم من أن الشجاعة قد تملكتني قليلًا إلَّا أن الدم قد تصاعد إلى وجهي

عندما استطردت قائلًا «إن لديَّ من الأسباب ما يجعلني أعتقد أن لي بعض الحقوق المشروعة في ضيعة الأشباح».

أخرج الرجل كراسة من درج مكتبه ووضعها مفتوحة أمامه. وقال:

«حسنًا». ولكني أغلقت فمي ولذت بالصمت. فقال:

«تعال. تعال يا سيد (بلفور). لا بد وأن تواصل. أين ولدت؟». فقلت:

«في (أسندن) يا سيدي، في الثاني عشر من شهر مارس سنة ألف وسبعمائة وثلاث وثلاثين».

بدا وكأنه يتابع قولي في كراسته، ولكني لم أفهم لذلك معنى، ثم سألني قائلًا:

«ومَن هما أبواك؟»، فقلت:

«كان أبي يُسمَّى (إلكسندر بلفور) ناظر المدرسة في تلك المدينة، وكانت أمي تُدعى (جريس بيتارو)، وأظن أن أسرتها كانت من (آجنوس)»، فسألني السيد «رانكيلور» قائلًا:

«هل معك من الأوراق ما يدل على شخصيتك؟»، فقلت:

«لا يا سيدي؛ ولكنها في حوزة السيد (كامبل) راعي الكنيسة، وليس من الصعب إحضارها، والسيد «كامبل» بدوره على استعداد لتأييد قولي، ولا أظن أن عمي ينكرني في هذا الشأن». فقال:

- «أتعني السيد إيبنزر بلفور؟»، فقلت:

- «هو بعينه»، فسألني قائلًا:

- «ذلك الرجل الذي قابلته؟»، فأجبته قائلًا:

- «إنه الرجل الذي استقبلني في داره»، فسأل السيد «رانكيلور» قائلًا:

«ألم تلتق أبدًا برجل يسمى «هوسيزون»؟»، فقلت:

«نعم يا سيدي، وقد كان هذا لنحسي لأنه تآمر مع عمي على اختطافي على مرأى من هذه المدينة، وحُملت إلى البحر وقاسيت تحطيم السفينة ومئات من المآسي، وهأنذا أقف أمامك اليوم في هذا المظهر الزري».

فقال السيد «رانكيلور»:

«تقول إن السفينة قد تحطمت بكم، فأين كل هذا؟».

قلت: «بعيدًا عن طرف جزيرة «مل»، وقد طوحت بي الأمواج إلى جزيرة تسمى «إيريد». فقال باسمًا:

- «آه، إنك أكثر تعمقًا مني في الجغرافيا، ولكن إلى هنا يمكنني القول بأن ذلك يتفق تمامًا مع ما لديَّ من معلومات، ولكنك تقول بأنك قد اختُطفت، فماذا تعني بذلك؟»،

فقلت:

«أعني الكلمة بمعناها الواضح. لقد كنت في طريقي إلى منزلك عندما خدعوني وأنا على ظهر السفينة التجارية، ولطموني بقوة وقسوة، وألقوا بي في أسفل السفينة، ولم أعرف شيئًا إلَّا بعد أن ابتعدنا في عرض البحر. لقد كان مقصدهم أن يأخذوا بي إلى مزارع التبغ حيث يبعث بالمنفيين والمجرمين، وهو مصير شاءت إرادة الله ألا أتردى فيه». فقال وهو ينظر في كراسته:

«لقد فقدت السفينة في السابع والعشرين من يونيه، وها نحن الآن في الرابع والعشرين من أغسطس، وهي فترة طويلة تقرب من الشهرين يا سيد «بلفور» أحس أصدقاؤك خلالها بقلق شديد، ولن أقتنع إلَّا إذا أوضحت لي كل ما يتعلق بهذه الفترة»، فقلت:

«حقًّا يا سيدي، لقد كان من السهولة بمكان شغل هذين الشهرين، ولكن قبل أن أروي قصتي، أحب أن أقول لك إنه من بواعث بهجتي أن أكون على ثقة من أني أتحدث إلى صديق». فقال المحامي:

«إننا نتحدث وكأننا ندور في حلقة مفرغة. لن أقتنع قبل أن أستمع إليك، ولن أكون صديقًا حتى أعرف كل شيء. ولو وثقت بغيرك إلى أكثر من ذلك، فإن هذا سيكون أكثر ملاءمة لسنك، وأنت تعرف يا سيد «بلفور» أن هناك مثلًا في الريف يقول بأن الذين يخشون الشر هم فاعلوه»، فقلت:

«يجب ألَّا تنسى يا سيدي أنني قد قاسيت كثيرًا بسبب ثقتي في الناس، وزُجَّ بي في السفينة بغية أن أصبح عبدًا، وكان ذلك على يدي نفس الرجل (إذا لم أخطئ الفهم) الذي كنتَ وكيلًا له».

كنت طوال تلك الفترة أدعم مركزي لدى السيد «رانكيلور» وأعلم على أن أحوز بعض ثقته، ولكنه بعث بضحكة عالية نوعًا ما عندما أطلقت هذا الهجوم مبتسمًا، ثم قال:

«كلا، كلا. ليس الأمر بهذه الحال من السوء». ثم قال باللاتينية «إننا لبشر». وأتبع باللغة الإنجليزية قائلًا: «حقًّا لقد كنت وكيلًا لعمك في أعماله، ولكن بينما كنت، ثم باللاتينية» (وأنت صغير)» وأتبع بالإنجليزية قائلًا: «تمرح في الغرب جرت أحداث كثيرة، وإذا لم تكن قد سمعت بها فإن ذلك لم يكن بسبب الإقلال من الحديث عنها، وفي نفس اليوم الذي وقعت فيه مأساة السفينة في البحر، جاء السيد «كامبل» إلى مقر عملي يتنسم أخبارك من كل صوب، لم أكن قد سمعت بك، ولكني كنت أعرف أباك، وبتجاريبي (التي ستلمسها فيما بعد) كنت ميالًا إلى توقع الأسوأ. لقد اعترف السيد «إيبنزر» بأنه قابلك، وأعلن (ما بدا بعيد الاحتمال) بأنه أعطاك مبالغ من المال لها وزنها، وأنك قد بدأت سفرتك إلى قارة أوروبا معتزمًا إتمام دراستك وهو أمر محتمل جدير بالمديح، وعندما سُئل عن السبب الذي من أجله لم يبعث بكلمة إلى السيد «كامبل» شهد بأنك قد أظهرت رغبة ملحة في أنك تريد أن تفصل بين حاضرك وحياتك الماضية، وإلى أبعد من هذا فقد سُئل على مكان وجودك الآن

فادعى الجهل به، ولكنه قال بأنه يعتقد أنك كنت في «ليدن». لقد كان هذا كل ما قاله على وجه التقريب. لست على يقين من أن أحدًا ما قد صدَّق قوله، وقد برم بي عمك على وجه خاص عندما طلبت إليه إيضاحًا لبعض الأمور، حتى إنه (قصارى القول) أراني الطريق إلى الباب. كنا إذَنْ في موقف كله شك؛ لأنه مع كل ما خامرنا من ريب حذره، فلم يكن لدينا أي دليل واضح ملموس، أمامي في هذه الأوراق ما قال الربان «هوسيزون» عن قصة غرقك فتحطمت جميع الشكوك، ولم تسفر عن نتيجة إلَّا قلق السيد «كامبل»، وما أصابني من ضرر، ووصمة أخرى أضيفت إلى سمعة عمك الملطخة وما كان في قذارتها ما يتسع لعار جديد»، ثم قال: «إنك الآن يا سيد «بلفور» تعرف كل مراحل هذه الأمور وتستطيع أن تقرر بنفسك إلى أي مدى يمكنك أن تثق بي».

حقًّا لقد كان رجل أدب أكثر مما أستطيع أن أصوره، وكان يدخل كثيرًا من الكلمات اللاتينية في حديثه، ولكنه كان ينطقها من الأعماق وبأسلوب استطاع معه أن يقهر شكي، وقد تمكنت فوق كل هذا من أن أرى كيف أنه يعاملني وكأنني في منأى عن كل ريبة، وهكذا أصبح متيقنًا من شخصيتي فقلت:

«يا سيدي، لو أنبأتك بقصتي كاملة، فلا بد لي وأن أضع حياة صديق لي في طيات كتمانك، فأعطني الوعد بأن أمره سيكون موضع سرك، وأما فيما يمسني فإني لا أطلب ضمانًا أفضل من ثقتك بي، فوعدني جادًّا، وقال:

«إن في قولك هذا طلائع لا تبشر بالخير، وإذا كان في قصتك ما يتعارض مع القانون، فأرجو أن تعي أنني محام، ويجب عليك ألا تتعمق في التفاصيل».

وعلى هذا رويت له قصتي من بدايتها، فأصغى إليَّ ونظارته راسية على جبينه، مغمضًا عينيه، حتى إني كنت في بعض الأحايين أخشى أن يكون نائمًا، ولكن الأمر كان على نقيض ذلك، فقد استمع إلى كل كلمة (كما استبان لي فيما بعد) بسمع خاطف وذهن وقاد بعثا في دهشة، شديدة حتى إنه تذكر الأسماء التي كانت باللغة الإسكتلندية المحلية، والتي لم يكن قد سمع بها إلَّا في ذلك الوقت، وظل يذكرني بها بعد مرور عديد من السنين، وعندما ذكرت اسم «ألن بريك» كاملًا أصبح الموقف غريبًا؛ لأن هذا الاسم كان يدوي في جميع أرجاء إسكتلندا مقرونًا بقتيل «آبن»، وبالمكافأة التي أعلن عنها. لم أكد أفوه باسم «ألن» حتى تحرك الرجل في مقعده وفتح عينيه، ثم قال:

«لو كنت في موقفك يا سيد «بلفور» لما ذكرت الأسماء التي لا تمس الحاجة إلى ذكرها، وخاصة سكان الجبال الإسكتلندية الذين تقع الغالبة العظمى منهم تحت طائلة القانون». فقلت:

«حسنًا، قد يكون من الأفضل عدم ذكر أسمائهم، أما وقد انزلق لساني فليس هناك من ضرر في أن أمضي في حديثي». فقال السيد «رانكيلور»:

«أبدًا إني لست حاد السمع كما لاحظت ذلك بنفسك، وأنا واثق من أني لم ألتقط الاسم تمامًا، وإذا أذنت لي فإننا سنسمي صديقك باسم السيد «تومسون» منعًا للأقاويل. هذا

وسأتبع نفس الأسلوب في المستقبل مع أي ساكن للجبال الإسكتلندية قد تدعو الضرورة بك إلى ذكر اسمه حيًّا كان أو ميتًا.

بهذا أدركت أنه لا بد وأن يكون قد سمع الاسم بوضوح تام، وأنه قد تكهن بأني سأذكر جريمة القتل لا محالة، وإذا كان قد راق له أن يدعي الجهل بها فإن هذا لم يكن من شأني، ولذا فقد ابتسمت وقلت له إن اسم «تومسون» ليس له رنين الاسم الإسكتلندي، ولكني وافقته آخر الأمر على أن استبدل به «تومسون» طوال تلاوة قصتي، وقد بعث هذا في نفسي كثيرًا من المسرة؛ لأنها كانت نفس الطريقة المحببة إلى «ألن»، وعلى هذا المنوال مضيت مستبدلًا باسم «جيمس ستيوارت» اسم «قريب تومسون»، وأصبح «كولين كامبل» يدعى السيد «جلين». وعندما أتيت إلى تلك المرحلة من قصتي التي قابلت عندها «كلاني» استبدلت باسمه السيد «جيمس الزعيم الإسكتلندي». حقًّا لقد كان في هذا العمل أضحوكة غير مستترة، وساءلت نفسي عمَّ إذا كان المحامي سيسترسل فيها أم لا، ولكنها كانت على أي حال تتلاءم تمام الملاءمة مع ذلك العصر، حيث كان هناك في البلاد حزبان، وأشخاص ليس في طبعهم الثرثرة في الحديث، وليس لهم آراء خاصة رفيعة، بل كان كل همهم أن يبحثوا عن أفضل الأساليب لإبعاد الضر عن أي من الحزبين، وعندما انتهيت من تلاوة قصتي كلها قال المحامي:

«حسنًا، حسنًا. إن هذه ملحمةٌ رائعة، بل إنها «أوديسا» من وضعك، يجدر بك يا سيدي أن تقولها باللغة اللاتينية الصحيحة عندما ينضج مستواك العلمي، أو بالإنجليزية إن شئت ولو أني من ناحيتي أفضل اللغة الأقوى. لقد طال بك الترحال في بقاع كثيرة»، ثم سألني باللاتينية: «أي البقاع جُبت؟»، ثم بالإنجليزية: «أي النواحي في إسكتلندا لم تمر بها؟ لقد أظهرت إلى جانب ذلك استعدادًا غريبًا في الوقوع في مواقف خاطئة، كما أبديت نفس الاستعداد في حسن التصرف في الخلاص منها. بوجه عام، ويبدو لي أن السيد «تومسون» هذا رجل له صفات منتقاة، ولو أنه من المحتمل أن يكون في طبعه بعض الميل إلى الشجار والعراك، ومما يزيد في سروري (على الرغم من خصاله الحميدة هذه) أن يجلو بعيدًا نحو «بحر الشمال»؛ لأن أمره مشكلة معقدة، ولكن لا ريب في أنك محق في تعلقك به ردًّا على صنيعه في عدم تخليه عنك، ونستطيع القول بأنه كان لك رفيقًا وفيًّا». ثم قال باللاتينية: «إنه لم يتركك وحدك ويفر». ثم تابع بالإنجليزية قائلًا: «وإني لمؤمن بأنكما ستذكران ذلك، ولن تنسياه حتى وأنتما معلقان بحبال المشانق. حسنًا، حسنًا، لقد انتهت لحسن الحظ هذه الأيام، وأعتقد (وأنا أتحدث كبشر) أنكما قد أشرفتما على نهاية متاعبكما».

وعندما أوضح لي العظات التي أستطيع الانتفاع بها من مغامراتي، نظر إليَّ ببهجة وحسن طوية، حتى إني أصبحت راضيًا تمام الرضى. لقد طال تجوالي مع أناس يطاردهم القانون، ونومي على الربى ألتحف السماء، حتى أصبح جلوسي مرة أخرى في منزل نظيف غير عار وحديثي الودي مع سيد يرتدي ملابس عادية أمرًا رفيعًا غير مألوف لديَّ، وأثناء تفكيري في هذا، وقعت عيناي على أسمالي التي ليس فيها من اللياقة شيء، وغصت مرة أخرى في لجج من الاضطراب الفكري،

فنظر إليَّ المحامي وأدرك كل شيء، وعند هذا نهض الرجل ونادى عبر الدرج لكي يضعوا على المائدة طبقًا آخر؛ لأن السيد «بلفور» سيبقى هنا للعشاء، ثم قادني إلى حجرة نوم في الطابق الأعلى من المنزل، ووضع أمامي ماء وصابونًا ومشطًا وبعضًا من ملابس ابنه، وبحركة تدل على أدب السلوك تركني لأغتسل.

* * *

الفصل الثامن والعشرون
أذهبُ بحثًا عن ميراثي

بدلت من مظهري قدر ما استطعت، وابتهجت عندما نظرت إلى المرآة لأجد أن الرجل الشحاذ قد أصبح شيئًا من الماضي، وأن «ديفيد بلفور» قد بُعث إلى الحياة مرة أخرى، ومع ذلك فقد كنت خجلًا أيضًا من هذا التغير، ومن تلك الملابس المعارة بوجه خاص. وعندما انتهيت من هذا، أمسك بي السيد «رانكيلور» على الدرج، وقال لي بضع كلمات تنم عن المجاملة وأخذني مرة أخرى إلى الغرفة، وقال:

«تفضل بالجلوس يا سيد «ديفيد». الآن وقد قاربت أن تبدو على حقيقتك، فدعني أرى إذا ما كنت أستطيع أن أجد لك أي أنباء جديدة، سيأخذك العجب بلا شك من أمر أبيك وعمك، فقصتهما في الواقع فريدة، وإن وجهي ليحمر خجلًا عند عرضها عليك تفصيلًا»، ثم أتبع حائرًا: «إن الأمر يدور حول قصة حب».

فقلت: «حقًّا! إني لا أستطيع أن ألائم تمامًا بين هذا القول وبين عمي».

فأجاب المحامي:

«ولكن عمك يا سيد «ديفيد» لم يكن على الدوام متقدم السن، ومما قد يزيد من دهشتك أنه لم يكن دائمًا قبيح الخلقة. لقد كان جميل المحيا عليه سمات العشق، وكان الناس يقفون بأبواب دورهم لينظروا إليه وهو يمر بهم ممتطيًا صهوة جواد نشيط. لقد رأيت ذلك بهاتين العينين، وإني أقولها صريحة بأنني كنت حاسدًا له، حيث إني كنت صبيًّا عاديًّا ليس فيه من المميزات شيء، وابنًا لرجل بسيط، وفي تلك الأيام»، ثم قال باللاتينية: «لم يكن هناك مكان لغير ذوي الجمال والجاه».

فقلت: «إن هذا يرن في مسمعي وكأنه حلم».

فقال المحامي: «نعم. نعم. هذا هو الحال في الشباب وفي المشيب، ولم يكن هذا كل ما في الأمر، بل إن روحه كانت تبدو وكأنها تبشر بأحداث جليلة في الأيام القابلة، ماذا كان عليه أن يفعل في سنة ألف وسبعمائة وخمس وعشرة إلَّا أن يجري ويلتحق بالثوار؟ فتعقبه أبوه ووجده في أحد الخنادق وعاد به مثخنًا بالجراح، وكان ذلك مدعاة إلى بهجة عمت الإقليم كله. وعلى أي حال، فقد وقع الصبيان في حب سيدة واحدة، ووثق السيد «إيبنزر» -الذي كان موضع الإعجاب والتدليل والحب- كل الثقة في انتصاره، وعندما استبان له أنه قد خدع نفسه، أحس بأنه كان مغترًّا كالطاووس. لقد سمع الإقليم كله بهذا، وكان حينًا يرقد في داره عليلًا مريضًا تلتف أسرته البلهاء بفراشه تذرف الدموع، وحينًا آخر ينتقل من حان إلى آخر يقص مواجعه على آذان «توم» و«ديك» و«هاري». كان أبوك يا سيد «ديفيد» رجلًا فاضلًا رحيمًا. ولكنه كان ضعيفًا ضعفًا محزنًا، فتقبل كل هذه الحماقات بطول أناة، وإذا أذنت لي فإني أقول لك إنه قد تخلى ذات يوم عن السيدة التي لم تكن بلهاء على

أي صورة، ولا بد وأنك قد ورثت عنها إحساسك الرفيع، وقد أبت أن يتبادلها واحد وآخر. لقد جثا كلاهما على ركبتيه بين يديها. وكانت العاقبة في ذلك الحين أنها دلت كلًّا منهما على الباب. كان ذلك في شهر أغسطس (يا إلهي) من نفس العام الذي أتممت فيه دراستي بالكلية، لقد كان هذا المشهد حقًّا باعثًا على أشد السخرية».

فكرت فيما بيني وبين نفسي أن هذا الأمر كان تافهًا، ولكني لم أستطع أن أنسى أن أبي قد أسهم فيه.

فقلت: «حقًّا يا سيدي إن في هذا ما يشبه طرفًا من تمثيلية محزنة».

فقال المحامي:

«لماذا؟ لا يا سيدي، أبدًا؛ لأن الحوار في التمثيلية المحزنة يهدف إلى أمر له وزنه (ثم أعاد نفي الكلمات باللاتينية)، أما هذا المشهد فيدور حول حمار صغير مدلل به نزق، ليس له من رادع إلَّا أن يوثق ويحكم عنانه، وعلى أي حال لم يكن هذا رأي أبيك الذي أصبح في النهاية ينتقل من إذعان إلى آخر، ومن صرخة عالية إلى أخرى. وقد كان لسيطرة حب الذات على عمك أن انتهيا آخر الأمر إلى نوع من المساومة وقعت نتائجها المؤلمة على كتفيك. لقد أخذ أحد الرجلين السيدة، وأخذ الآخر الضيعة. كان الناس في تلك الأيام يا سيد «ديفيد» يتحدثون طويلًا عن البر والجود. أما في هذه الأيام التي يسيطر فيها النزاع، فإن أغلب الظن عندي أن الأمور تجري سليمة عندما يستشير الإنسان محاميه ويحصل على كل ما يسمح به القانون. وعلى أي حال فإن ما ارتكبه أبوك من شجاعة طائشة حمقاء قد أنجب سلسلة مروعة من الظلم. عاش أبوك وأمك فقيرين، وأما أنت فقد نُشِّئت نشأة بائسة، وفي الوقت نفسه قضى مستأجرو ضيعة الأشباح أيامهم في شقاء، وقد أضيف إلى ذلك (لو كان أمرًا أعني به عناية شديدة) أن السيد «إيبنزر» قد عاش بدوره عيشة مرة».

فقلت: «ومع هذا فإن أشد الأشياء غرابة أن تتبدل طبيعة الإنسان على هذه الصورة».

فقال السيد «رانكيلور»:

«حقًّا، ومع ذلك فإني أتصور أن هذا أمر طبيعي إلى حد بعيد، وهو لم يستطع أن يعتقد أنه قد لعب دورًا ماهرًا؛ لأن الذين علموا بالقصة قد أعرضوا عنه، وأما أولئك الذين لم يعرفوا بها، ورأوا أن أحد الأخوين قد اختفى وأن الآخر فوق الضيعة، قد أيقنوا بأن الأخ الذي اختفى قد قُتل، وأخيرًا وجد نفسه في كل النواحي وحيدًا، وقد اجتنبه كل الناس. كان المال هو كل ما حصل عليه في مساومته، حسنًا وبدأ يزداد تفكيرًا فيه. كان محبًّا لذاته عندما كان صغيرًا، والآن فهو محب لنفسه؛ لأن العمر قد تقدم به، وقد شهدت بنفسك النهاية الأخيرة لكل هذه الأخلاق الحميدة والأحاسيس الرقيقة!».

فقلت: «حسنًا يا سيدي، وما هو موقفي إزاء كل هذا»؟.

فأجاب المحامي:

«إن الضيعة ملك لك ما في ذلك من شك، وليس في توقيع أبيك ما يضيرك. أنت الوارث للعقار، ولكن عمك رجل شديد المراس، ومن المحتمل أن ينكر حقيقتك. إن نفقات الدعوى غالبًا ما تكون مرتفعة، وكثيرًا ما تكون قضايا الأسرة معيبة، وإلى جانب هذا، لو افتضح أي شيء مما فعلته مع صديقك السيد «تومسون»، فمن المحتمل أن نكون قد جلبنا الضر على أنفسنا. لا ريب في أن اختطافك سيكون ورقة قضائية ذات نفع لنا إذا ما وُفِّقنا في إثباته، ولكن من المحتمل أن يكون ذلك أمرًا عسيرًا، ونصيحتي (بوجه عام) أن تساوم عمك في رفق وهوادة، حتى ولو دعا الأمر إلى أن تتركه يعيش في ضيعة الأشباح، حيث تعمقت جذوره ورسخت لمدى ربع قرن من الزمان، وتقنع نفسك بالحصول على دخل معقول».

أخبرته بأنني كنت راغبًا أشد الرغبة في أن تمضي بنا الأمور ميسرة لا تعقيد فيها، وأن نشر دخائل الأسرة أمام جمهرة الناس خطوة لا أرضى عنها بسليقتي، وفي الوقت ذاته بدأت (وأنا سابح الفكر فيما بيني وبين نفسي) أُلِمُّ بوجه عام بتلك الخطوات التي اتخذناها فيما بعد، ثم سألته:

«أرى الآن أن اختطافي هو أهم ما نُعنى به من أمور، فهل نقيم عليه الدليل أمام عمي؟».

فقال السيد «رانكيلور»:

«لا ريب في هذا، على أن يكون ذلك خارج قاعة القضاء لو استطعنا ذلك؛ لأنك ترى يا «ديفيد» أننا بلا شك نستطيع العثور على نفر من رجال سفينة «العهد»، وسيقسمون على أنك ركبتها غصبًا، ولكننا لا نستطيع أن نعرف على وجه التحديد ما سوف يقولونه إذا ما مثلوا أمام منصة القضاء وقد يقتضي الأمر أن نتعرض لذكر شيء عن السيد «تومسون» (وهذا ما زل به لسانك أثناء حديثك لي)، وأظن أنه أمر غير مرغوب فيه».

فقلت: «حسنًا يا سيدي، تلك هي الطريقة التي سأتبعها». ثم كشفت عما انتويته، وبعد أن أفصحت له عنه، قال:

«ولكنه يبدو لي أن هذا يتطلب مني لقاء مع ذلك الرجل تومسون».

فقلت: «حقًّا، إني أعتقد ذلك يا سيدي»

فصاح وهو يمر بيده على جبينه:

«يا عزيزي الدكتور! يا عزيزي الدكتور! كلا، أخشى يا سيد «ديفيد» ألا يلقى مشروعك عنده قبولًا، إني لا أقول شيئًا ضد صديقك السيد «تومسون»، ولا أعرف عنه ما يسيء إليه، ولكني لو عرفت ما يشينه (لا تنس ذلك يا سيد «ديفيد») فإن واجبي يقضي عليَّ بأن ألقي القبض عليه، الآن سأضع الأمر بين يديك: هل ترى من سداد الرأي أن أقابله؟ من المحتمل أن يكون الاتهام واقعًا عليه في شؤون كثيرة، وربما لم يكن قد أنبأك بكل شيء». ثم صاح المحامي وهو يغمز بعينه قائلًا: «وقد لا يكون اسمه «تومسون»؛ لأن بعضًا من هؤلاء الرفاق يلتقطون أسماءهم من جانب الطريق، كما يلم الآخرون حبات التوت البري».

فقلت: «يجب أن يكون القرار لك».

ولكنه كان واضحًا أن مشروعي قد لاقى قبولًا لديه؛ لأنه ظل سابح الفكر فيما بينه وبين نفسه، حتى نُودي عليه لتناول العشاء برفقة السيدة «رانكيلور»، التي كانت قليلًا ما تتركنا ثانية لنخلو إلى بعضنا البعض وإلى زجاجة الخمر، وهنا عاد يمحص اقتراحي: متى وأين كان يجب عليَّ أن أقابل السيد «تومسون» وهل كنت على ثقة من أنه رجل كتوم؟ وإذا فرضنا أننا قد استطعنا أن نضيق الخناق على الثعلب العجوز المتعثر، ونثبت له أمر اختطافي، فهل أرضى بأي نوع من الاتفاق؟

ظل يسألني كل هذه الأسئلة وأشباهها في فترات طويلة سابح الفكر، ينزلق الخمر على لسانه. لقد أصبح أكثر إغراقًا في التفكير، والإقناع باد عليه عندما أجبته عليها جميعًا، حتى إننا نسينا أن هناك خمرًا، ثم أحضر قصاصة من الورق وقلمًا من الرصاص، وبدأ يكتب ويزن كل كلمة يدونها، وأخيرًا مس جرسًا، فجاء كاتبه إلى الحجرة.

فقال له: «أريد منك يا «تورانس» أن تعيد كتابة هذا بخط واضح في هذه الليلة، وعندما تنتهي منه، فسيكون جميلًا جدًّا منك أن تضع قبعتك على رأسك وتكون على أهبة الاستعداد لمرافقتي مع هذا السيد؛ لأن الحاجة ربما تمس إليك كشاهد».

وحالما انصرف كاتبه، صحت به قائلًا:

«ما هذا يا سيدي، هل ستخاطر وتقابل السيد «تومسون»؟

فقال وهو يملأ كأسه خمرًا:

«لماذا؟ هذا أمر واضح. دعنا الآن لا نتحدث في العمل إلى أكثر من هذا. إن مرأى «تورانس» يعيد إلى ذاكرتي قصة مضحكة مضى عليها بضع سنوات، عندما ضربت موعدًا مع الأبله المسكين لنلتقي عند «صليب أدنبره»، اتجه كل منا إلى مقصده الخاص، وعندما حلت الساعة الرابعة كان «تورانس» قد احتسى خمرًا حتى ثمل، ولم يعد يعرف سيده، وأما أن فأصدقك القول بأني لم أستطع أن أعرف كاتبي؛ لأني كنت قد نسيت نظارتي، فأصبحت كالكفيف من دونها». وعند هذا انفجر ضاحكًا من أعماق قلبه.

قلت له إنها مصادفة غريبة، وابتسمت مجاملة له، ولكني ظللت أعجب طوال ما بعد الظهيرة؛ لأنه انبعث يعود إلى القصة ويؤكد حدوثها، ثم يعيدها مرة أخرى ضاحكًا وبتفاصيل جديدة، حتى إن محياي بدأ يتبدل أخيرًا، وأحس بالخجل من بلاهة صديقي.

وعندما حان الموعد الذي ضربته مع «ألن» غادرنا المنزل، يتأبط كل منا ذراع صاحبه، و«تورانس» من خلفنا والأوراق في جيبه، وسلة مغطاة في يده، وطالما كنا نخترق المدينة، كان المحامي ينحني يمنة ويسرة وسادة القوم يستوقفونه ليستشيروه في شؤون المدينة أو في أعمالهم الخاصة، واستطعت أن أرى الناس في كل الإقليم ينظرون إليَّ نظرة إكبار وإجلال، وأخيرًا خرجنا من المدينة وبدأنا نسير محاذين جانب المياه نحو «حان الهوز» وإفريز المعبر ذلك المكان الذي شهد

نحسي، ولم أستطع أن أنظر إليه دون إحساس بالضنى، ذاكرًا كل مَن كانوا معي وأصبحوا الآن في عالم الفناء. لقد قضي رانسوم ولن يعود، وآمل أن يكون ذلك قد حال دون ما كان سيلقاه من شرور وآثام، وانتهى «شوان» إلى حيث لم أتبعه، وغيرهما من الأرواح المسكينة التي غاصت مع السفينة إلى مستقرها الأخير. عادت إليَّ ذكرى هذه الأشياء. ومعها السفينة نفسها التي قُدِّر لي أن أعيش بعدها، وأخوض غمار كل هذه المصاعب والأخطار المروعة دون أن يلحق بي أذى. كان كل شعوري منصبًا على الشكر لله، ومع ذلك فإني لم أستطع أن أنظر إلى المكان دون إحساس بالأسى لما حل بالآخرين، ودون الشعور بالهزة من ذكريات الخوف.

كان كل هذا يدور بخلدي، عندما صاح السيد «رانكيلور» على حين غرة، وقد وضع يده في جيبه، ثم ابتدا يضحك قائلًا:

«لماذا، يا لسخرية القدر! لقد نسيت نظارتي بعد كل ما قلت!»

عند ذلك أدركت ما كان يرمي إليه من وراء قصته هذه، وعرفت أنه لو كان قد نسي نظارته، فإنه إنما عمد إلى ذلك لمأرب في نفسه. وهو أنه ربما استطاع أن ينتفع بمعونة «ألن» دون الوقوع في حرج التعرف عليه مستقبلًا، وكان ذلك حقًّا رأيًا ناضجًا؛ لأنه (على فرض أن الأمور قد سارت إلى أسوئها) كيف يستطيع «رانكيلور» أن يقسم الآن على معرفة شخصية صديقي، أو على شهادة قد يكون فيها تدميرًا لي. استنفذ منه التفكير في ابتداع تبرير لخطواته وقتًا طويلًا حين كان يمر ببعض علية القوم ويتحدث إليهم عندما كنا نخترق المدينة، ومن ناحيتي فلم يخالجني شك في أنه قد سلك الطريق الأمثل. بعد أن مررنا بحان «الهوز» (حيث استطعت أن أعرف صاحبه وهو جالس يدخن غليونًا، وعجبت عندما رأيته ولم تتقدم به السنون). بدل السيد «رانكيلور» من نظام المسير؛ إذ إنه جعلني أسير في المقدمة بغية الاستكشاف على أن يتبعني ومعه «تورانس». صعدت التل أبعث الصفير بين الحين والحين بنغمي الإسكتلندي، وأخيرًا ابتهجت عندما سمعت الرد عليه، ورأيت «ألن» ينهض من خلف إحدى الشجيرات. كان قلق النفس، وقد أمضى يومًا طويلًا وحيدًا مختبئًا في الإقليم، وتناول وجبة طعام حقيرة في حانة لبيع الجعة بالقرب من «دنداس»، ولكنه عندما رأى ملابسي بدأ وجهه يستنير، وعندما أخبرته عن التقدم الذي طرأ على أمورنا، والدور الذي طلبت إليه أن يقوم به فيما تبقى منها، بدا رجلًا جديدًا وقال:

«وهذا رأي ثاقب، وإني أجرؤ على القول بأنك لن تستطيع أن تعثر على رجل أفضل من (ألن بريك) ليقوم به، إنه أمر (أحب أن تلاحظ) لا يستطيع أحد أن ينجزه إلَّا سيد ذو فطنة»، وأتبع قائلًا: «ولكنه يلتصق بذهني أن الضجر قد يأخذ بمحاميك إذا ما رآني. وتبعًا لهذا ناديت على السيد «رانكيلور» ملوحًا له بيدي، فأقبل علينا وحده وقدمته لصديقي السيد «تومسون» فقال «رانكيلور»:

«إني مبتهج للقياك يا سيد «تومسون»، وها هو ذا صديقنا السيد «ديفيد» (ثم ربت على كتفي) سينبئك بأني لا أفضل الأعمى إلَّا قليلًا، فلا تأخذنك الدهشة إذا ما مررت بك في الغد، ولم أستطع التعرف عليك».

قال هذا ظنّا منه أنه بذلك سيبعث المسرة في نفس «ألن»، ولكن كبرياء ساكن الجبال الإسكتلندية يجعله يجفل عند ذكر ما هو أقل أهمية من هذا، فقال بجفاء:

«لماذا يا سيدي، إن هذا لا يهمني في كثير أو قليل؛ لأننا ما التقينا هنا إلَّا لغاية خاصة، ألا وهي أن نشهد العدالة تنصف السيد «بلفور»، وبكل ما أستطيع أن أدركه؛ أرى أنه ليس هناك من أمر مشترك بيننا سوى ذلك، ولكني أقبل منك ذلك الاعتذار اللائق».

فقال «رانكيلور» من قلبه:

«وهذا أكثر مما أتوقعه، والآن وبما أنك وأنا سنكون الممثلين الرئيسين في ذلك المشهد فأظن أنه يجدر بنا أن نصل إلى اتفاق مرض، ولهذا أقترح أن أتأبط ذراعك؛ لأن الغسق وعدم وجود نظارة يجعلانيٍ لا أستطيع أن أتبين الطريق، وأما أنت يا سيد «ديفيد» فستجد في «تورانس» رفيقًا حلو الحديث، ولكني دعني أذكرك بأنه لا حاجة به إلى أن يسمع المزيد عن مغامراتك أو مغامرات السيد «تومسون».

وعلى هذا سار الاثنان في المقدمة يتحدثان في همس، وتبعتهما ومعي «تورانس» في المؤخرة. وصلنا إلى «بيت الأشباح»، وكان الليل قد أقبل تمامًا، والساعة قد جاوزت العاشرة بقليل، والظلمة شديدة، والجو معتدل، وللرياح حفيف من الناحية الجنوبية الغربية غطى على أصوات تقدمنا، وعندما اقتربنا، لم نرَ بصيصًا من النور في أي جزء من البناء. بدا لنا أن عمي قد ذهب إلى فراشه ونام، وكان ذلك حقًّا أفضل الأشياء لتنفيذ خطتنا. وفي همس محصنا الأمر لآخر مرة على مبعدة نحو خمسين ياردة من (بيت الأشباح)، وعندئذ زحفت بهدوء ومعي المحامي و(تورانس)، وربضنا بجوار زاوية المنزل؛ وحالما اتخذنا أماكننا، سار (ألن) في جهر بخطوات واسعة نحو المنزل، وبدأ يطرق الباب.

* * *

الفصل التاسع والعشرون
آتي إلى مملكتي

ظل «ألن» يقرع الباب بعض الوقت، ولم يردد صداه إلى المنزل وما حواليه، وعلى أي حال فقد استطعت أن أسمع أخيرًا صوت نافذة تفتح برفق، وعرفت أن عمي قد وصل إلى مرصده، واستطاع على ما كان هناك من ضوء أن يرى «ألن» واقفًا على البرج كظل قاتم، وكان الشهود الثلاثة مختفين تمامًا عن ناظره، حتى لم يعد هناك ما يبعث على الخوف في نفس رجل أمين في داره، ولهذا كله لبث لحظة يفحص زائره في صمت، وخالجت صوته رعدة من الريبة عندما تحدث قائلًا:

«ما هذا؟ إن ذلك الوقت من الليل لا يتلاءم مع قوم يضمرون الخير، وأنا لا أتعامل مع صقور الليل. ما الذي جاء بك إلى هنا؟ إن معي بندقية»، فأجاب «ألن» وهو يتراجع إلى الوراء وينظر إلى أعلى في الظلام:

«هل أنت السيد «بلفور» بعينه؟ كن حذرًا من إطلاق هذه البندقية؛ لأن إطلاقها عمل مشين». فقال عمي غاضبًا:

«ما الذي حدا بك إلى أن تأتي إلى هنا؟ ومَن أنت»، فقال «ألن»:

« إني لست على استعداد لأن أذيع اسمي في جنبات الإقليم، ولكن لمجيئي إليك قصة أخرى تتعلق بك أكثر مما تتعلق بي، ولو كنت واثقًا من أنها ستروق لك فإني أصيغ منها لحنًا وأغنيها لك». فسأل عمي:

«وما هي؟»

فقال «ألن»: «ديفيد».

«ماذا تقول؟!».

فقال «ألن»: «هل أقول لك الاسم بكامله؟»، مرت فترة صمت، قال عمي بعدها شاكًّا:

«أظن أنه من الأوفق أن آذن لك بالدخول».

فقال «ألن»: «أعتقد ذلك ولكن أهم ما في الأمر هو موافقتي على أن أدخل، والآن سأخبرك عما يدور بخلدي: أعتقد أننا يجب أن نبقى هنا على هذا الدرج ونبحث الأمر. هنا أولًا مهما يكن من شيء؛ لأني أحب أن تعرف أنني رجل عنيد مثلك، وسيد من أسرة أفضل».

ضاق «إيبنزر» بهذا التغير في لغة الحديث، وقضى برهة قصيرة في استيعابها، ثم قال:

«حسنًا، حسنًا، فليكن ما ينبغي أن يكون». وأغلق النافذة، ولكنه استغرق وقتًا طويلًا في النزول، ووقتًا أطول في رفع المزالج، نادمًا (على ما أعتقد). تنتابه مخاوف جديدة كلما نزل إحدى درجات السلم أو رفع مزلاجًا أو قضيبًا، ومع ذلك فقد سمعنا أخيرًا صرير المزالج، ويبدو أن عمي كان يسترق الخطى عندما رأى «ألن» يتراجع إلى الخلف خطوة أو اثنتين، ثم جلس فوق عتبة الباب العليا وبندقيته في يده على استعداد لإطلاقها، وقال:

«والآن، لا تنسَ أن معي بندقيتي، وإذا اقتربت مني خطوة واحدة، فستلقي حتفك لا محالة».

فقال «ألن»: «حقًّا إنه لقول مهذب».

فقال عمي: «كلا، ولكنه أمر لا ينبغي الإقلال من شأنه، ويجدر بي أن أكون على أهبة الاستعداد له، أما وقد عرف كل منا صاحبه الآن، فيمكنك أن تفصح لي عن مأربك»، فقال «ألن»:

«لماذا؟ لا بد وأن تكون قد تبينت أنني أحد سكان الجبال الإسكتلندية لأنك رجل فطن. لا دخل لذكر اسمي فيما سأقص عليك، ولكن موطن أصدقائي لا يبعد كثيرًا عن جزيرة «مل»، التي لا بد وأن تكون قد سمعت بها. يبدو أن سفينة ما قد غرقت في تلك الأرجاء، وفي اليوم التالي لفقدها، وبينما كان أحد السادة من أسرتي يبحث عن أخشابها المحطمة على طول الرمال ليشعل بها نارًا، عثر على غلام كان على وشك الغرق. حسنًا، لقد عاد به وأخذه ومعه بعض السادة وزجوا به في حصن قديم خرب، حيث أنفق عليه أصدقائي مبالغ طائلة منذ ذلك اليوم حتى الآن. إن أصدقائي قوم غلاظ لا يعبئون بالقانون مثل مَن أستطيع ذكر أسمائهم، ولما عرفوا أن هذا الغلام من أسرة مرموقة، وأنه ابن أخيك يا سيد «بلفور»، فقد طلبوا إليَّ أن أقوم بزيارة قصيرة لك ونفحص الأمر معًا، ويحسن بي أن أخبرك منذ البداية أننا إذا لم نصل إلى شيء من الاتفاق. فمن المحتمل أنك لن تراه أبدًا». وأضاف «ألن» ببساطة قائلًا: «لأن أصدقائي ليسوا في ميسرة من العيش».

فقال عمي: «إني لا أكترث بهذا كثيرًا؛ لأنه لم يكن ولدًا طيبًا ولا شأن لي به». فقال «ألن»:

«نعم، نعم. أرى ما تهدف إليه. إنك تتظاهر بعدم الاكتراث لكي تدفع فدية أقل».

فقال عمي: «كلا. إنها حقيقة لا مراء فيها؛ لأني لا أعبأ بالصبي، ولن أدفع فدية له. افعلوا به ما ما شئتم».

فصاح «ألن»:

«هُوْ، هُوْ. بحق الشيطان يا سيدي إن الدم أكثر كثافة من الماء، ومن العار أن تتخلى عن ابن أخيك؛ لأنك إذا تخليت عنه وعرف الناس عنك ذلك، فإنك لن تصبح محبوبًا في جنبات إقليمك، أم أنني مخدوع؟». فقال «إيبنزر»:

«إنني الآن على هذا الوضع لست محبوبًا، ولست أدري كيف أن الناس سيكشفون عن هذا الأمر، وأنا من ناحيتي لن أذيعه، وستفعل أنت وأصدقاؤك مثل ما أفعل، لذا فإن هذا قول هراء أيها الأبله».

فقال «ألن»:

«إذَنْ فلن يتبقى إلَّا «ديفيد» ليروي القصة». فقال عمي بحدة:

«وكيف ذلك؟».

قال «ألن»: «أوه، سيقوله على النحو التالي: لا شك في أن أصدقائي سيحتفظون بابن أخيك طالما كان هناك احتمال في الحصول على أي قدر من المال فدية له، فإذا لم يتحقق لهم هذا الأمل أبدًا، فإني لعلى ثقة من أنهم سيدعونه ينطلق إلى حيث يطيب له مصحوبًا بلعناتهم».

فقال عمي: «نعم، ولكني لا أعبأ بذلك أيضًا، فإني لن أخدع بهذا القول». فقال «ألن»:

«كنت أظن أن...».

فقال «إيبنزر»: «فيمَ كنت تفكر، ولماذا؟».

فأجاب «ألن»: «لماذا، من كل ما سمعت يا سيد «بلفور» أفهم أحد أمرين: إما أنك تحب «ديفيد» وتدفع الفدية عنه، وإما أنه لديك من الأسباب القوية ما يجعلك غير راغب في خلاصه، وفي هذه الحال فإنك تدفع لنا المال لنحتفظ به. ويبدو لي أنك لست راغبًا في الأولى، حسنًا، فلتكن الثانية إذَنْ، ويسرني أن أعرف ذلك لأنه سيكون مصدر ثروة لي ولأصدقائي».

فقال عمي: «إني لا أفهم ما تعني بهذا».

فقال «ألن»: «ألم تفهم؟ حسنًا، انظر هنا، إنك لست راغبًا في عودة الصبي، حسنًا، ماذا تريدنا أن نفعل به؟ وكم ستدفع نظير ذلك؟»

أمسك عمي عن الكلام، ولكنه تململ في مقعده، فصاح «ألن»:

«تعال يا سيدي، أحب أن تعرف أنني رجل فاضل أحمل اسم ملك، وأني لم آتِ إلى باب ردهتك لأستجدي. إما أن تجيبني في تهذيب، وهذا ما لا يمكن أن تفعله، وإلا فإني أقسم على أن أطعنك في أحشائك ثلاث مرات». فوقف عمي وصاح مضطربًا:

«إيه يا رجل، تمهل قليلًا. ماذا دهاك؟ إنني رجل بسيط ولست مدرب رقص، وأبذل قصاري جهدي لأكون مهذبًا قدر طاقتي، أما فيما يتعلق بذلك القول العنيف الذي صدر عنك، فمن الخير ألا تردده مرة أخرى على وجه الإطلاق»، ثم كشر عن أنيابه وقال: «أتقول أحشائي؟ وماذا أفعل ببندقيتي إذَنْ؟».

- فقال آخر: «إن البارود ويديك اللتين تقدم بهما السن ليست إلَّا كقوقعة إذا ما قُورنت بعصفور في سرعته التي هي سرعة السيف البراق في يد «ألن»، وسيمزق

النصل عظام صدرك قبل أن تضع إصبعك على الزناد».

فقال عمي: «إه يا رجل، ومَن ينكر ذلك؟ قل ما يحلو لك، وافعل ما شئت، فلن أعترض على شيء. أفصح عما تريد، وسنرى أننا نستطيع أن نصل إلى اتفاق».

قال «ألن»: «حقًّا يا سيدي، إني لا أطلب شيئًا إلَّا أن نقول كلمتين في إيجاز ووضوح: هل تود أن يُقتل الصبي أم يُحتفظ به؟»، فصاح «إيبنزر»:

«يا إلهي، يا إلهي، ليست هذه لغة التخاطب». فأعاد «ألن» القول:

«يُقتل أم يُحتفظ به؟»، فصرخ عمي:

«أوه احتفظوا به، أرجوك أن تحتفظوا به؛ لأننا لا نريد سفك الدماء».

فقال «ألن»: «حسنًا، فليكن ما يطيب لك، وسيكلفك هذا مزيدًا من المال». فصاح «إيبنزر»:

«مزيد من المال؟ أتريدون أن تغمسوا أيديكم في ارتكاب جرم؟».

فقال «ألن»: «هو، هو. إنها في كلتا الحالتين جريمة، ولكن القتل أكثر سهولة وسرعة وأمنًا؛ لأن الاحتفاظ به أمر مضن، أمر مضن». فأجاب عمي:

«إذَنْ فاحتفظوا به. إني لم أسهم أبدًا في عمل لا يتفق مع الخلق الرفيع، ولن أبدأ بالقيام به الآن لأبعث البهجة في نفس رجل من سكان الجبال الإسكتلندية».

فقال «ألن» ساخرًا:

«إنك رجل شديد الحذر».

فقال «إيبنزر» ببساطة:

«إنني رجل مبادئ، ولو كان لزامًا عليَّ أن أدفع من أجل ذلك، فلن أتردد، وفوق هذا فقد نسيت أن الصبي ابن أخي».

فقال «ألن»: «حسنًا، حسنًا، فلنتحدث الآن عن الثمن، وليس من اليسير عليَّ أن أحدده، وأرى أنه من الأفضل أن أعرف أولًا بعض الأمور الصغيرة. أريد أن أعرف على سبيل المثال المبلغ الذي دفعته «لهوسيزون» في أول الأمر».

فصاح عمي، وقد صدم بذلك: «هوسيزون!! لماذا؟».

فقال «ألن»: «لاختطاف ديفيد».

فصاح عمي: «تلك أكذوبة، أكذوبة سوداء، إنه لم يختطف أبدًا! وقد كذب مَن أنبأك بذلك. اختُطف؟ لم يحدث ذلك أبدًا».

فقال «ألن»: «ليس هذا خطئي أو خطأك أو حتى خطأ «هوسيزون» لو كان من المستطاع أن يكون موضع ثقة»، فصاح «إيبنزر»:

«ماذا تعني؟ هل أخبرك «هوسيزون» بهذا؟».

فصاح «ألن»:

«لماذا؟ لقد أعطيت ذلك الحيوان، وإلا كيف عرفت بذلك؟ إني و«هوسيزون» شريكان ونتقاسم الأنصبة، لذا فإنك تستطيع أن ترى بنفسك أي خير تجتنيه من وراء كذبك، ويجدر بي أن أكون واضحًا معك حين أقول إنك قد ارتكبت حماقة في مساومتك البلهاء حين أقحمت مثل ذلك البحار في خصائصك إلى مدى بعيد، ولكننا لا نستطيع الندم على ذلك، ويجب أن تتحمل تبعات أخطائك، وما نريد أن نعرفه الآن هو: كم من المال دفعت له؟».

فسأله عمي: «هل أخبرك بنفسه؟».

فقال «ألن»: «هذا أمر خاص بي وحدي».

قال عمي: «حسنًا، إني لا أعبأ بما قال. لقد كذب، وحقيقة اللّه المقدسة أني أعطيته عشرين جنيهًا، ولكني سأكون صادقًا معك كل الصدق، لقد كان إلى جانب هذا ينتوي بيع الصبي في «كارولايني»، ويأخذ ثمنًا مساويًا لما دفعت، ولكنك ترى أنه ليس من جيبي».

فقال المحامي وهو يتقدم إلى الأمام:

«شكرًا يا سيد «تومسون»، إن هذا يفي بالغرض تمامًا». وبلياقة فائقة. قال:

«طاب مساؤك يا سيد بلفور».

وقلت: «نعمت مساء أيها العم «إيبنزر». وأضاف «تورانس»:

«إنها ليلة مليئة بالأحداث التي تبشر بالخير يا سيد «بلفور».

عند هذا لم يَفُهْ عمي بكلمة واحدة بيضاء كانت أو سوداء، بل جلس على التو فوق أعلى درج الباب يحملق فينا، وكأنه قد استحال إلى حجر، واختطف «ألن» منه بندقيته، أما المحامي فقد أمسك بذراعه واقتلعه من فوق الدرج، وقاده إلى المطبخ حيث تبعناهما جميعًا، وأجلسه على مقعد بجوار الموقد حيث كانت النار مطفأة، لم يتبق منها إلَّا ضوء خافت يشتعل.

هناك نظرنا إليه كلنا لحظة مبتهجين أشد البهجة لتوفيقنا، ومع هذا فقد انتابنا نوع من الحسرة على خجل الرجل.

قال المحامي: «تعال، تعال يا سيد «إيبنزر»، ينبغي ألا يسقط قلبك بين أضالعك، لك مني الوعد بأن شروطنا لن تكون قاسية، وفي الوقت نفسه أعطنا مفتاح القبو وسيحضر لنا «تورانس» زجاجة من خمر أبيك نشربها نخب ما حدث». ثم استدار نحوي وأخذ بيدي، وقال: «أتمنى لك السعادة في ثروتك المرتقبة التي أعتقد أنك تستحقها». ثم قال «لألن» في دعابة محببة: «لك مني التهنئة. لقد سلكت سلوكًا حاذقًا، ولكنك قد فقت إدراكي في نقطة واحدة. هل أفهم أن اسمك «جيمس» أو «شارل» أو ربما «جورج»؟»، فنهض «ألن» من مكانه كمَن تنسم رائحة إساءة، وقال:

«ولماذا يكون واحدًا من هذه الأسماء الثلاثة يا سيدي؟».

فأجاب «رانكيلور»:

«لا لشيء يا سيدي إلَّا لأنك قد أشرت إلى أنه اسم ملك، وبما أنه لم يوجد حتى الآن ملك باسم «تومسون»، أو أن اسمًا بهذه الشهرة على الأقل قد وصل إلى سمعي، فقد فهمت وأنك لا بد وأن تشير إلى الاسم الذي عُمدت به».

تلك كانت حقًّا أقسى طعنة أحس بها «ألن»، وإني حر في أن أقرر بأنه قد أخذها أسوأ مأخذ. لم ينبس ببنت شفة، ولكنه خطا نحو الجانب من المطبخ وجلس مكتئبًا، ولم تمر بثغره ابتسامة قصيرة إلَّا عندما انتقلت في إثره، ومددت له يدي شاكرًا ملقبًا إياه بالنبع الرئيس لنجاحي، فأصبح آخر الأمر مسوقًا إلى الانضمام إلى زمرتنا.

كانت النار في ذلك الوقت قد أُشعلت، وفُتحت زجاجة من الخمر، وأُوتي بعشاء شهي من السلة جلست إليه ومعي «ألن» و«تورانس» بينما انتقل المحامي وعمي إلى الغرفة المجاورة ليتشاورا، وأغلقا الباب ولبثا فيها وحيدين قرابة ساعة انتهيا بعدها إلى تفاهم موفق، وصافحت عمي على هذا الاتفاق بصورة رسمية، وطبقًا لنصوصه تعهد عمي بإيضاح كل ما تدره ضيعة آل شو من مال، وبأن يدفع لي صافي ثلثيه السنوي.

بهذا عاد شحاذ الملحمة إلى بيته، وعندما استلقيت في تلك الليلة على صناديق المطبخ، كنت قد أصبحت رجلًا ثريًّا ذا اسم في البلاد. نام «ألن» و«تورانس» و«رانكيلور» على مراقدهم الخشنة يغطون، وأما أنا الذي استلقيت الأيام والليالي الطوال في العراء على الأقذار والأحجار، وكثيرًا ما كانت أقضيها والجوع يلذعني، وفي رعب من الموت، فقد أرهبني ذلك التغيير السعيد الذي طرأ على حالي أكثر من أي من السوءات الماضية، وظللت مستلقيًا حتى مطلع الفجر أنظر إلى النار على السقف وأخطط للمستقبل.

* * *

الفصل الثلاثون

الوداع

أما فيما يتعلق بي؛ فقد استقرت أموري، ولكن «ألن» الذي كنت مدينًا له بشيء كثير من الفضل كان لا يزال بين يدي، وإلى جانب هذا كنت أحس بثقل العبء الملقى على كتفي بشأن حادث القتل، وبأمر «جيمس الوديان الصغيرة»، وفي حوالي الساعة السادسة من صبيحة اليوم التالي جهرت لرانكيلور بهذين الأمرين عندما كنت أسير ذهابًا وجيئة أمام «بيت آل شو»، لا أرى أمامي إلّا الحقول والغابات التي كانت ملكًا لأسلافي، وأصبحت اليوم لي. كانت عيناي تستمعان بنظرة سريعة في هذا المنظر، وقلبي يقفز كبرياء في أثناء حديثي عن هذين الأمرين الهامين.

لم يخالج المحامي أدنى شك في واجبي الواضح نحو صديقي، قائلًا لي بأنه يجدر بي أن أساعده على الرحيل عن ذلك الإقليم مهما يعرض لي من خطر، أما فيما يخص «جيمس» فقد كان له رأي آخر إذ إنه قال:

«السيد «تومسون» شيء، وقريبه شيء آخر. إني لا أعرف عن الأحداث إلَّا قليلًا، ولكني أعلم أن نبيلًا عظيمًا (الذي سنسميه د.أف. ا(14) لو راق ذلك لك) يشعر بشيء من القلق، ويظن الناس أنه يحس بالكراهية نحوه. لا شك في أن «د.أف.ا» أحد النبلاء الأفاضل، ولكن يا سيد «ديفيد»، ثم قال باللاتينية: «مَن ذا الذي ينكر ذلك؟»، ثم قال بالإنجليزية: «إذا أقحمت بنفسك لتحول دون انتقامه، فلا بد وأن تتذكر أن هناك طريقًا واحدًا لإبطال شهادتك، ألا وهو وضعك في قفص الاتهام، وهناك ستقع في نفس المأزق الواقع فيه السيد قريب «تومسون». ستعترض وتنادي بأنك بريء، حسنًا وسيفعل «جيمس» مثل ما تفعل، ولو جرت محاكمتك أمام هيئة من المحلفين من سكان الجبال الإسكتلندية بسبب عراك معهم، وكان القاضي الجالس على المنصة واحدًا منهم، فمعنى ذلك بإيجاز أن يُساق بك إلى المشنقة».

(14) دوق آرجيل.

الآن وقد سبق لي أن ساءلت نفسي عن كل هذا ولم أجد له عندي جوابًا شافيًا، لذا فقد تظاهرت بعدم الاكتراث قدر ما استطعت، وقلت:

«في تلك الحالة يا سيدي سيكون شنقي أمرًا محتومًا. أليس كذلك؟».

فصاح:

«يا بني العزيز، اذهب في رعاية الله، وافعل ما تراه صوابًا. إنه لتفكير سقيم أن أوجه لك النصح وأنا في هذه السن بأن تختار طريقًا آمنًا، ولكنه ينطوي على ما يبعث على الخجل. إني أعتذر واسترجع كل ما قلت. اذهب وقم بواجبك ولتشنق كسيد فاضل إذا كان لا مفر من ذلك. هناك في الدنيا أشد سوءًا من الشنق».

فقلت باسمًا: «إنها ليست كثيرة».

فصاح: «لماذا؟ نعم إنها كثيرة جدًّا، وسيكون من الأفضل لعمك عشر مرات (دون الخوض في التفاصيل) أن يتدلى برشاقة على حبال المشنقة».

وبهذا استدار نحو المنزل (وهو لا يزال مغتبطًا أشد الغبطة، حتى خيل إليَّ أني بعثت في نفسه بهجة تبعت من أعماق قلبه)، وهناك سطر لي رسالتين وكان يبدي ملاحظاته عليهما في أثناء كتابتهما، وقال:

«هذا خطاب إلى مصرف «شركة التيل البريطانية» الذي أتعامل معه، وقد وضعت فيه باسمك رصيدًا من المال، ابحث الأمر مع السيد «تومسون» وأنت بهذا الرصيد تستطيع أن تمده بالنقود، ومن ناحيته فإنه سيعرف السبيل إلى الإنفاق. إني واثق من أنك حريص على مالك، أما في مثل حالة صديق كالسيد «تومسون» فإني لن أكون عليه ضنينًا، أما قريبه فليس هناك من طريقة أفضل من أن تلجأ إلى نائب المدينة وتقص عليه قصتك، وتنبئه عن استعدادك للإدلاء بشهادتك، وسواء أقبلها أم رفضها فهذا شيء آخر، وسيلجأ بدوره إلى «دوق آرجيل»، والآن لكي تتقدم إلى اللورد نائب المدينة بتوصية لها قيمتها، فهأنذا أعطيكِ الآن رسالة إلى رجل عالم يحمل نفس اسمك وهو السيد «بلفور أف بلرج» الذي أكِنُّ له في نفسي تقديرًا. أرى أنه من الأوفق لك أن يوصي بك رجل يحمل اسمك، هذا والسيد «بلرج» رجل مرموق ذو مكانة في الكلية، وعلى صلة وثيقة باللورد «جرانت» نائب المدينة.

لو كنت مكانك فإني لن أبعث الضيق في نفسه بالتعمق في التفاصيل (هل تعرف؟)، وأعتقد أنه لن تكون بك حاجة إلى الإشارة إلى السيد «تومسون» خذ من اللورد نائب المدينة مثالًا يُحتذى به، إنه طراز من الرجال فريد. كن حذرًا في حديثك معه. أدعو الله أن يسدد خطاك في كل هذا».

وعلى ذلك ودعني، ثم انطلق ومعه «تورانس» إلى المعبر، بينما أدرت وجهي أنا و«ألن» ناحية مدينة «أدنبرة»، وظللنا ننظر خلفنا إلى منزل آبائي طوال مسيرنا بحذاء الممر وبجوار أعمدة بوابات ذلك المسكن الصغير الذي لم يتم بناؤه بعد، والذي كان قائمًا هناك عاريًا عظيمًا لا ينبعث منه دخان، وكأنه مكان مهجور لا حياة فيه، ولم نرَ إلَّا قمة غطاء رأس في إحدى النوافذ العليا تهتز يمنة ويسرة وإلى أعلى وأسفل وكأنها رأس أرنب تطل من جحره. لم أقابل بشيء كثير من الترحاب عندما أتيت إليه، وبعطف أقل في أثناء إقامتي به إلَّا أني كنت على الأقل موضع رقابة عندما غادرته.

تقدمت ومعي «ألن» في الطريق مبطئين لا نقوى على المسير أو الكلام إلَّا قليلًا، وكانت فكرة الاقتراب من الفراق تسيطر على نفسينا، وذكرى كل الأيام الخوالي جاثمة على صدرينا بصورة مرة. حقًّا تحدثنا عما يجب أن نفعله، واستقر قرارنا على أن يبقى «ألن» بالإقليم، يختبئ هنا يومًا، وهناك يومًا آخر، على أن يأتي مرة كل يوم إلى مكان معلوم حيث يكون في مكنتي أن أكون على صلة به بشخصي، أو بواسطة رسول من عندي. وفي نفس الوقت كان عليَّ أن أبحث عن محام من «آل ستيوارت» في «آبن»، وبذلك سيكون هذا الرجل موضع ثقتنا المطلقة، وسيكون

من واجِبِه أن يجد سفينة ويدبر أمر إبحار «ألن» سالمًا. ولم نكد ننتهي من هذا، حتى خانتنا الكلمات، ورغم أني كنت أعمل جاهدًا على المزاح مع «ألن» بمناداته باسم «تومسون»، وكان بدوره يحاول أن يداعبني بالإشارة إلى ملابسي الجديدة وضيعتي، فإنك تستطيع أن تلمس بنفسك أننا كنا أقرب إلى الدموع منا إلى الضحك.

وصلنا إلى طريق جانبي فوق تل «كورستورفاين»، وعندما دنونا من المكان الذي يُسمَّى «استرح وكن شاكرًا»، وأطللنا على مستنقعات «كورستورفاين»، ونظرنا إلى المدينة والحصن القائمين على الرابية، توقف كلانا عن المسير؛ لأننا عرفنا دون كلمة تقال أننا قد وصلنا إلى حيث يفترق كلانا. وهنا أعاد إلى مسمعي الأشياء التي سبق لنا واتفقنا عليها فيما بيننا وهي: مقر المحامي، والساعة المحددة لوجود «ألن» كل يوم، والإشارات التي يقوم بها مَن يأتي للبحث عنه، ثم أعطيته ما كان معي من نقود (جنيهًا أو اثنين من نقود «رانكيلور») حتى لا يموت جوعًا قبل أن نلتقي ثانية، ثم وقفنا وجهًا إلى وجه، ونظرنا إلى «أدنبرة» صامتين، فقال «ألن» وهو يمد يده اليسرى:

«حسنًا، وداعًا».

فقلت وأنا أشد على يده برفق: «وداعًا». ثم نزلت من فوق التل.

لم ينظر أحد منا إلى وجه صاحبه، وطالما كان على مرمى البصر فإني لم أنظر إلى الصديق الذي كنت أفترق عنه، ولكني أحسست بأني قد بلغت من الوحدة والضياع حدًّا جعلني مسوقًا إلى الجلوس بجوار الإفريز أصيح وأبكي كالوليد.

وقبل أن ينتصف النهار بقليل اجتزت الطريق بجوار الكنيسة الغربية، و«سوق الحشائش» إلى طرقات العاصمة. لقد بهرني نوع من الدهشة عند رؤية الارتفاع الشاهق للمباني الذي كان يبلغ عشرة طوابق أو خمسة عشر، والمداخل الضيقة المقببة التي كانت تغص بالمارة وسلع التجار في نوافذها، والحركة والضجيج اللذين لا ينتهيان، والروائح القذرة والملابس الجميلة، ومئات من أشياء أخرى بلغت من الصغر حدًّا يجعلني لا أعني بذكرها. لقد استولت عليَّ دهشة شديدة جعلت الزحام يحملني غدوًّا ورواحًا، ومع ذلك فقد كنت طوال الوقت أفكر في «ألن» والمكان الذي يُسمَّى «استرح وكن شاكرًا»، وكنت على الدوام (مع أنك قد تعتقد أنه ليس أمامي إلّا أنه ابتهج بهذه الرؤى التي لا عهد له بها من قبل) أحس بلذع بارد في أحشائي، وكأنه تأنيب الضمير على ارتكاب خطأ.

وفي أثناء تجوالي هذا، ساقتني يد القدر إلى أبواب مصرف «الشركة البريطانية للتيل».

(تمت بحمد الله)

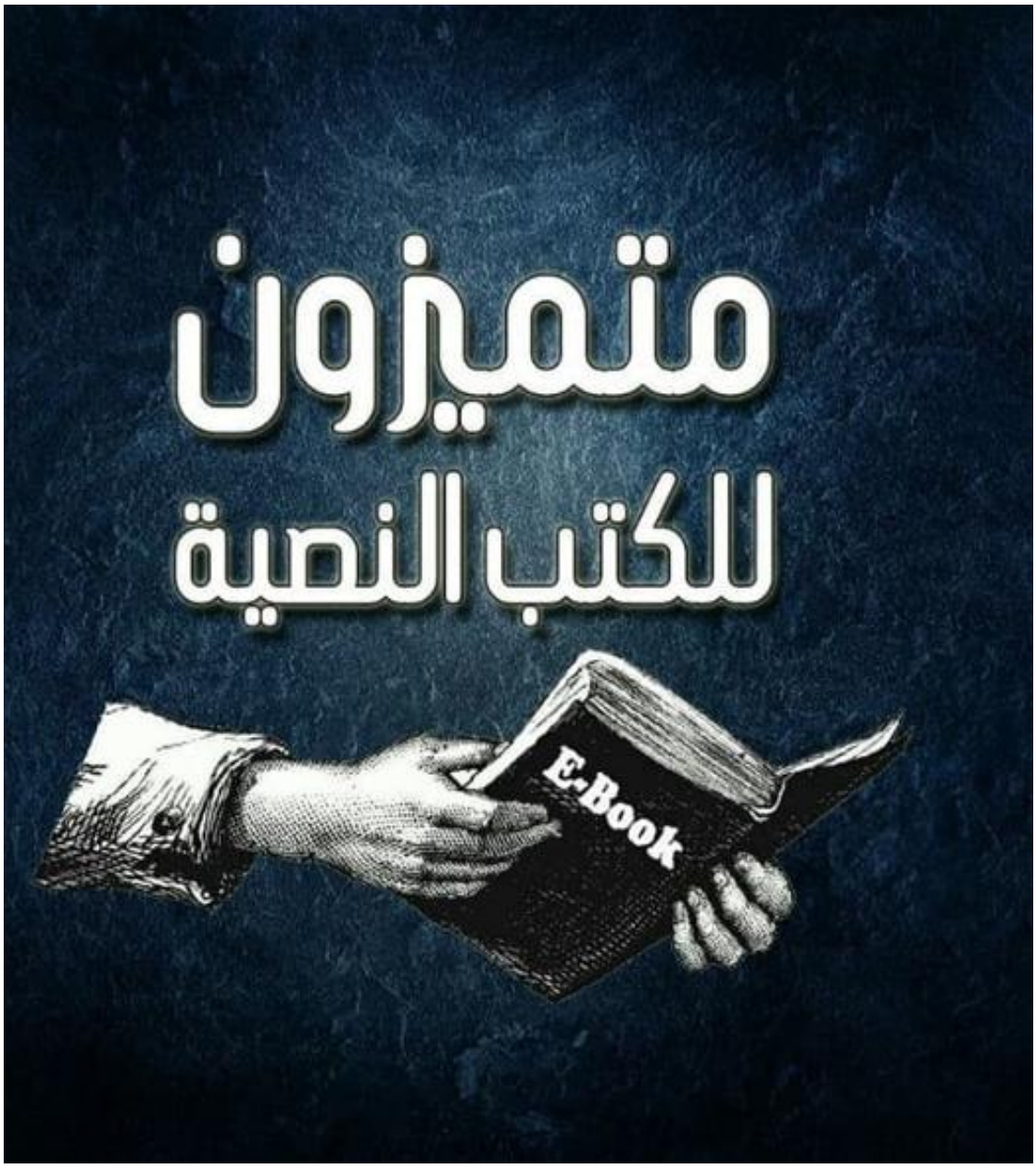
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

نبذة عن الرواية

الفصل الأول

شرعتُ في رحلتي إلى بيت آل شو

الفصل الثاني

أصِلُ إلى نهَاية الرِّحلة

الفصل الثالث

أتعَرّف بعمّي

الفصل الرابع

أتعرض لأشد الخطر في بيت الأشباح

الفصل الخامِسُ

أذهبُ إلى معبر الملكة

الفصل السادسُ

ما حدَث عِند معبَر الملكة

الفصل السابع

أذهب إلى البحر في السفينة

«عهد ديزارت»

الفصل الثامنُ

حجرة المراقبَة

الفصل التاسِع

الرجل ذو الحزام الذهبي

الفصل العاشرُ

حصار حجرة المراقبة

الفصل الحَادي عشرُ

الربانُ يخضع

الفصل الثاني عشر

أسمع بالثعلب الأحمر

الفصل الثالِث عشر

فقدُ السّفينة

الفَصل الرابع عشر

الجَزيرة الصغيرة

الفَصل الخامس عشر

الصبي ذو الزرار الفِضي في جزيرة «مل»

الفصل السادس عشر

الصبي ذو الزرار الفِضي عبر مورفن

الفصل السَّابع عشر

موت الثعلب الأحمَر

الفصل الثامِن عشر

أتحدث مع «ألن» في غابة ليترمور

الفصل التاسع عشر

بيت الرعب

الفصل العشرون

الهَرب في العشب: الصخور

الفصل الحادي والعشرون

الفرار في الأعشاب: هيو أف كوريناكيه

الفصل الثاني والعشرون

الهَرب في العشب: البراري

الفصل الثالث والعشرون

قفص «كلاني»

الفصل الرابع والعشرون

الهرب في العشب: الشجار

الفصل الخامِس والعشرون

في بلكهويدر

الفصل السادس والعشرون

نهَاية الفرار: نعبر نهر الفورث

الفصل السابع والعشرون

آتي إلى السيد رانكيلور

الفصل الثامن والعشرون

أذهبُ بحثًا عن ميراثي

الفصل التاسع والعشرون

آتي إلى مملكتي

الفصل الثلاثون